المتربص

رواية

كيرلس عاطف



إهداء

ما زال ذات التردد وعين الحيرة تعتريني كلما فكرت في كتابة الإهداء

لا أريد أن أدون بروايتي أسماء أشخاص تجمع بيننا صداقة مؤقته لمصلحة متبادلة، أو لحبيب لم يحفظ وعده بالبقاء، أو زميل لا يظهر إلا ما هو متناقض مع نيته الحقيقية..

لكن كل هذا ينتهي في ذكراه. لم يكن بيننا أي مصالح بل كانت أبوة نقية لأبنائه الصغار مهما بلغوا من أعداد أو زادوا في الأعمار. قد رحل جسده بالفعل عن عالمنا لكن روحه الكامنة في سيرته العطرة وأُعماله المخلّدة لا زالت تطفو في دفء بيننا. دائمًا أحبنا قلبًا وقالبًا بلا ادعاء أو نفاق

إلى أسطورة (د/أحمد خالد توفيق)

ستظل محتلًا للصفحة الأولى من أعمالي الورقية إلى الأبد، وحتى تحترق النجوم، كرد ولو جزء بسيط من فضلك.

إليك أيها العراب..

تمهيد

حاولَتْ أن تعدو، تقفز، تنتفض، تفر بحياتها، لكنه كان لها بالمرصاد، فحاولت أن تصرخ، تستنجد، تبكي، تعوي، لكنه دس المنديل القماشي بفمها استعدادًا لهذه المراوغات.

كان محترفًا في عمله بطريقة تنم أنها ليست مرته الأولى في هذا الأمر.

ثم أن جسده الرياضي الرشيق الذي يتفوق على جسدها الأنثوي الهش، أعطاه الأفضلية في عمله بلا جد أو تعب.

هو لا يغتصبها. فهذه ليست بطقوسه على أي حالٍ، لكن مَن يعلم؟ قد تأتيه الرغبة في الأنحراف عن نمطه الآن، فهي ليست بالمقدسة، ثم أنه ليس بالمنمّق لهذه الدرجة ليتمسك بنظامه الخاص بأي وقت وأي مكان. كما نضيف للاعتبار أن جسد هذه المرأة المرتجف، بجانب وجهها الذي ترتسم عليه كافة دلالات الفزع والهلع لن يثير رغبته الذكورية أبدًا.

- إنه أنتِ، كيف لم أتصور هذا؟.. إنه أنتِ أيتها الشمطاء.

صرخ بها الرجل وهو يتأكد من إحكام قيود المرأة في الكرسي بملائات الفراش، بينما هي تنتحب مترجية

أن يتركه و عينيها تحملق جافلة بالسكين الثائر القابع بقبضته المرتجفة.

لقد قال هذه الكلمة لجميع ضحاياه السابقين، دائمًا ما يقولها بنفس الحزم، ونفس روح التصديق تلك، لكن في كل مرة يكون اختياره خاطئًا، مكتشفًا هذا بعد فوات الأوان. هل سيصدق اختياره هذه المرة، أم تضاف بريئة أخرى لصندوق ضحاياه؟

- بعد أن قتلت أسرتي كاملة وجميع أقاربي، تكونين أنتِ السبب في كل هذا.. كيف أمسيث غبيًا لهذه الدرجة لعدم توقعي أنه أنتِ.

لم تكن كذلك مرته الأولى في هذه الكلمات بدورها، فالمشهد برمته ليس بالجديد في أنظار الرجل، لقد أقدم عليه عشرات المرات في السنة الأخيرة تلك. لم تستطع الشرطة الإيقاع به ولو لمرة، حيث كان حريصًا على إتمام جرائمه الكاملة كالثعلب، وثريًا لإهماد ثورة الشرطة في التحقيق عن أقاربه المختفين كالمصرف المتحرك.

ربما هو تعليمه ذو الرتبة العالية، أو قضاؤه الكثير من سنوات عمره في الخارج التي تشبع منها الكثير من الثقافات الأجنبية خاصة عن القتلى المتسلسلين على هيئة هواية عجيبة؛ هما اللذين أنمَا لديه هذا الحرص

في جرائمه التي تصل لحد الإتمام!

هو يعلم بقرارة نفسه أن رغبة القتل خاصته نمت في رحم روحه بسبب مرضه السابق، فهذا المرض الذي جعله يقبل على اقتلاع إحدى مقلتي عينيه بنفسه حتى تم إرساله إلى لخارج للعلاج من قبل أسرته.. لكن يبدو أن حتى بعد عودته، لم يشفَ بالكامل من هذا الـ...

كانت المرأة تئن وتنتفض في ربطتها بالكرسي، فقام الرجل بضرب فخذها الأيسر بسكينه، سخطًا على مقاطعتها لأفكاره. لتصرخ المرأة بدورها صرخة مكتومة لم يسمعها أحد بفعل قطعة الملاءة الممزقة التي دسها الرجل بفمها، لكن الصرخة قد سمعتها الأرواح التي زهقت على يده من قبل وجميع الشيطاين المعذبة بالجحيم.

- توقفي عن هذا الضجيج وإلا ما هنيتك بالنهاية الرحيمة.

حاولت المرأة أن تنظم أنفاسها لتهدأ، متحاملة على ألمها الذي يحرق ساقها وجسدها بأكمله، محاولة تجاهل الدماء السائلة من فخذها بعد هذه الطعنة المفاجأة. فعاود الرجل لتذكر أوائل ضحاياه التي كانت تتنوع بين أقرب أصدقائه وأفراد أسرته. تذكّر كيف

كانت حالته تتدهور يومًا بعد يوم، وجرائمه تزداد إتقانًا بلا أدلة أو أي خيط توجه أصابع الاتهام ناحيته. تذكر أول مرة حاولت فيها الشرطة التحقيق في اختفاء ابنة أخيه، وكان سدُّ أنوفهم الفضولية برائحة الأموال، فعالًا للغاية. تذكر المرحلة الثانية من جرائمه التي شملت أشخاصًا عشوائيين؛ بعد اكتشاف أن أسرته ليست الفاعلة أو بعد تحويله غالبيتهم العظمى لجثث صريعة إن صح التعبير.

موظف لديه في إحدى الشركات، سائق إحدى عربات النقل التابعة له، بستاني بإحدى حدائق قصوره، فحتى ضحيته الجديدة تلك هي مجرد قاطنة بأحد العقارات التي يمتلكها، لا تربطه بها أي علاقة مباشرة غير هذا. اختيارات ليس لها أساس منطقي ولا دوي عليه بأي نوع من الإفادة في العثور على ضالته الغامضة، لكنه سيعثر على هذا الشخص يومًا ما. هذا الشخص الذي أرّق عليه حياته وأطار النوم من عينه لفترة لا يُستهَان بها. سيجده حتى لو كلفه هذا كل ثروته وآلاف الضحايا على يده.. سيعثر عليه أو هكذا يزعم.

وصل لمسامع الاثنين صوت غلق باب الشقة بعد أن دلفها أحدهم، وتتبعه عبارة (لقد عدت للمنزل يا أمي)، نابعة من حنجرة رقيقة تعود لصبي صغير في العاشرة

تقريبًا من العمر. فانتفضت المرأة على الكرسي ناسية الألم محاولة الصراخ لتحذير الفتى بأن يهرب بحياته من هذا المكان الملعون، لكنَّ صوتها أضعف من أن يسمعه من يقف على عتبة باب الحجرة، فما بالك من بأول الشقة.

- أهذا ابنك؟

سألها الرجل للمرأة التي ظلت تنظر له في رعبٍ غير عالمة بأثر إجابتها عليه. أتجيبه بالإيجاب فيتركها ويرحل عندما يعلم أن لديها طفلاً صغيرًا تريد أن تحيا لأجله؟ أم تناوله النفي كإجابة، فيتركه وشأنه ليصب تركيزه على ضحيته الماثلة أمامه؟ في كلتا الحالتين هي تتمنى أن يتركه في سلام ليقتلها هي شر قتل ويمثل بجثتها بعد أن يغتصبها أو يحرقها حية إن أراد،لكن بشرط أن يترك الصبي لحال سبيله.. فعندما يتم تخييرك بين حياتك وحياة فلذة كبدك، إذًا فلتذهب نفسك إلى الجحيم ما دام سينعم الصبي بحياته.

ظلت المرأة جافلة دون أي إيماءة من وجهها، فسئم الرجل من صمتها المستفز هذا، فطعنها في فخذها مرة أخرى. وكانت هذه المرة أكثر إيلامًا، فقد اقتحمت السكين جلد ساقها ممزقة كل ما تتعثر به في طريقها

من أنسجة أو شعيرات دموية، فكتم الرجل فمها وهي تصرخ على عجلٍ. رغم ما يسد فمها، لكن صرخة الألم الممتزجة بالخوف على ابنها باتت أقوى مما تستطيع الملاءة امتصاصه. فقال في أذنها مبتسمًا وهو لا يزال يحكم زمام صرختها بكفه:

- يبدو أنني وجدت شريكك في فعلتك، وسيتقاسم معك العقاب.

ثم التقط سكينًا أخرى من التي أحضرها من المطبخ لهذه الحجرة للقيام بعمله الشيطاني، تاركًا الحجرة لضحيته الجديدة مخلفًا الأولى مغروسًا بساقها.

كانت المرأة تعلم الأصوات التي ستسمعها من خارج الحجرة بعد ثوان، والتي لن تخلو من بعض الركض ثم القليل من الصراخ انتهائًا بصوت الطعن المميز بالسكين ويسبقه بالطبع صوت ارتطام بعض الأشياء، لكنها لن تسمح بهذا، إذا كان عقلها قد شل من الخوف عندما اقتحم هذا الرجل منزلها في سترة الليل، عليه الآن أن يعمل، فهي لا تسعى لإنقاذ نفسها فحسب، بل تهدف الآن لنجدة ابنها الصغير الذي عاد لتوه لمنزله بعد إنهائه لمبارة كرة قدم مع أقرانه من الصغار أملاً في وجبة خفيفة من يد والدته الحبيبة تمده ببعض الطاقة بعد ما بذله من لهوٍ، غير مدرك أن هنالك سفاحًا مجنونًا

يمرح بين كنفات منزله.

تنبهت لصوت ركض في أرجاء صالة الشقة، فانتفضت المرأة من جديد تهز جسدها بعنف مرة أخرى، تحاول الصراخ للمرة المائة لكن دون جدوى تُذكَر، فالملاءة تُقيِّد ساعديها في مسندي الكرسي بإحكام.

أصغت لبعض الصرخات الطفولية ولهاث رجل بالغ، فراحت تحاول أن تنهض بالكرسي، لكنه ثقيل كالخوف على قلبها، ناهيك بالطبع عن السكين الذي لا يزال مستقرًا بساقها مقللًا من قدرتها على تحملها لوزنها وثقل الكرسي معًا. لكن مهلًا، ماذا عن السكين؟ يمكنها أن تصل إليه ببعض ال...! فبدأت تهز من جسدها وتمد قبضتها لتلتقطه أخيرًا بعد أن لمعت تلك الفكرة بذهنها لتستحوذ على تفكيرها.

رصدت بأذنها المتعرقة صوت ارتطام بعض الأشياء أو الأجساد، في حين أن تركيزها مصوبًا على تلك الدماء السائلة من جرحها بعد أن تم إزالة العائق الوحيد الذي كان يمنعها من السريان لخارج جسدها، ملطخًا ثوبها والكرسي، لكن لا يهم الألم، فظلت تحك السكين بقطعة القماش التي تقيد نفس اليد. جرحت ساعدها عدة مرات ليختلط بدماء ساقها، لكن لا يهم

النزيف.

استطاعت أخيرًا تحرير أحد رسغيها، لكن فرحتها بُترت سريعًا بصوت توسُّل طفولي نابع من الخارج؛ فسقط السكين من قبضتها أرضًا، كرد فعلٍ طبيعي من تفاعُل قلبها المرتجف مع تلك الأصوات.

ليس هذا بالوقت المناسب للسخف أو الارتعاش حتى الموت، فالتقطت السكين الملطخ بدمائها من جديد وعادت تمزق العقد أكثر يسرًا وسرعًة هذه المرة، حتى تحررت أخيرًا من كل تلك القيود البغيضة وها هي تهرول للباب، مع الحرص أنه لا يجب عليها التعثر أو فقدان أعصابها الآن، فما يهم هو ابنها الصغير.

فكادت أن تفتح باب الحجرة حتى صدمها صوت الطعن المقيت أولاً. ركضت من الغرفة سريعًا آملة أن تكون أذنها قد خانتها أو ستتمثل نجدة الصبي في خروجها لإنقاذه، لكنها رأت المشهد الحقيقي الذي تخيلته من البداية الكامن في جثة الصبي خائرة القوى على الأرض بعد أن خبا عن عينه بريق الحياة وهذا المجنون يجثو فوق جسده الصغير، طاعنًا جثته الهامدة بلا كلل أو سأم.

لن تصرخ، لن تسقط، لن تولول، لن تنفجر باكية، عليها أن تكون عملية أكثر من هذا فلا يزال الخطر

قائمًا.. لكن ما فائدة التماسك وقد قتل ابنها؟ فلا شيء يحثها على المقاومة الآن. ورغم هذا عليها أن تنجو هذه الليلة. تعلم أنها لن تستطيع التغلب على هذا الرجل بمفردها، لهذا عليها أن تنجو لتجلب المساعدة.. لتجلب الثأر لابنها لاحقًا.

لا تعلم إن كانت هذه عملية زائدة عن الحد الطبيعي أم أنانية تفوق الوصف، لكنّ لمقتل الابن أمام أمه تأثيرًا عظيمًا على نفسية الأم لا يمكن توقعها. تلك المرأة - إن نَجَت الآن- لن تحيا بقية عمرها بشكل طبيعي بعد هذا المشهد وهذه الخسارة.

انتبه الرجل للمرأة التي استطاعت أن تتحرر من قيوده، فوثب ليركض نحوها وشياطين الموت تتراقص أمام عينه متعطشة لدمائها، شاهرًا سلاحه في ثورة الثيران بالحلبات المكسيكية، لكن المرأة انحنت لتباغته بطعنها للسكين خاصتها في منطقة ركبته، ليجثو الرجل أرضًا على ركبته الأخرى وهو يئن لأول مرة في حياته وفي تاريخه الحافل بالجثث والضحايا.

هي لا تعلم كيف واتتها هذه القوى،كما هو لا يعلم لمَ هذه المرأة الوحيدة التي استطاعت أن تقاومه هكذا. لكن مشهد الصبي الصغير الذي انفجرت الدماء الحمراء القانية إثر عدة طعنات بجسده، أجبرته على الرقود في

بركة متحركة من تلك الدماء وعيناه توحيان بأن روحه قد سلبت منه غصبًا.. تفسر هذا التطور الرهيب بالأدوار.

قد حالفها الحظ واستطاع الأدرينالين أن يعطيها بعض القوى، لكنها لا تزال الجانب الأضعف في المواجهة، فلن تخاطر بسحب السكين من ركبته أو التقاط شيء ما لتهوي به على رأسه. فهذا الثور سيعاوده احمرار عينيه سريعًا.. لذا وجب عليها الهرب، فدفعته براحة يديها الواهنة لتكسب بعض الوقت، وانطلقت من باب الشقة تعدو، تهرول، تعرج. أيًا كان اللفظ أو المصطلح السليم فهي تكافح للنجاة بحياتها. خرجت من الشقة والعمارة بأسرها، راكضةً للمجهول لتطلب منه العون، وهناك خط من الدماء يتبعها في عزم.

تشعر بالدوار، تترنح، تقاوم السقوط. لقد فقدت الكثير من الدماء، ولن يتحمل جسدها المزيد.. أهذه هي النهاية؟

هناك شيء تقبض عليه في راحة يدها لا تعرف ماهيته ولا تدري كيف وصل إليها من الأساس. هل تشبثت بشيء من الرجل حين دفعته بشقتها؟ لا تهتم لأصله ولن تنتظر لتعرف، فعليها توحيد طاقتها على

أمر واحد: الهرب.

تناولت درجات السلم وثبًا كفتاة في العاشرة، تهرول بالشوارع ثم تتعثر لتختلط دماؤها بأتربة الشوارع فتزيدها حرقة على ألمها. هل تهرب من قاتل مجنون لتلقى مصرعها على الطريق؟ ألهذه الدرجة يشعر الموت بالنشوى، ويأبى الرضا بما حصده اليوم؟.. لا لن يحدث أيٌّ من هذا. يجب أن تقاوم، أن تتحامل على نفسها رامية كل أوجاعها خلف ظهرها.. فالثأر هو الأهم الآن.

***

(1)
في حلبة النزاع

6/2/2005

الأقصر

الثانية عشرة صباحًا

يدلف رجلٌ على مشارف الثلاثين من العمر من الباب الرئيسي للمبنى جارًا خلفه حقائب جلدية وقماشية ضخمة مكدّسة بالملابس ومختلف الحاجيات المخفية بين طياتها، تنم أنه كان مسافرًا لرحلة طويلة. كان وسيمًا نوعًا، يرتدي نظارة شمسية توحي لك بتيسُّر حالته الاقتصادية أو ربما أكثر بجانب تلك المشية مفرودة الظهر التي تعطيك انطباعًا بأهميته، أصابع يده خالية من الخواتم لتدل على عدم خطبته أو زواجه، ولا يوجد أثر محفور لدبلة بأي إصبع له لتدل على أنه ليس مطلقًا كذلك، يرتدي ملابس السفر الخفيفة المتناسبة مع صهد الأقصر الدائم، لكنه لا يخل عن مشهده الموحي بالوقار، ناهيك بالطبع عن بشرته شبة البيضاء بالنسبة لسكان تلك المنطقة لتؤكد أنه سائح وليس بالمقيم بتلك المدينة.

رأى رجلًا يوازيه في العمر، ذو بشرة قريبة للسمرة

تدل أنه من السكان الأصليين لتلك المدينة العريقة، يقبل عليه فاتحًا ذراعيه على امتدداهما كمقدمة لعناق حار، ليماثله الرجل الأول في فعلته بعدما ترك حقائبه لتسقط أغلبيتها بعنف لتعانق الأرض بدويٍّ.

تعانق الرجلان في ضمام أخوي محمّل بكل الحنين للصديق الذي غاب طويلًا، وكل الذكريات المشحونة بالمغامرات المرحة، تتدفق لعقليهما في آنٍ واحدٍ. فصرح الرجل الثاني بعدما أنهيا العناق، عن مدى شوقه لصاحبه، ليبادله هذا الأخير عبارات الحنين محملًا بالعتاب بينهما لاختفائه عن الأنظار لمدة سبع سنوات عقب انتهاء الجامعة دون السفر للقاهرة ولو لمرة واحدة لزيارة أصدقائه. فردّ الرجل الثاني مازحًا:

- أنت من يجب أن تزورني بالأقصر يا (آدم) فقد مكثت بالقاهرة أربعة أعوام الكلية كاملة، حتى سئمت القاهرة نفسها من طلتي.

- لكن أهلها لم يفعلوا بعد يا (أسامة)، ثم تمكث بها أربعة أعوام لتهجرها لسبع؟

بعد الكثير من عبارات الترحيب والمزاح تلك، تذكروا أنهما لا يزالان على باب المبنى ولم يترجلا به بَعدُ؛ فقد أخذتهم الحالة الودية المتحابة بين الأصدقاء من المزاح والعتاب، فساعد (أسامة) صاحبه في لملمة

حاجياته من الأرض متقدمين لأحد المقاعد بالداخل ليستمرا في الثرثرة غير شاعرين بالوقت. فبعام واحدٌ تشتعل به من الأحداث ما يكفي لملء كتب التاريخ بصفحات لا حصر لها، فما بالك إذًا بسبعة أعوام كاملة، هناك الكثير مما بجعبتهما لم يفصحا عنه.

فدعنا نستمع لإحدى تلك الثرثرات، ربما نجد بها ما هو مهم، ليسأل (أسامة):

- لقد توظفت. أليس كذلك يا (آدم)؟

- بالفعل، لكن من فترة قصيرة لا تزيد عن الأربعة أعوام، فرغم فترات التدريب التي قضيتها معهم بالجريدة طوال الدراسة لكنهم لم يوظفوني إلا بعد السعي خلف الواسطات.

ضحك (أسامة) ثم قال مواسيًا:

- كان عليك اتباع طريقة الواسطة منذ البداية، لا عليك، فالمهم أنك توظفت معهم وها أنت تسافر بكل أرجاء مصر على نفقتهم الخاصة.

- قد تكون هذه الحسنة الوحيدة على حسب قولك، فهؤلاء القوم أثرياء لدرجة أن مديري يمسح عرقَهُ بورقة ذات فئة المائة جنيه.

ضحك كلاهما ثم، عاد (آدم) يبادر بالسؤال هذه المرة:

- وأنت قررت أن تظَل هنا.. بعد كافة تلك السنوات الدراسية لتمر عليك هباءً بتلك الشاكلة؟

- بالطبع لا، أنا هنا لفترة مؤقتة.. سأخبرك بها فيما بعد، اذهب أنت الآن لغرفتك لتستريح من عناء السفر وبعدها سنظل نتحدث حتى تُقدِم بنفسك على مغادرة الفندق من السأم.

ناول (أسامة) ميدالية تحتوي على مفتاح غرفة ورقمها الخاص إلى (آدم)، قبل أن تركض فتاتان صغيرتان من خلف (آدم) في نمطٍ لهوٍ طفولي.

ليصيح (أسامة) مفاجئًا (آدم) ذاته:

- لا شقاوة الآن، لدينا ضيفٌ عزيزٌ.

ثم عادت إحدى الفتاتين لتقف بخجل من فعلها المشين -في عين (أسامة)- كانت ترتدي فستانًا أزرق اللون، عاقدة شعرها في شكل طفولي محبب للعين على نمط (الضفيرة الفلاحي)، ليعرِّفها (أسامة) بأن تلك هي ابنته (إيمان) ذات الستة أعوام. فتقدمت الفتاة لتصافح (آدم) بخجل بعد عبارة (أسامة) الأخيرة، ليصافحها هو ببسمة عريضة، ثم أشارت (إيمان) للفتاة الأخرى التي تقف على بعد عدة أمتار، مستترة خلف أحد الجدران، لتقول ببراءة:

- (دينا) لا تريد أن تقترب، فهي خجولة مع الغرباء.

ثم غمز (أسامة) لصديقه، مطالبًا إياه بالأكتفاء بالتلويح لها من بعيدٍ فحسب. فهمَ (آدم) من غمزة (أسامة) أنه يقصد ألا يقترب منها وإلا ركضت لغرفتها، فهو يعلم نوعية تلك الفتيات الصغار اللاتي يخجلن الغرباء ولا ينظرن بعيونهن ولا حتى يأكلن معهم على طاولة واحدة على نقيض العادة، وبمجرد رحيلهم، تعود الفتاة لحياتها الطبيعية من الشجار والبكاء المُلح، مزيلة حلة الملاك عنها.. فأكتفى (آدم) بالأشارة لها من بعيد، لتفعل هي المثل قبل أن تركض في خجل، ثم تبعتها أختها لتعاودا اللعب في مكان آخر.

كانت (دينا) ترتدي ملابس مشابهة لأختها تمامًا كما لو أنهما توأم أو تدعيان ذلك، فشكلهما لا يتقارب في شيء غير البراءة.

فقال (آدم) لصديقه من جديد وهو يلملم حقائبه:

- حفظهما الله لك.

فضحك (أسامة) بودٍّ، قبل أن يبادله التمني بنعيم الله عليه بالمثل. ثم نادى (أسامة) باسم (نرجس) بصوتٍ عالٍ، ثم أتت على إثر هذا الصوت مرأة بأواخر الأربعين وفي بدايات الخمسين من العمر، ترتدي زِيَ خادمات الفنادق، لكنها متمسكة بحيوية الشباب والصلابة في مشيتها التي لا تنم عن أي عائقِ عُمرٍ يؤثر

عليها، فلولا تلك التجاعيد التي تظهر مرور السنوات عليها لظن الجميع أنها شابة حديثة الزواج. ساعدت المرأة (آدم) في حمل حقائبه ثم سارت ترشده لموقع غرفته بعدما تلقت تعليماتها من (أسامة).

كان (آدم) يسير، متلفتًا حوله وهو يتأمل غرابة هذا الفندق، الذي يختلف عن الكثير من فنادق الأقصر المعهودة ببصمتها الفرعونية الجاذبة للسياح، لكن (آدم) لم يلاحظ غير أربعة تماثيل فرعونية للزينة وربما أقل، لكن باقي الموجودات هي عبارة جماجم لحيوانات متنوعة، أو أجساد محنطة لحيوانات صغيرة مختلفة.

لم يدرِ إذا كانت تلك الأشياء أصلية أم هي مجرد مواد بلاستيكية للبهرجة لا أكثر، لكن تلك الشقوق التي تتخلل سطوح الجماجم الملساء التي تنم عن كسر حقيقي، وتلك الشعيرات المنتصبة والعيون الجاحظة على الحيوانات المحنطة، تدل أنها أكثر من حقيقية.

هذا المكان غريب في اختيار طريقة تزيينه، لكن الغريب مستحبٌ أحيانًا كما أن هذا المكان أضفى في فؤاد (آدم) نوعًا من الألفة يجهل سببها، لكنه شعر بها، كما لو أن هذا المكان يذكّره بشيء ما.

وصل (آدم) للحجرة بالطابق الثاني بعدما قدّم للمرأة بضعة جنيهات كإكرامية على مساعدتها، نزع نظارته

الشمسية لأول مرة لتظهر عيناه ذات القزحيتين مختلفتي اللون. (Heterochromia). كما لو أنه تعمَّد إخفاءها طوال تلك الفترة، ثم بدأ في تعليق ملابسه بالدولاب، وحتى ينتهي من هذا. دعونا نتحدث عن (آدم سمير) قليلًا.

كان والد (آدم) يعمل كمرشد سياحي مصري الذي تعرف على زوجته المستقبلية بأحد أفواج السياحة، حيث كانت برازيلية الأصل والمحل.

تزوجا وأنجبا آدم الذي عاش بين كنفي والدية في مصر حينًا والبرازيل حينًا آخر. ربما اختلاف جنسيتهما هي ما سبَّبت له اختلاف لون عينه هذا، فهو مرض وراثي كما تعلمون، حتى جاء الـــ...

تنبَّه (آدم) لتلك البطاقة التي هوت من أحد جيوبه إثر حركته المنحنية في الإتيان بالملابس من حقيبته وإرقادها بموضعها بالدولاب، فالتقطها مقربًا إياها من ناظريه لتتضح أنها بطاقة انتمائه لنقابة الصحفيين. فراح يدسها بمحفظته برفق كما لو أنه يحمل جنينًا حديث الولادة يخشى أن يصيبه مكروه، متنفسًا الصعداء أنه لم يفقدها دون وعيٍ منه، خاصة بعد تذكُّره لكم العناء الذي واجهه للظفر تلك البطاقة.

توظف (آدم) بإحدى الجرائد المهمة بالدولة -عن

طريق الواسطة كما ذكرنا- وقد حصل على مهمة بعمل مقال جديد عن كل آثار مصر بمناسبة اقتراب مرور خمسة وثمانون عامًا على اكتشاف مقبرة (توت عنخ أمون)، وهذا المقال يتطلب الحوارات المسجّلة وتصوير تلك المناطق وما إلى ذلك، فلهذا يحتاج إلى زيارة تلك الأماكن شخصيًا، وكل هذا على نفقة الجريدة بالطبع. وعندما جاء الدور على الأقصر في الزيارة وحصد آثارها، قرر الولوج بفندق صديقه القديم (أسامة)، موفرًا ثمن الإقامة لنفسه، كنوع من الاقتصاد للمال والانتقام من الجريدة التي أهدرت من عمره ثلاثة أعوام، يعمل بها بدون شهادته الأصلية في المحلات والمطاعم والجرائد الإلكترونية الساذجة حتى توصل للواسطة أخيرًا.

أما عن (أسامة) فهو الآخر لم يعمل بشهادته، فقد عاد للفندق الذي توارثه عن أجداده للعمل بإدارته بعد انشغال والديه في أعمالهما الأخرى، فهو ينحدر من أسرة ثرية متعددة الأملاك في مجال السياحة، من سيارات أجرة للسياح وبازارات وفنادق، بجانب شركة السياحة الأصلية بالطبع.

انتهى (آدم) من ترتيب حاجياته بالحجرة وتذكره لبعض أيام الجامعة المرحة، فخرجت منه بعض

البسمات والضحكات رغمًا عنه. ثم توجّه للفراش الذي تم ترتيبه بعناية ليرمي جسده فوقه ويذهب في عالم النوم المحمَّل بالراحة، نافضًا عن جسده كل عناء السفر وحمل العمل، عالمًا في قرارة نفسه أن الأيام القادمة ستكون مزيجًا ساحرًا بين الأنس والود.. أو هكذا ظن.

(2)
ما لا نعلمه

26/6/2015

أحد أحياء المطرية بالقاهرة

التاسعة مساءً

في البدء كان الموقع عبارة عن قبوٍ أو ما يعرف بلقب (بادروم) كريه الرائحة، مخنوق التهوية كما لو أنه يخشى مواجهة العالم فيكتنز تحت الأرض، وكما يخشى ضوء الشمس العليل فيختبئ في الظلال الحانقة. يقبع بإحدى البنايات الحاصلة على قرار بالإزالة دون إقدام على إتمام الأمر، بإحدى الحارات الشعبية المظلمة التي اعتاد بها البلطجية إيقاف المارة لإثارة المشاكل، أو عهد بها الشبان تدخين سجائرهم غير الشريفة مستترين بالعتمة كستارٍ لهم، أو ألف بها المراهقين من الشبان والشابات سرقة بعض القبلات المحرَّمة التي يمكن أن تزيد عن هذا بفضل سكون المكان وكتمته للأصوات حتى لو قابعة من قلب أحشائه.

ثم نجد بهذا البدروم –متهادم الدرجات- عددًا لا بأس به من مختلَف طبقات البشر من الثراء أو الفقر،

يجمع بينهم عاملٌ واحدٌ مشترك وهي علامات اليأس المرتسمة على ملامحهم من مشكلات حياتهم، وتشوبها بعض قسمات الأمل في عون هذا الشيخ لحل معضلاتهم، ولكن للتوجس بصمته القابضة للأنفس التي لم ترحم أيًا من الزوار من بين قبضته الشنيعة، حديثي الزيارة كانوا أو دائمي التردد عليه.

باستثناء هذه القاعة وهذه المرأة الضخمة المتشحة بالسواد الجالسة إلى مكتب خاص لتتناول الأموال من الرواد اليائسين وتعطيهم أوراقًا بالدور أو تسجله في دفترها بخطٍ رديء ينم عن عدم وجود أساسات تعليمية سليمة، ثم نمر على بعض الحجرات المغلقة على جانبي الردهة المميزة بالمكان، الله وحده يعلم في أي غرضٍ خبيثٍ تُستخدَم.. وصولًا للحجرة المنشودة.

غرفة واسعة مغلَّفة جدرانها بجلود الأبقار وجماجم الماعز، غير عظام بعض الحيوانات الأخرى التي لا أستبينها من ظلام الحجرة. تتوسط الحجرة مبخرةٌ عملاقة مكثَّفة بالفحم وحطام من الخشب الذي لم يتصور أبدًا أن ينتهي به المطاف في مكانٍ كهذا بعدما تم قطعه عن شجرته تعسة الحظ. تتقدم كرسي عملاق شبيه بعرش ملوك السلاطين العثمانيين قديمًا، يتربع عليه ملكه المتوَّج.

رجلٌ يرتدي جلبابًا نتن الرائحة، تكثر به البقع التي يحاول أن يداريها بتلك العباءة شبه الجديدة، لكن سرعان ما سيصعب تفريقها عن الجلباب من وفرة القاذورات التي ستنهال على عباءته عاجلًا أم آجلًا. معلق بيده ما لا يقل عن دستة من السبح. ذو لحية نامية كثيفة سوداء مبعثرة على خلجات وجهه بلا هدى توحي بإهمال نظافته الشخصية. يغطي رأسه بعمامة عجيبة اللون في محاولة منه لادعاء المشيخة بجانب ستر شعيراته الطويلة الكارتة التي لم تَطُلها فرشاة أو حتى الماء منذ عقود.

- معضلتك بسيطة يا ابني وحلها لدي بإذن الله.

لقد انتهى أخيرًا من بعض الارتجاج المصحوب.

بقراءة آيات مبعثرة من القرآن غير الكثير من الاستغفارات غير المبررة، ليقدم لي بالنهاية تأكيده على مقدرته بمساعدتي. بالطبع هو يستطيع عوني، فما الذي قد يعجز عن إتمامه هذا الواصل؟

جاريته في هذا المسلسل السخيف مستفسرًا عن المشكلة باحترام ووقار لا يخلو من التهذيب. فالإضاءة الباهتة وهذه الهيبة النتنة وتلك العظام الحيوانية التي ابتاعها من أقرب جزار للمكان، استطاعت أن تنمي بروحي قليلًا من الرهبة لهذا المشهد.

فأجابني الشيخ بصوته الجهوري مصحوبًا بصوت حبات السبح وهي تئن من اصطدامها ببعضٍ على ذراعه الذي لا يستقر عن الحركة:

- الأمر وما برمته يكمن في قرينك، فهو في حالة ثورة عليك، أنا أراااه وأرى الخبث في عينيه، وبمقدورررري إهماد هياجه.. لكنَّ كبت بطش القرين سيكون مُكلِّفًا بعض الشيء.

ها هي الجملة المزعومة المطالِبَة بالمال، المصحوبة بتمديد بعض الأحرف في وتيرتها الغنائية الشهيرة مؤكدة على ادعائه الكاذب؛ لذلك قررت الانسحاب من هذا المكان بحجة قلة ما معي من نقود على وعدٍ مني بتوفيره في أقرب فرصة، قبل أن نصل لمرحلة السكين على اللسان أو الزار الشعبي المكثف بالطبول.

لكنه قرر أن يرقيني لتلك الليلة فحسب تأمينًا لي حتى آتيه بالمرة القادمة بالمبلغ المطلوب لإغلاق الأمر للأبد. كان بودي الرفض أو الاعتراض، لكن تلك ليست سوى رفاهية لم تكن مباحة لي وقتها، حيث شرع الشيخ في تعاويذه، وبدأت أنا بالغرق في الجحيم.

كان أمرًا واحدًا منه بالجلوس بهذا الصوت الذي تحول من مادة قابلة للسخرية لصوت شيطاني يأتي من أعماق الجحيم، كفيل بإصابة كافة جسدي بالشلل

خاضعًا لأمره. ولا أعلم إن كان الخوف هو من قيَّد حركتي عن النهوض أم هنالك شيء خفي يكبل عضلاتي عن أي حركة مهما كانت بسيطة.

شرع الشيخ في التمتمة بصوت خفيض تارة ومرتفع تارة أخرى، ولكني في الحالتين لم أفهم ولو حرفًا واحدًا مما ينطقه، رغم تيقني التام أنه يتفوه بحروفٍ عربية وليست أي لغة أجنبية أخرى. لم أفهم السبب حتى حاولت النطق محاولًا إقناعه بعد حاجتي لكافة تلك الأمور، حتى وجدت أني لا أستطيع تكوين كلمة واحدة حتى.. لقد نسيت لغتي الأم، وقعًا على الأذن أو نطقًا باللسان!

حين أدركت تلك الفاجعة، راح الشيخ يرتِّل كلماته في نغمة مخدِّرة. لم أعلم إن كان يتفوه به من عزائم شيطانية أم لا، لكن ما حلَّ بي الآن لا يوحي أنها رقية شرعية من أي جانبٍ.

كانت أدخنة المبخرة تتعالى حتى ملأت فضاء الحجرة بأكمله دون أن يمسه الشيخ أو يلقي به البخور، لتضحى الحجرة غارقة في ضبابٍ كاتم للأنفاس، فرغم إدماني للسجائر حتى أضحت رئتي تستنشق عوادم الحرائق بصدرٍ رحبٍ، لكن تلك المرة أمست الأدخنة بها كثافة لفافات التبغ التي تجرعتها طوال حياتي،

تغتصب صدري دفعة واحدة بلا نية للرحمة.. لتظهر من بين الأدخنة تلك العين!

كانت هناك كتلة مادية سوداء تجلس أمامي على المقعد المقابل، وأؤكد هنا على لفظ كتلة لأني لا أعلم إن كانت رجلًا أم امرأة حيث كان الجسد مكتنفًا أسفل عباءة سوداء ضخمة تخفي كافة ملامح الجسد. في الظروف العادية كنتُ سأوقن أنها مجرد امرأة منتقبة، لكن مع كافة تلك الأجواء الشيطانية التي تدور من حولي، فبالكاد أجزم إن كنت أتنفس أم لا. ناهيك بالطبع أني لا أتذكر وجود هذه الكتلة في بداية جلستنا، لكن تلك العين المضيئة المتخطية سواد العباءة لتضيء كالمصباح بلون أصفر، معلنة عن تخطيها للمنطق في فجورٍ.

لمَ عينٌ صفراء؟ بل لمَ عين واحدة من الأساس؟ لا أعلم.. لكني لا أملك من الفضول ولو ذرة واحدة ليجبرني على الانتظار حتى أعلم. لقد نسيت أصول الكلام ولن أنتظر حتى أنسى طريقة التنفس كذلك. فعقدت العزم على تكثيف طاقتي لتحريك مفاصلي. في حين أن جسدي لم يكتفِ من إدهاشي لتلك الليلة، حيث رأيت كافة أناملي وهي منتفخة يدججها ورم أزرق اللون كما لو أنها يد جثة غارقة. حاولت إبصار

كافة جسدي لكن أكمام قميصي الطويلة حالت بيني وبين الأمر بجانب حالة الدوار الشنيع الذي ضرب برأسي وهذه الغلظة المريرة على رئتي، أجزمت لي أن هنالك تغيُّرًا إبليسيًا يجول بجسدي.

استطعت تمييز أن هنالك ما يكبل كتفيّ ضاغطًا إياهما لأسفل. هل هذا قريني بالفعل من يتحالف ضدي كما زعم الشيخ؟ لن أهدر الوقت للتفكير في إجابة، فرُحتُ أدفع جسدي لأعلى بعزم ما أمتلك من طاقة صارخًا عسى أن تدب في كياني بعض الحماسة.

رحت أصرخ كما لو أن نهاية العالم، وهي كذلك بالنسبة لي بالفعل. متجاهلًا همهمات الشيخ التي تصيبني بالجنون، متجاهلًا جماجم الماعز التي بدت كقبائل من الشياطين أو عشائر من الجان حضرت للتناوب على هتك جثتي، متجاهلًا تلك الأصوات بخلفية المشهد التي كانت تتنوع من أصوات قرع من كل حدب وصوب، لنغمات طبول الزار الشعبي، لصيحات استغاثة أنثوية، لصخب متنوع لأصوات لم أسمعها بحياتي لكنها لا تزيدني إلا رجفة.. في حين أن ما لم أستطع تجاهله مهما حاولت، هي تلك العين الصفراء التي تزداد توهجًا كلما زادت مقاومتي لما يكبلني.

راح المكان يلتف من حولي بالمعنى الحرفي للكلمة؛ حيث بدأت الأدخنة بالدوران من حولي كما لو أن إعصارًا قد ضرب الحجرة برمتها، وكان هذا مكافئًا لتمتمات الشيخ التي علت حتى غطت على صرخاتي التي أضحت مجرد همسات ضعيفة مقارنة بصوته المجلجل.. ولكني يجب أن أقاوم مهما كلفني الأمر من مجهود.

استطعت أن أثب أخيرًا من مقعدي بعدما انتصرت على مُقيِّدي الخفي، ولكنَّ فرحتي تلك لم تَدُم إلا لثوانٍ، حيث شقت العباءة السوداء للكيان الجالس أمامي جاهزًا أنه في انتظار تلك اللحظة ليكشر عن أنيابه، لينبثق منها كمٌّ مهولٌ من الفئران السوداء بشعة القسمات منقضة على وجهي بلا هوادة، صحبها ارتجاجة للغرفة منبهة لسقوط الحجرة بل والعمارة بأثرها فوق رؤوسنا عقب أن تمكّن الإعصار من الفتك بدعائمها كذلك، مُغرِقة المشهد من حولي في سواد جهنمي.. لم يَطُل إلا لثوانٍ!

أفقت وأنا أشهق منتفضًا بعدما شعرت بتلك الكومة المائية وهي تضرب وجهي، تطلعت للمكان من حولي بعين زائغة يعتريها الفزعُ، لأجد أنني كنت ممددًا على الأريكة في حجرة الشيخ التي عادت إلى براءتها

المصطنعة دون أدخنة أو وطاويط أو حتى صخب في الخلفية، إضافة إلى جسدي ذاته كان طبيعيًا بلا انتفاخ أزرق بأناملي أو تلعثم في فهم الكلمات. كدت أن أسأله عما حدث لكني آثرت الصمت حتى لا يتمكن مني الخبال، فبالطبع إجابته لن تبتعد عن أنه راح يقرأ من آيات القرآن على مسامعي، مضيفًا إليها رميي ببعض من الماء المقروء عليه، لا أكثر ولا أقل. فهممت راحلًا عن المكان بعد أن ناولني الإذن لهذا مضيفًا عليه ميعاد الجلسة النهائية التي سيخلصني فيها من معضلتي حين آتيه بباقية المبلغ.. وعلى ثغره شبح ابتسامة ساخرة منتقمة.

هرولت لخارج تلك المغارة وسط أنظار الجميع المدهوشة من ركضتي الفزعة، ليس خارج مكنف الشيخ فحسب بل لخارج المنطقة بأثرها على أقل تقدير، سعيًا للأمان بعيدًا عن سطوته.

تطلعت لساعة يدي لأبصر أني لم أقضِ سوى عشر دقائق على الأكثر لدى الشيخ!.. إذًا فاحتمالية أنه خدّرني لسرقة أعضائي أو حاجياتي باطلة، ناهيك أن ما معي من حاجياتٍ مغرية بعين اللصوص سواء من هاتف محمول أو محفظة لا زالوا بجيوبي بل وبأتم عافيتهم دون أن يمسهم مكروه..

إن لم يكن ما رأيته هذا هو نوع من التخدير للتلاعب بالعقول، إذًا ما هو؟

بعدما تمالكت أنفاسي المتوترة رحتُ أترجل قاصدًا منزلي عقب إشعالي إحدى سجائر علبة لفافات التبغ خاصتي لصرف ذهني عمَّا حدث، بعد قسمٍ صريحٍ مني بعدم التفكير بهذا الأمر من جديد واعتباره مجرد هذيان لحظات انفعال زائدة، ملقيًا اللوم على خيالي الخصب أو مرضي الزميم.

ظللت ألعن نفسي على انسياقي وراء كلام الجارات الثرثارات، متأسفًا على ما انفقة والديَّ من أموالٍ وسنين في تعليمي لأرمي بهما بعرض الحائط للتو.

والداي! لقد اشتقت لكما حقًّا، متى سيرحمني الله مثلما رحمكما وآتيكما لمثواكما الأخير.. لقد طال انتظاري وقلّت حيلتي.

لكن مهلًا.. هل هذا الفأر يتبعني؟

(3)
أيام مضت

6/2/2005

الفندق بالأقصر

السادسة ظهرًا

استيقظ (آدم) على صوت طَرقٍ خفيف على باب غرفته يصحبه صوت أنثوي ينادي باسمه مطالبًا إياه بالاستيقاظ حتى يتناول العشاء، ويتسنى له النوم بأريحية ليلًا دون أرق السهر.

فتح هذا الأخير عينيه بتثاقل. أنتم تعلمون الثواني الأولى من فقدان الذاكرة بعد النوم، خاصة عندما ينام المرء في مكان بعيد عن منزله الخاص. اختصارًا لعدة ثوانٍ من الدهشة للمكان، وجحظ ذاكرته لتذكُّر أين هو وماذا يفعل هنا، وتأمُّله لأثاث الحجرة البسيط المعهود للفنادق. والتي تبعتها دقائق من النهوض عن الفراش صوب المرحاض لغسل وجهه وتغيير ملابسه، انتهاءً بنزوله من غرفته بالطابق الثاني إلى قاعة الفندق ليجد صديقه (أسامة) جالسًا خلف مكتب الاستقبال وهو يتحدث بالهاتف الأرضي صارخًا:

- أجل.. بالطبع.. غدًا بإذن الله سأنتظرك.. معك العنوان أليس كذلك؟ متى ستصل؟.. لا أسمعك جيدًا.. مرحبًا..مرحبًا.

ثم قذف بسماعة الهاتف على المكتب بغضبٍ، غير عابئ بأثر تلك الرمية على الهاتف من ضررٍ. ظلّ يزفر في غضبٍ وهو يتلفت حوله كما لو أنه يبحث عن شيء يكسره أو شخص يضربه أو أي وسيلة يصرِّح بها عن غيظه فحسب. حتى وقعت عينه على (آدم) فحاول أن يداري سخطه هذا بابتسامة ودية لكنها كانت مفتعلة لم تمحُ كل احتدامه.

تفهم (آدم) حالة صديقه، ففضل عدم التطفل عليها، للأن على الأقل. فسارا معًا لطاولة مستطيلة ضخمة.مليئة بالمأكولات شهية الرائحة قبل مذاقها. فجلس الاثنان بشكل متقابل على الطاولة وبدأ كلاهما في تناوُل عشائه في صمتٍ مقيتٍ.

لم يتوقع (آدم) هذا الاستقبال المضطرب من صديقه بعد غياب سبع سنوات..

كما أنه لم يتوقع أن يكون هذا طعام الفندق. هذه الصالة التي يجلس بها المرصعة ببراويز عملاقة لصور بالأبيض والأسود أو ملونة، الشبيهة بالصور العائلية، لتكرر بعض الأشخاص في أكثر من صورة. وتلك

الطاولة تذكره بالولائم الصعيدية، كما أن هذا الطعام المشحون بالسمن البلدي الثقيل، لا يتناسب مع أمعاء السياح الهشة. فقال (آدم) في محاولة منه لجذب انتباه صديقه، في حين لا يزال يلوك الطعام بين أسنانه:

- ما بال هذا المكان يا (أسامة)؟ إنه ليس بالنمط المعهود من الفنادق من (البوفية) المفتوح والطهاة ذوي القباعات البيضاء الطويلة.. ثم لمَ نأكل وحيدين، أين بقية النزلاء؟

أجابه (أسامة) بسرعة وهو يدس ملعقة محمّلة بالأرز والملوخية بفمه، بسؤال عن علمه بما يسمى البانسيون؟ فأجابه (آدم) سريعًا بعدما تواردت الأفكار برأسه عن أصل تلك الكلمة:

- بالطبع أعلم.. لكن ما علاقة هذا بالفندق؟

- هذا هو أصل الحكاية. فمنذ خمسة عقود أو أكثر كان هذا القصر ملكًا لأسرتي للاستخدام الشخصي، لكنهم قرروا تحويله لما يماثل البنسيون بتأجير غرفه الكثيرة للسياح التي لا نستغل إلا القليل منها. فبالقصر عشرون غرفة، حيث تسمح الواحدة منهن باحتواء أربعة أشخاص، أي أن القصر مجهز لاحتواء ثمانين نزيلًا غير الخدم والطهاة والحرس والموظفين.. نال

الفندق على شعبية بين السياح لفكرته الجديدة في نمط الإقامة به، بجانب فكرة الطعام الجماعي تلك، بالإضافة إلى تصميمه الداخلي البعيد عن الفرعوني بتقليديته.

هذا يفسر كل شيء من الديكور العجيب والصور العائلية تلك. لكن هذا لم يفسر سبب غضب (أسامة) بعد والحديث مع (آدم) لم يحل عنه حالته الحانقة، فقرر أن يستمر في الثرثرة لعلها تزيل عن عاتقه هذه الغمة، مثنيًا على مهارة الطاهي، ليعلمه (أسامة) أنه يمكنه أن يشكر (نرجس) بنفسه إذا أراد. فارتسمت معالم الدهشة على وجهه بعلمه أن تلك المرأة هي الطاهية بجانب عملها كعاملة تنظيف، ليصرح (أسامة) أنه يحاول التوفير في التكاليف بعض الشيء، لكنه لم يفضِّل إطالة الحديث بهذا الأمر حتى لا يشغل صديقه بثرثرة لا داعي منها. فآثر (آدم) عدم الضغط عليه في الحديث مغيرًا دفته نهائيًا، متذكرًا معه أيام عبث الجامعة والصبى اللعوب.. لرسم بسمة ولو صغيرة على ثغره.

***

في ذات التوقيت بإحدى حجرات القصر

تدلف الخادمة (نرجس) لجحرة صغيرة نوعًا على

خلاف باقي غرف القصر المتسعة، وهي تدفع أمامها عربة خشبية صغيرة موضوعٌ عليها أطباق طعام بمعايير صغيرة.

كانت الحجرة تحتوي على فراشين مغلفين بألحفة مطبوع عليها شخصيات كرتونية، بها الكثير من الدمى وألعاب الفتيات المتنوعة.

وضعت (نرجس) أطباق الطعام على طاولة مستديرة صغيرة وهي تقول للفتاتين، اللتين تطلقان العنان لخياشيمهما في استنشاق رائحة الطعام الخلابة:

- ها هو الطعام المخصص لكل من (إيمان ودينا) بشطة أقل وليمون أكثر.

شكرت كلتا الفتاتين (نرجس) في براءة، فهما تحبان هذه المرأة التي تربيهما وترعاهما أكثر من أحفادها ومن قبلهما أبناؤها الأصليون.. إنها الطبيعة الإنسانية ذاتها التي تتعلق بأي شيء تراه يكبر وينضج أمام عينيك على مَر السنوات؛ فمنذ طلاق (أسامة) من زوجته، و (نرجس) تعتبر نفسها أمًا لهاتين الفتاتين اللتين جددتا لها دوافع الحياة والإقبال بنفس راضية على العمل، فكلهم لا يتخيلون كيف ستكون حياتهم من دون الآخرين، لكننا يمكننا تخيل نوعًا من البؤس والبكاء والقليل من عوامل الاكتئاب.

وجهت (نرجس) أوامرها صوب (إيمان) قائلة بنوع من الحزم المتصنع، بأن تنهي طعامها سريعًا لتعاود المذاكرة. لكنها لم تستمع لها بالطبع، فهي تشاهد التلفاز الذي يعرض أحد أفلام الرسوم المتحركة مع قرينتها، أثناء تناولهما للطعام، لقد ذاكرت (إيمان) كثيرًا، بينما لعبت (دينا) أكثر لصغر سنها. وكلتاهما تحتاج لما يمدها بالطاقة لمواصلة هذا وذلك بنفس الحماس الطفولي الذي لا يهمد ولا يكل.

خرجت (نرجس) من الحجرة وهي تبتسم لهذه البراءة التي تغسل روح أي فاسدٍ. ثم توقفت (دينا) عن التهام الطعام بمجرد خروج الخادمة لتقول موجهة حديثها إلى (إيمان):

- إنه قادم بالغد.

لترد (إيمان) بلا مبالاة ولا تزال عينها معلقة بشاشة التلفاز:

- نعم أعلم، قد أخبرتني بهذا ألف مرة.

ثم توقفت عن الطعام وعن متابعة التلفاز لترمق (دينا) بنظرة طويلة، ثم قالت بعد دقيقة من الصمت والتدقيق في ملامحها الجامدة:

- ماذا ستفعلين؟

- كالمرة السابقة.

كان ردها سريعًا جافًا من أيِّ تعبيرٍ، لتبتلع (إيمان) الصغيرة ريقها كتمهيد لشيء ما تنوي أن تقوله، لكن (دينا) سبقتها قائلة:

- لا داعي للقلق.. نامي أنتِ مبكرًا غدًا، وكل شيء سيكون على ما يرام.

نسيت (إيمان) ما كانت ستقوله، لتجد أنه لا داعي للحديث بهذا الأمر الآن.

فعادت لمتابعة التلفاز تاركةً الغد لمدبره، إنها سياسة الأطفال الشهيرة (نمرح الآن ثم نحزن بالغد)، لكن عقلها اليافع لم يقدر لها كم ثقل هذا الحزن أو مدى سرعة هذا الغد؟ فعقل الطفل بريء لدرجة الخداع.

(4)
الذين تركتهم خلفي

30/6/2015

وسط البلد بالقاهرة

الخامسة ظهرًا

- دجال يا (حسام).. دجال.. ما الذي تفعله هنا إذًا باعتمادك على الدجالين؟

قالها الطبيب بنوع من الاحتدام، استنكارًا منه على فعلي المشين، فأجبته بعد بضعه تأففات ونفخات من فمي جاهزًا بهما عن ضجري:

- لقد أخبرتك بالحقيقة وأنت تحاسبني عليها؟ ثم إني قد أرهقت من أمور الأطباء النفسيين تلك واتبعت نصيحتك في التجديد.

عندما نصحني الطبيب بالتجديد لم يكن هذا قصده أبدًا وكلانا يعلم أني أفهم المقصد الصحيح من عبارته لكنه عاد ليُفهمني إياها بشكل تلقائي قائلًا:

- عندما نصحتك بالتجديد، عنيت به أن تحطم روتينك اليومي من العمل والحي الذي تقطن به. وتذهب لتغير مزاجك في إحدى المدن الساحلية أو

الأماكن غير التقليدية، كصالات الألعاب بالنوادي أو السنيمات أو صالات الرقص إن أردت.. ليس بلجوئك لدجال احتال عليك في خمسين جنيهًا.

ابتسمت بسخرية وأنا أعض على أظفاري، مغمغمًا أن تلك الخمسين جنيهًا على الأقل، لا تقارن بالمبالغ الضخمة التي ينهبها مني وزملاؤه من قبله.

كانت كلماتي غاضبة، صريحة، فعاد ليتقمص هو دور الطبيب قائلًا بهدوء محاولًا امتصاص غضبي:

- هنا تكمن المشكلة يا (حسام). نظرتك لي على إني وحش يحيى على سحب أموالك، هي ما تجعلك غير متجاوب مع العلاج.. يجب أن تصفي ذهنك وتتذكر أنك من تأتي لعيادتي سعيًا لخدماتي.

اعتدل في مقعده ثم أردف مطالبًا منّي تقبل تلك الخدمات وتركه يساعدني كما يزعم. فأجبته بنفس نمط تهكمي:

- لو حصلت على جنيهًا مع كل مرة أستمع فيها لتلك الكلمات، لأصبحت الآن مليونيرًا.. أتظن أن من سبقك لم يتحفني بهذه الجملة العبقرية أو من كان قبله أو من سلفهم أجمعين؟ أنا لا أسمع غير هذه الجملة منذ أن قررت التصرف كشخصٍ متحضر والتردد على الأطباء النفسيين.

ظلّ صامتًا يعبث بمفكرته الصغيرة، محاولًا مجاراتي في الكلام، لكني أعلم خطوته التالية قبل أن يقدم عليها. سيغير الموضوع برمته حتى يحافظ على وقارة الحديث أو سيحولني لطبيب نفسي زميل إن كان ضيق البال، أو يعود بي لأصل الحكاية وسبب مشكلتي النفسية العويصة.

حتمًا إن لطريقتي الساخرة في التعليق على مشهد الدجال، أوحت لك أني رجلٌ قوي الشخصية لا يندرج بسهولة وراء النصابين أو المخادعين، وأني على قدرٍ لا بأس به من الثقة بالنفس والسخط على كل شيء تافه أو ساذج. كم تمنيت أن أضحى هكذا كما خُيِّلَ لك؟ لما ترددت على الأطباء النفسيين من الأساس، لكني آسفٌ على النقيض تمامًا.

من يتمكن من رؤيتي أو سماع صوتي بهذه اللحظة لاستطاع أن يميزني من وسط الآلاف، فأنا هزيل البنية، اختفت عن وجهي قسمات الوسامة ليحل مطرحها بذور الشحوب وهلات الإرهاق، كثير الالتفات حول نفسي في الأماكن المفتوحة ومتلجلج في الكلمات.

علمت أن حالتي النفسية ليست مستقرة فواكبت العصر في تقدُّمه واعترافه بالمرض النفسي، رغم أن هذا الأمر لا يزال يحظى بكمٍّ كبيرٍ من الإهانة والنكران،

وكان التحليل النفسي لحالتي علميًا بما يدعى بلقب (بارانويا الارتياب) أو هكذا أظن، فلم يصرح أيٌّ من الأطباء الذين ترددت عليهم عن الاسم العلمي لتلك الحالة بجانب عبارتهم الشهيرة (بعض الاضطرابات). فهذا المصطلح الطبي هو أقرب ما توصلت إليه بعدما فتشت عن مسمى أعراضي على الشبكة العنكبوتية، المتمثلة في الشعور بسببه أني مراقب طوال الوقت.. هناك من يتبعني، هناك من يجاورني الفراش على الناحية الأخرى، هناك من يتربص لي خارج هذه الغرفة، هنالك من يراقبني في حياتي الشخصية لسبب أجهله، هنالك من يشاركني حياتي ويطير النوم من جفوني.

لم يضف الأطباء -منذ أن قررت الاستعانة بخبراتهم منذ أربع سنوات- أي جديد على حالتي غير معرفتي لاسمها العلمي، يكلفوني بالكثير من الأدوية المهدئة وغيرها من التمارين النفسية التي لا تحسن ولو جزءًا بسيطًا من حالتي.. وما يزيدهم حيرة في حالتي أن هذا المرض النفسي لا يأتي إلا للأثرياء الذين يشعرون أنهم معرَّضون للسرقة طوال الوقت أو للمضطهدين اجتماعيًا الذين يشعرون أن من ينبذهم يريد قتلهم، وأنا لست هذا أو ذلك.. فسبب المرض الذي يهشم نفسيتي مجهولٌ تمامًا.

برزت باكورة المرض منذ خمس سنوات بشاكلة طفيفة للغاية لم أكن أنتبه له في البداية واعتقدت أن تلك الالتفاتات من حولي حركة عصبية لا إرادية..حتى يوم الحادث.

لن أستطيع وصفه بإتقان لأني كنت نائمًا أغلبه، لكنه بالتأكيد لا يخلو من الصراخ والزجاج المهشم وبعض الحرائق والكثير بالطبع من الدماء. فبالتأكيد سمعت عن هذا الحادث بدورك، لقد كان حديث الصحف لعدة أيام قبل أن يتم احتلال عناوين الصحف بفضيحة الفنانة كذا أو تعاقد نادي كذا مع اللاعب كذا.

كنت مسافرًا مع والديّ لعطلة صيفية بإحدى المدن الساحلية كأي أسرة تهوى عليل البحر الذي ينسي لهيب الصيف، غفوت قليلًا على المقعد الخلفي بينما يتسامر أبي الجالس خلف عجلة القيادة وأمي الحبيبة بجانبه، لأستيقظ بالنهاية بإحدى غرف العناية المركزة بأقرب مشفى من موقع الحادث. أخبروني هناك أن سيارة أبي قد انحرفت عن الطريق لتصدم إحدى حافلات الرحلات على الطريق المعاكس، ليكون عدد الضحايا بالعشرات. فقدت بهذا الحادث سندي الأوحد بهذه الدنيا المتمثل في والدي، بعدما ضحيت من الناجيين القلائل، ليتركني لهذا العالم وحيدًا بدون أهلٍ أو عزوة،

سامحين للمرض باستغلال حالة الحزن تلك ليسيطر على كياني أكثر.

- الأمر يعود لسبب هذا المرض وهو الحادث. لو أستطع...

ها هو الطبيب يتحفني بأحد توقعاتي من جديد، يبدو أنه ليس ضيق الأفق بعد كل شيء، لكنه أيضًا ليس بالمعالج المناسب.

(5)
الندم لا شريكَ له

7/2/2005

الأقصر

الساعة الرابعة عصرًا

صافح (أسامة) الضيف والابتسامة المفتعلة تزين وجه كليهما، لكن ابتسامة الضيف لم تكن كبيرة ولم يحاول حتى إخفاء ادعائها، كما لو أنه يقول إلى (أسامة) بحسم: "دعنا ننتهي من هذا السخف سريعًا."

تقدّم الضيف بضع خطوات لداخل القصر، ليلفت انتباهه الحيونات المحنطة والجمجاجم الحيوانية مثلما جذبت أنظار (آدم) وكل النزلاء من قبله، فأنت لا ترى جمجمة تمساح كل يوم، أو تجد صقرًا محنطًا بأي مكانٍ، فالمكان يترك بصمته على روح الزوار الجدد بالدهشة دائمًا، ويعبث القصر بمخيلاتهم ليجعلهم يتصورون هذا المشهد مع إضاءة ضحلة وبشر أقل. سرت بجسد الضيف قشعريرة سريعة بمجرد تخيله لتلك الحيوانات وهي ترمقه ليلًا ونهارًا بثباتها المفزع، لكنه سرعان ما نفض تلك الأفكار عن رأسه وهو يصرِّح إلى (أسامة) بعد خمس دقائق من التأمل بالمكان

والترجل به، إنه ليس بالسيء، لكنه لن يستطيع تقديم عرض نهائي الآن. ليهرول (أسامة) قائلًا وهو يقترب منه متصنعًا الود:

- بالطبع يا سيدي..استرح الليلة من السفر وغدًا يمكننا النقاش.

- جيد؛ لأني أريد مطالعة الغرف كذلك.

ثم لحق تلك العبارة الأخيرة ذات المشهد من مناداة (نرجس) وحملها بعض حقائب الضيف وصولًا به للغرفة في الطابق الثاني بينما يظل الضيف يتأمل الموجودات من حوله دون إبداء أي تعابير كأي رجل أعمال محنك، يكتم تفاعله مع الأشياء في قراره نفسه دون السماح لها بالجهر على العيان.

عاد (أسامة) لمكتب الاستقبال لإجراء اتصالٍ خاص، ثم قال بعد أن ردّ الطرف الآخر:

- أجل يا أستاذ (عادل)..لقد حضر.

ليأتيه الرد المعدني من الطرف الآخر:

- جيد للغاية، احرص على إتمام الأمر معه، فهو أفضل من سيفيدنا في موقفنا الحالي.

- بالتأكيد سأفعل، طَمْئِن أبي على الأمر.

ليجيبه الأستاذ (عادل) بحماسٍ:

- سأفعل حتمًا، فأنا أفتعل الأخبار السعيدة لأمليها عليه، ولن أتردد في هذا الخبر.

- أما زالت حالته كما هي؟

تنهَّد الأستاذ (عادل)، مؤكدًا على أنها لم يَشُبها أي تجديد، لكن للأخبار السعيدة بعض الواقع السحري على حالته. فابتسم (أسامة) وهو يقول:

- إذًا أخبره أن كل شيء سيكون على ما يرام بإذن الله.

هنا دلف (آدم) من الباب الرئيسي للقصر حاملًا على كتفه حقيبة صغيرة وتتدلى من رقبته كاميرا كبيرة نوعًا، ليرى الابتسامة على وجه (أسامة) فتركه ينهي مكالمته ليسأله عن تغيُّر حاله هكذا بين يوم وليلة، فكر أنه لا بُدَّ أنه يحدِّث فتاة ما، فالرجال ينسون هموم الحياة في لحظات الغرام بسبب صوت من يحبه.

عاد (آدم) من غرفته التي اغتسل بها سريعًا وترك بها حاجياته ليعود إلى (أسامة) الذي وجده قد أنهى المكالمة مبتهج الأسارير بنفس موضعه خلف مكتب الاستقبال، فسأله بعد أن ألقى بجسده المنهَك على أريكة قريبة، رامقًا إياه بشك، أهو مصاب بالفصام أو شيء من هذا القبيل؟ ليضحك (أسامة) متفهمًا لدعابة (آدم)، فقد لاحظ هو الآخر انقلاب شخصيته من

الضيق بالأمس إلى السعادة الغامرة باليوم، فتقدم (أسامة) للجلوس بجوار صديقه، ليقول متأسفًا:

- سامحني يا (آدم). فهذه ليست الاستقبالية التي توقعتها بعد مرور سبع سنوات على لقائنا الأخير.

- المهم أنك سعيدٌ الآن ولديك الأريحية للحديث كما لدي الشغف لسماعك.

أشار (آدم) لمكتب الاستقبال وهو يقول:

- يبدو أن صوتها قد أراح عنك ضيق الأمس.

منهيًا عبارته بغمزة، لتظهر على وجه (أسامة) علامات عدم الفهم جلية، ليكمل (آدم) تلميحاته العابثة، بحتمية أنها صارخة الجمال لتغير حاله هكذا. ليكركر (أسامة) بعد أن تفهم الأمر، ليسأل من بين ضحكاته إن كان حقًا سيء المزاج بالأمس لهذه الدرجة؟. ليرد (آدم) ساخرًا:

- لا، نهائيًا.. مع مراعاة مسافة عشرة أمتار بيني وبينك حتى لا تهشم جمجمتي، كنت طبيعيًا.

عاود (أسامة) القهقهه وهو يمسك بمعدته من فرط الضحك، ليقول:

- لهذا أعتذر لك من جديد يا صديقي، ودعني أطمئنك أنه ليس ما يدور في بالك، فبعد طلاقي لن أفكر في الزواج الآن، ليس قبل أن تدلف (إيمان)

للمرحلة الإعدادية على أقل تقدير، فتقبُّل فكرة زوجة الأب، لهو أمر يحتاج للنضج.

- إذًا ما سبب تقلب مزاجك هكذا؟

تنهد (أسامة) وهو يعتدل في مقعده مجيبًا أنه بالأمس كان يجري اتصالًا مع رجلٍ يعمل لدى (مهيب المسعودي)، فقاطعه (آدم) مستعلمًا:

- (مهيب المسعودي) صاحب شركات (المسعود جروب) للسياحة؟

فردّ (أسامة) متعجبًا:

- نعم هو، كيف عرفت؟

- أنا صحفي ولست خبازًا، أعلم الكثير من أثرياء مصر والشخصيات المهمة بها.

- رائع.. لقد قصّرت عليّ الكثير من الشرح، المهم أني أحاول عرض بيع القصر للرجل، ليضمه لشركاته منذ شهر، وعندما اتفقنا أخيرًا وحادثت مدير أعماله بالأمس لنتفق على موعد زيارته للقصر، قد انقطع الاتصال، تاركًا إياي بدون تأكيد على مجيئه، فظللت طوال الليل أعاود محاولات الاتصال به وأنا غارق في عالم الشك بأنه سيأتي أم لا، وما أثار غيظي أن هاتف القصر لم تنقطع عنه الشبكة ولو لمرةٍ واحدةٍ منذ توصيل شبكة الاتصالات بالقصر أو منذ شراء ذلك الهاتف ذاته.. كما

لو أن الظروف ضدي.. رغم أنه يعمل الآن بسلاسة كما لو أنه حديث الشراء.

فعاد (أسامة) ليكمل بعد أن أوضح حالة الشك التي تملكت كيانه ليوم كامل كادت أن تصيبه بالخبال، أن مدير أعماله قد حضر للقصر منذ أقل من نصف ساعة، ولديه يقين داخلي أنه سيقنعه بالصفقة، مؤكدًا أن هذا سبب سعادته لليوم عن الأمس المشحون بالتوتر. فراح (آدم) يسأل بعد محاولته الفاشلة لتفهم الموقف:

- ولِمَ تبيع القصر من الأساس؟ أليس هذا قصر العائلة؟

- نعم هو كذلك لكن هذا الأمر يطول شرحه الآن، أنا سعيد فحسب لأني سأبيعه أخيرًا وأتخلص من وظيفة موظف الاستقبال المقيتة تلك.

ثم راح (آدم) يسأل في تعجب، ملوحًا بيديه علامة التمهل إن كان (أسامة) يعمل كذلك بالاستقبال، ظانًا منه أن صديقه لا يجلس بهذا المكان بطريقة عابرة ليس بشكل دائم، ليعاود (أسامة) تذكيره بعبوس بأنها ذات المشكلة الخاصة بأمر توفير العمالة تلك آملًا في بيع القصر بالأيام التالية.. فتمنى (آدم) لصديقه التساهيل في بيع القصر لذلك السبب المجهول الذي يرفض (أسامة) إطلاعه عليه حتى لا يزعجه

بمشكلاته، قبل أن يتوجه لغرفته بالطابق الثاني مختلسًا بعض ساعات من النوم، تاركًا (أسامة) لصفقاته.

***

في مساء ذات اليوم

الساعة الثامنة مساءً

استيقظ (آدم) و (أسامة) في غرفة كل منهما المتباعدتين، على صوت أنثوي يصرخ، فقفز (آدم) عن فراشه ليركض من غرفته، لكنه يصدم في طريقه بالكومود الصغير الموضوع بجانب باب حجرته، ليتهاوى أرضًا مسقطًا معه ما كان يحمله فوقه بسكون، ليصدر عنهما صوت ارتطامهما بالأرض كنوع من الاحتجاج على هذه الإهانة في المعاملة.

يثب (آدم) الخطوات تابعًا صوت الصرخات التي لا يزال يتعالى صداها بين أرجاء القصر،حتى اقترب بالنهاية من مصدر الصوت التي كانت عبارة عن (نرجس)، ساقطة أرضًا أمام إحدى حجرات الطابق الثاني المفتوحة بابها، وهي تشير لما بداخلها صارخة بهلع كما لو أن شياطين الجحيم تتراقص داخلها.

وصل (آدم) و (أسامة) للحجرة بنفس اللحظة، ليتمسك (آدم) بالمرأة محاولًا فهم ما حدث منها، لكن

(أسامة) كان عمليًا أكثر، حيث تقدم للغرفة باحثًا عما بها من أهوال دفع تلك المرأة الناضجة الحكيمة للولولة هكذا كالفتيات الصغيرات.

للحق كان المشهد يستحق كل هذه الجلبة، فكما أنك لا ترى مدير أعمال رجل ثري كل يوم، ولا تتم الصفقات الكبرى كل يوم، فبالتالي لن ترى دماءه المنسابة كلَّ يومٍ.

لقد كانت تلك غرفة الضيف الذي كان مستلقيًا على الفراش، موضع وسادة مثقوبة فوق رأسه والدماء تجعلك تجهل لون الوسادة الأصلي إذا كان أبيض أم أسود من اختلاط الأحمر بهما، يتدلى بيده اليمنى مسدس صغير، عادت فوهته لملمسها البارد المعهود بعد أن أتمت وظيفتها في إحضار ملك الموت لهذه الغرفة.

وقف (أسامة) متجمدًا أمام ذلك المشهد، الذي بطله تلك الجثة النائمة في بقعة كبيرة من الدماء الطازجة، التي لا تزال تسيل من رأسه، حتى وصلت لطرف الفراش لتنسال أرضًا برفقٍ، لكنها تصنع صوت اصطدام مدوي في أذن (أسامة).

لمح (آدم) من الخلف مشهد الحجرة وهو جالس على الأرض يحاول تهدئة (نرجس)، ليكوّن بما رآه صورة لا بأس بها عن رأس الضيف أسفل الوسادة

وهناك ثقب غائر يشوه جبهته، ينتهي برصاصة صغيرة بعد أن حفرت في جمجمته، مهشمة في طريقها كل آثار الحياة بجسده.

لكن (آدم) لمح شيئًا آخر في نهاية الرواق بالطابق.. كانت رأس (دينا) تبرز من خلف أحد الجدران وهي ترمق المشهد من بعيد قبل أن تتنحرك للخلف، لتختفي عن ناظري (آدم) مستترة بالجدار، لتترك المشهد للكبار ليتعاملوا معه.

(6)
كامل الذنب

23/7/2015

مقابر الصدقة بالقاهرة

الواحدة ظهرًا

لست شجاعًا لهذه الدرجة لأدلف المقابر بإرادتي الخاصة، لكنها الضرورة بجانب نصائح الطبيب في تكوين صداقات، بالطبع لن أكوِّن صداقات مع أموات المقابر أو سكانها من الأحياء أو حتى حانوتيها.

فعملي كمحاسب بإحدى شركات القطاع الخاص يعطيني الأهلية لأكون شخصًا متتعدد الصداقات، لكن هذا ينطبق على الجميع سواي، إنها حالة الشذوذ عن القواعد الشهيرة.

لم أصارح أحدًا بمرضي النفسي حتى لا يتجنبني الناس باعتباره مرضًا معديًا أو شيئًا من هذا القبيل، فالمرض النفسي بالعرف المصري لا يختلف أبدًا عن الجنون أو انفلات العقل إن لم يكونا متساويين في أنظار الجميع. إنها التقاليد المصرية الراسخة التي تصبح محاولة حلها عن أذهانهم كمحاولة إقناع

الأطفال بأنه لا وجود لبشر يمكنهم الطيران أو حيوانات قادرة على الكلام كأفلام الرسوم المتحركة.. لكن رغم كل هذا، فشحوبي وتلفتاتي الدائمة حولي طوال الوقت، أوحت للآخرين بأني غريب أطوار، يستحق التجنب المشحون بالتجاهل.

فعندما توفى أحد زملائي بالعمل في حادث سير، وجدت أنها فرصة لأوضح للآخرين كم أني إنسان مثلهم يمكنه القيام بالواجب الاجتماعي وأنه يشاركهم الزمالة بتلك الشركة الفقيرة حتى لو لم يكن له بها دور مؤثر.

كانت هذه مرتي الأولى في دلوف المقابر منذ وفاة والديّ، ودائمًا بالأعياد كنت أدعو لروحيهما بالرحمة في أقرب مسجد، على نقيض العادات المصرية الأصيلة. حيث زيادة المرض فوق عاتقي جعلتني أخاف من أي شيء وكل شيء، فما بالك إذًا بالمقابر وأسرارها.

لكن مهلًا للحظة!! هناك شيء يتبعني، يتربص بي، يرمقني، على استعداد للانقضاض عليّ لقتلي، أعلم أن هذا الكلام أردده في أعماق نفسي طوال الوقت، لكنه قد تزايد هذه المرة! بمجرد أن ترجلت بضعة امتار داخل أسوار المقابر مع زملائي وهذا الشعور يتزايد بتدريجية غير منطقية! في أغلب الأوقات أتلفت

حولي في حركة لا إرادية مني، لكني الآن حقًا خائف من الالتفات، أشعر بأنفاسه ذات الصوت العالي وهي تتبع تحركاتي في بطءٍ.

أنا لست خائفًا من الالتفات حولي فحسب، بل أنا عاجزٌ عن الحركة من الأساس!! لقد تسمَّرَتْ قدماي على الأرض في توجُّس مني عن الحركة، في حين أن أنفاس هذا المراقب لا تزال تتخبط في أذني، نازعة أيَّ رفات استقرار بروحي. إنها النهاية بلا شك، لقد سئم مراقبتي وقرر أن ينهي تجسسه الآن ويقتلني. لكن أي مراقب، إنه ليس سوى مرض نفسي لعين ولا يوجد شخص واقعي! لكني أشعر به كما لو أنه تجسَّد أخيرًا من العدم للقيام بأسوأ مخاوفي. لقد تركني زملائي وتقدموا في الجنازة ناسيين أمري، وما الجديد؟ فهم من البداية لم يرحبوا بوجودي معهم.

حتى شعرت بيد ضخمة توضع على كتفي، ليصحبها صوت متحشرج خشن مستفسر عما أفعله هنا. فصرخت وأنا أنتفض للخلف في فزع، بكل ما أوتيت من قوى خالية من أي لمسة ذكورة، ليضع الرجل بدوره كفه العملاق المتسخ على فمي لكتم صرختي بينما بيده الأخرى يشير بسبابته على فمه علامة الصمت ليقول بنفس الصوت الخشن:

- شششششش.. أجننت يا أفندي؟ أتعلم عاقبة مَن يصرخ هكذا بالمقابر ليلًا، أتريدهم أن يسلطوا عليك الضوء أم ماذا؟

نزع يده عن فمي بعدما هدأت نسبيًا، فرغم جلبابه المتسخ وقسمات وجهه العجوز المحمَّلة بشارب ضخم وجثته الضخمة التي تجبرك على رفع عنقك لتبصر وجهه الأسمر ذا الشعر المخلط بين الأشيب والأسود والتراب.. إلا أنه بشريٌ على أقل تقدير.

ألتقط أنفاسي بصعوبة من فرط الانفعال الذي قمت به وأنا أتذكر كلمته (ليل).. عن أي ليل يتحدث؟ نحن بالصباح الصيفي الحارق؟

نظرت حولي لأرى، النجوم اللامعة الحارسة للقمر البراق، تتلألأ أجمعين في السماء الغارقة في سواد سرمدي ينم أن نور الصباح قد تم اغتياله بعد ذهاب شمسه منذ فترة ليست بالهينة.. متى حل هذا الليل؟

طلبت الاستفسار عن الوقت من الرجل الضخم، ليجيبني بعد أن دقق نظره الضعيف بهاتفه المحمول قديم الطراز، بأنها الساعة التاسعة مساءً! لقد ظللت ماكثًا في موضعي هذا لأكثر من ثماني ساعات دون شراب أو طعام. لكن كيف هذا؟ فلا قدمي أو ظهري يؤلمانني.

فعاودت أسأل الرجل الذي لا زال يطلع لي في شك عن التربي المسؤول عن هذا المكان؟. ليجيب الرجل بنوع من الفخر لا يخلو من التشكك:

- أنا الحانوتي، أطلِعني بمرادك؟

تجاهلت نبرته التي يكمن بين طياتها الكثير من الاتهام صوبي كما لو أني ارتكبت جرمًا شنيعًا منذ لحظاتٍ أو كدت أُقدِم عليه لولا أنه أوقفني باللحظة الأخيرة، مستفسرًا:

- هل تعلم كم من الوقت كنت واقفًا هنا؟

- لا أدري، لقد كنت مشغولًا طوال اليوم بالعمل وسط المقابر ودفناتها ولم أقترب من الباب إلا بهذه اللحظة لأجدك واقفًا تطلع للا شيء. أهناك شيء ما بك يا أفندي، أجئت هنا لعملٍ خبيث ما؟

لم أفهم عبارته الأخيرة فتجاهلتها مرة أخـ...

ثم تهاوى جسدي ليحتضن الأرض في حميمية لم تحدث بينهما من عقود، لكن الرجل قد أمسك بي قبل أن يتراخى جسدي بالكامل صائحًا:

- هذا مكان الموتى بالفعل، لكنه ليس المكان الأنسب للموت.. انهض يا رجل ولا تجلب لنا المصائب.

لم أجبه كنت أبغي إجابته لكني عجزت عن هذا؛ حيث أمست ساقاي كالهلام لا أستطيع الاتكاء عليهما،

بات لساني يبلغ من الوزن أرطالًا، واهنًا عن الحديث. لا أعلم لمتى ستظل جفوني مفتوحة سامحة لعيني باختلاس بعض النظرات أو إلى متى سأظل محتفظًا بوعيي قبل أن أفقده، لكن ذلك الوهن الذي يجتاح جسدي يوحي بأنه قريييب جدًا.

***

- لا أعلم بالطريقة المثلى للشكر يا عم (شعبان)، لكنك على الأقل ستتمكن من إيصال امتناني لزوجتك على طهيها الشهي.

قلتها وأنا أصفق بيدي عازمًا على إزالة "ردة" الخبز البلدي العالقة بين أصابعي، ليجيبني هو بسرعة وهو لا زال يدس قطع الخبز المحمَّلة بالطعام بفمه أني لن أتحرك من هنا قبل الشاي. حاولت النهوض معتذرًا عن عدم استطاعتي إطالة إقامتي لديه، لكنه نظر لي بحدة وشاربه يزداد انتفاخًا على وجهه، قاسمًا بكل ما أوتي من أيمانات وردت بذهنه أني لن أتحرك من هنا قبل أن نرتشف الشاي سويًا.

إنه ذلك النوع من الشهامة المحببة التي لا تجدها إلا بمصر، لكن هذا الرجل يأخذ الأمر بنحو شخصي برغبته بإكمال جميله حتى النهاية. فجلست بطريقة أكثر استرخاء بين الوسائد مبتسمًا له، لينده بدوره على

زوجته بالحجرة المجاورة لتعد لنا الشاي، فأردفت بحرج أن لولا مساعدته لي بهذه الدقائق الأخيرة لما كانت روحي مستقرة بجسدي حتى الآن. فأجابني الرجل وهو لا يزال يلتقط حبات الأرز بالملعقة أن الوهن قد بدا جليًا على قسماتي ووجب عليه المساعدة. مضيفًا أن هذا أقل ما يمكنه تقديمه لي بجانب أن أيّ شخص غيره كان سيماثله الفعل بل ويزيد عليه. فأجبته مبتسمًا شاكرًا، أنه فحسب طيب القلب أكثر من الطبيعي، دون أن يعي كيف أنقذ حياتي بتقديمه لي الطعام والشراب بتلك السرعة.

لكل شيء توابعه بالطبع، فتلك البرانويا التي تعتريني أدث لإصابتي بضغط الدم بسبب توتري ومع هذا الوقت الذي قضيته متجمدًا عند الباب بدون طعام أو شراب، قد تسبَّب لي بانهيار تماسكي.

سألني (شعبان) بعدما انتهى من طعامه مقلدًا لي في حركة التصفيق بالأيدي، لكن تخللتها الكثير من الضجة بحُكم ضخامة جسده، مضيفًا عليها مسح يديه بجلبابه المتسخ من البداية:

- لا تؤاخذني يا أستاذ (حسام)، ألأنت مريض أو شيء من هذا؟ فهيئتك توحي أنك مصاب بشيءٍ آخر غير ضغط الدم.

- أتعمل طبيبًا كطريقة للدخل الإضافي؟

ضحك كلانا على مزحتي الثقيلة ليقول بالنهاية:

- في مهنتي تلك أرى أشياء تزيد المرء حكمة على عمره القصير.

فمن وهلتك الأولى اعتقدت بأنك أحد هؤلاء الأوغاد، صبيان الدجالين الذين يدفنون الأعمال بجانب الموتى أو يدسون أوراق السحر في أفواه الجثث الطازجة، لكن لولا ملامحك التي توحي بأنك رجل محترم وأكبر من هذا الفعل المشين، لكنت طلبت لك الشرطة أو قمت بضربك حتى الموت أو حتى تنجدك الشرطة من أسفل قبضتي.

ضحكت بضحكة مكتومة وأنا أتخيل هذا المشهد الدامي، ثم أجبته بأن الأمر ليس بالهين وسيطول شرحه، لكنه لم يعتقني مؤكدًا على حوزتنا الكثير من الوقت حتى تنتهي زوجته من عمل الشاي وشربه بجانب سيجارتين.

لقد كان الرجل ملحًا لدرجة قاتلة، فلم أجد من إصراره مفرًا سوى سردي لقصة مرضي كاملة على مسامعه مع الكثير من التحفُّظ بخصوص التفاصيل بالطبع، كانت هذه الطريقة الوحيدة لإضاعة الوقت بها والقضاء على الحاحه، ثم إن الرجل أنقذ حياتي للتو

ويستحق أن أطلعه على ما يريد مكافأة على شهامته النادرة.

أنهيت كوب الشاي بجانب لفافة تبغ من خاصته ويعقبها الحكاية وظل يرمقني في حيرة. سيتبع الآن تجنبي كغيره من الآخرين مطلقًا عليّ لقب مجنون، أو يقوم بطردي من منزله حتى لا أنقل فيروس خرفي لأولاده وزوجته.

ثم أجاب الرجل بكل حكمة الدنيا، بسؤاله لي عما أدراك أن ما انتابني هذا لهو مجرد مرضٍ نفسي؟.. فأجبته رافعًا كتفي علامة البديهية عما يكون إذا ما دام تمكن الأطباء من تشخيصه وكتابة العقاقير لي. فابتسم الرجل ساخرًا وهو يجيب:

- إنهم أطباء نفسيون يا صديقي، هؤلاء السفاحين للأموال قادرون على ابتلائك بكل أمراض الدنيا لتواظب على زيارتهم وإكسابهم قوتهم.

فلا أستبعد أن يرمي هولاء الأطباء المزعومين بالأمراض النفسية على حماواتهم للتوقف عن إزعاجهم.

لا أنكر أن منطقه صحيح وأنا شبه مقتنع به، لكن لا يوجد شخصًا -على حد علمي- يتمتع برؤية الآخرين وهم يفقدون عقولهم مثلي، لإستنزاف أموالهم الغير

محدوده كما أظن.

أشار الرجل على هيئته مكملًا:

- ها أنا أمامك، رجل قوي البنيان لا أهاب شيئًا في هذه الأرض إلا من خالقي، فلو ذهبت لطبيب نفسي سيجد أن ما قلته ليس بأمرٍ طبيعيٍّ بل هو مرض ما تقيل على النطق. ثم يخط لي أسماء أدوية باهظة الثمن بخطه الرديء كأقرانه من الأطباء.. لمَ لم تفكر أن الأمر له علاقة بالجان؟

- اعذرني يا عم (شعبان) أنا لا أؤمن بتلك الأمور.

ثم أجابني بالجملة الأشهر:

- لقد تمَّ ذِكر الجن بالقرآن. أستلحد بكلمات الله؟

لتتحرك النزعة الدينية بأعماقي لأجيبه مسرعًا، إن هذا ليس بمقصدي. ليقاطعني هو بدوره:

- مس الجان أمرٌ شائعٌ بين الناس، ولن يفرق بينك وبين غيرك.. فلا تستبعده عن حسبانك.

- لكن من سيرغب في أذيتي والقيام بعمل لي. فكما أخبرتك أني ليس لدي أصدقاء كما أني وحيد يتيم، بلا أي نوع من الأقارب.

- أنا لم أقل عملًا. بل أقصد مسًا وهي أحد أنواع بطشات الجان للبشر.

تذكرت الشيخ الذي قمت بزيارته منذ أسابيع -و لم أخبره عنه- وخرجت من فمي بسمة ساخرة على حالي، ليلاحظها (شعبان) بدوره ويجيبني:

- يبدو أنك لم تقتنع بكلماتي، سأوافيك خدمتي حتى نهايتها ولك حرية القرار بعد ذلك.

ظل يعبث أسفل وسادة الأريكة الإسفنجية حتى خرج منها ببطاقة تعريف ذات ورق مقوى (كارنيه شخصي) لإحدى مغاسل السيارات، مطبوع على ظهره بحبرٍ أزرق لخط غير منمق عنوان ما، ثم سلّمه لي مؤكدًا أن بهذا المكان قد أعثر على ختام معاناتي!

تناولت منه البطاقة في لا مبالاة عالمًا ما تحتويه من عنوان دجال ما في إحدى المناطق الشعبية المظلمة أو شيء من هذا القبيل. وبعد العديد من عبارات الشكر والوعود بالزيارة الحارة، رحلت عن كشك التربي الحجري الذي يجاور ما يمثل شقته لخارج المقابر، لألقي بتلك البطاقة أرضًا غير عابئ بها، وفي نفسي أيقنت أنه كاد سيُبلغ عني الشرطة –كما قال- لو كنت تابعًا لدجال غير الذي يتعامل هو معه، وليس لأنه رجل طيب القلب كما ظننت.

تطلعت لهذا الفأر المهرول مختبئًا في الظلام، متذكرًا كلماتي الأولى عند دخولي للمقابر (أني لن أكوّن

صداقات مع الترابي) لأبتسم في حسرة وأعاود حركتي العصبية في الالتفات حولي.

(7)
الشر لا يزال في ظلي

8/2/2005

الأقصر

الساعة الرابعة ظهرًا

عاد (آدم) من جولته السياحية بالأقصر كاليوم السابق، فهذه المحافظة حافلة بالآثار العظيمة التي ستأخذ منه شهرًا على الأقل لينهي تقريره عنها، لكن مع كل تلك العكوسات التي يلقاها في فندق صديقه قد تتضاعف هذه المدة، وهذا ما يجب أن يحرص على ألا يتم وإلا اتهمته الجريدة بالتلاعب وإهدار أموالهم. لهذا ذهب (آدم) لكتابة مقالاته والتقاط بعض الصور عن معبد الكرنك، متحاملاً على إجهاده من أثر قلة النوم، بعد أن سهر بالأمس ليلة بغيضة بين تحقيقات الشرطة وتفتيش أغراضه، كإجراء روتيني بعد جريمة الأمس.

وبمجرد عودته للقصر الآن، قرر أن يستعلم من (أسامة) ما حدث، لأن الشرطة طالبت (آدم) بالابتعاد تمامًا عن التحقيقات بمجرد معرفتهم بأنه صحفي، فقتل مدير أعمال أحد أكبر رجال أعمال مصر لهو أمر جلي ستتناوله الجرائد بين صفحاتها لأجل غير مسمى.

فلو لم يكن هذا المكان الذي يقطن به ملكًا لصديقة الحميم، لهاتف الجريدة مطلعًا إياهم بالحدث، فهذا السبق الصحفي سيعود عليه بمكافأة مالية ضخمة أو ترقية عظيمة، لكنه بنفس الوقت قد يخسر صديقه بعد أن يشهر بالمكان الذي يسعى لبيعه. لذلك فضل الصمت على التسبب في العديد من المشكلات.

لم يكن (أسامة) على مكتب الاستقبال كعادته، فتبين من (نرجس) أنه بغرفته بالطابق الثاني، فألقى بحقيبته والكاميرا الخاصة به على أقرب أريكة سقطت عليها عينه، بعدما تأكد من أمان القصر وعدم تعرض حاجياته للسرقة بحيث أنه لا أحد به سواه هو والخادمة وصديقه وطفلتاه بالمكان من الأساس، فتسلق درجات السلم صعودًا بنوع من التعجل، ثم سقطت عينه على باب حجرة الضيف المغلقة التي يجلس أمامها عسكري للحراسة. تخطاه دون نقاش وصولًا لرقم حجرة (أسامة). طرق على الباب قبل أن يدلف للغرفة عقب تصريح صاحبها لمن بالخارج بالدخول.

كانت علامات الإرهاق جلية بين قسمات وجه (أسامة)، فيبدو أن الشرطة قد أهلكته الأمس بالتحقيق، فجلس (آدم) على أحد المقاعد بالحجرة

ليسأل باهتمام حقيقي عما حدث بالأمس، ليجيبه (أسامة) بإجهاد بنظرة ذات معنى أنه لم يحدث ما هو مُهِمٌ، فيعاود (آدم) السؤال بشكل تفصيلي هذه المرة:

- بعدما أتت الشرطة بالأمس ولم تسألني إلا بعض الأسئلة الفارغة، ثم طلبوا مني التوجه لحجرتي لأبقى بعيدًا عن التحقيقات، ماذا فعلوا معك حينها؟

- ظلوا يسألونني عن الرجل وعلاقتي به، وسبب زيارته لهذا المكان وكل هذا الهراء، لينتهي التحقيق على تأكيد منهم بإرسال المزيد من خبراء المعمل الجنائي لفحص الغرفة بطريقة أكثر تدقيقًا بعدما نقلوا الجثة لتشريحها بالأمس.

فسأل (آدم) متعجبًا:

- لمَ كل هذا،أليس الأمر واضحًا بأنه انتحارٌ بمسدسه الخاص؟

- يبدو أنه ليس كذلك كما توهمنا. تقول الشرطة إنه لا يوجد مَن ينتحرون في وسط إتمام الصفقات المهمة، كما أنه لا يوجد من يقبل على الانتحار مستخدمًا الوسادة لكتم صوت الرصاصة، فهو غير عابئ للحياة، فلمَ يحرص إذًا على عدم إزعاج الآخرين؟!

قال (أسامة) جملته الأخيرة بحزن، فعلم (آدم) أن صديقه قد عاد من جديد لحالة الهم التي رآه عليها

باليوم الأول من إقامته، فحاول تخطي الأمر سائلًا:

- ماذا عن (نرجس)، ماذا قالت؟

- من جديد لا شيء مهم. قالت إنها طرقت على بابه لتوقظه للعشاء كما تفعل مع الجميع، لكنه لم يجِبها، فاعتقدت أنه ليس بالغرفة، فولجت لها لتمدها بزجاجتين مياه معدنية جديدتين، لكنها رأت المشهد إياه بعد أن أضاءت مصابيح الحجرة، لتجدها بعد ذلك على حالتها من الصدمة التي عقبت صرختها.

كان رده مقتصرًا مشحونًا بالضجر والسأم، فلم يستطع (آدم) المماطلة أكثر من هذا، ليدرج بالموضوع الرئيسي سريعًا وهو يقول في نوعٍ من الصياح أن الكيل قد طفحَ به، مطالبًا (أسامة) إطلاعه على السبب الرئيسي لهذا الحزن الكامن في كافة جوارحه. فقد خسر مجرد صفقة وليست نهاية العالم بآخر المطاف.

نظر (أسامة) صوب (آدم) بنظرة طويلة ذات معنى، ثم أردف:

- بل هي نهاية العالم بالنسبة لي.

- وضح لي أرجوك، أنا لست عرافًا أو مشعوذًا للحصول على الإجابات من عقلك بمفردي.

وكالعادة تنهد (أسامة) ليجيب بالنهاية:

- منذ ما يقارب الستة أشهر ويمكنك القول بأن هناك

لعنة قد أصابت عائلتنا، خسر أبي الكثير من الأموال في استثماراته بجانب البورصة التي انهارت أسهمنا بها بشكل غير مسبوق. كل هذا طبيعي ويمكن التعايش معه، لكن ما كان يفوق قدرتنا على التحمل، هو إصابة أختي بما يقارب العمى بين ليلة وضحاها. خسارة أبي في الأموال كانت فادحة، لكن أرصدتنا البنكية سامحة بجعلنا نحيا عشرين عامًا في رخاء دون عمل. لكن القدر ليس متساهلًا هكذا، فقد ضاق الخناق علينا بعد أن رُفعت إحدى القضايا الزور على والدي بالتخلف من الجمارك والتهرب الضريبي، وكان أثرها هو تجميد أرصدته البنكية حتى التحقيق في أمر هذه القضية، لتظل أختي الصغرى هكذا شبه ضريرة لا تستطيع رؤية كف يدها دون عون العوينات الطبية، التي كانت بمثابة السلاح المؤقت لحفظ ما بقي من نظرها.

صمت قليلًا ليحاول الإمساك بدموعه ثم أكمل:

- أختي أرقّ من هذا، وروحها هشة عن تحمل هذا العبء على عاتقها. إنها من نوعية الفتيات التي تكتب الشعر ليل نهار وتستمع لأنغام العشق والهيام بلا كلل أو ملل. ومن هواياتها هو فقدان الوعي، تفقد الوعي عند رؤية حشرة ما، تفقد الوعي عند الخوف من فيلم رعب ساذج، تفقد الوعي عند فشلها في أي شيء مهما كان

هينًا. فصدقني أنت لم تتخيل كم مرة فقدت فيها الوعي في اختبارات الثانوية العامة وحدها.

ابتسم في حسرة مغمغمًا عن كيفية لم تسمع موسوعة (جينس) للأرقام القياسية عن هذه الفتاة، لتقيد اسمها وسطهم. فلتت من عينه تلك الدمعة بعد أن جاهد كثيرًا لكبتها، فانطلقت من شفتيه ضحكة أسى على ما وصل له الحال، فظل (آدم) صامتًا احترامًا لتلك المشاعر التي مسّت قلبه هو الآخر، لكنه لم يعلم أنهما لا يزالان في البداية فحسب.

فأكمل (أسامة) متحاملًا على نفسه:

- حالة أختى لا تتوقف عن التدهور نفسيًا كل يوم أكثر عن الذي يسبقه. حيث كانت في البداية تعاني من ضعف النظر ثم بدأ نظرها في الآونة الأخيرة يقل تدريجيًا عن أي وقت سابق حتى أضحت العوينات الطبية ذاتها بلا فائدة، لم يعد لديها القدرة على تمييز الأشخاص من بعيدٍ أو قراءة أي شيء دون تقريبه من عينها حتى يلامس أنفها. حتى عرضناها على الطبيب الذي صرح بأن هناك ضمورًا بالشبكية في حالة متأخرة، وتحتاج لعملية ما لإعادة نظرها. وهي الآن لا ترى سوى السواد وبعض الكرات البيضاء التي من المفترض أن تكون أشخاصًا أو أجسامًا. أما بالنسبة لأبي فقد

توغَل في نوع من حالات الاكتئاب على ما حالت إليه الأمور بأختي.. كل ما يريده الآن هو بَيعُ أي شيء لنجني المال للقيام بالعملية لها، لكنك تعلم بالطبع نهج القضايا المصيرية وكم تأخذه من الوقت في المحاكم مهما كانت كبيرة أو مؤثرة. ولا يوجد أمامُنا غير هذا القصر لبيعه، لأنه إرث عائلي وليس ممتلكات شخصية كبقية محلات وفنادق والدي، ثم...

توقف عن الكلام عندما سمع كلانا صوت طرق على باب الحجرة يصحبه، صوت (نرجس) تستعلم عن وجود أحد بالداخل. فحاول (أسامة) تجفيف دموعه سريعًا بأكمامه، ثم دعاها للدخول بعد أن اعتدل في مقعده متقمصًا دور المدير الجاد الصارم. ليدلف للحجرة بطريقة همجية مفاجئة رجلٌ رياضي الجسد يرتدي ملابس مدنية، ذو شارب منمق يزين وجهًا جادًا لم تصل البسمة له منذ عقود.. إنه الشرطي من ليلة الأمس.

كاد الشرطي أن يبادر بالحديث لولا أن عينه سقطت على (آدم)، ليشير إليه مغيرًا نيته فيما كان سيقوله، ليغمغم بنوع من الحزم عما يفعله هنا. فنهض كلا الرجلين، ليجيب (آدم):

- أهناك قانون يمنع زيارة صديقي في حجرته؟

- لا لكن هناك قانون يمنع تعرض المشتبه به الأول من الاختلاط بالصحفيين.. أليس هذا عملك يا أستاذ (أدهم)؟

ثم ظل يرمق اختلاف لوني قزحيتي (آدم) في فضول طفولي، ليرد (آدم) بتلقائية مصححًا اسمه للضابط. رغم أنه يعلم جيدًا أن تلك حيلة يتبعها رجال الشرطة للتقليل من محدثيهم وليظهروا كم أنهم نكرة لدرجة أن اسمه لم يعلق برأس الضابط المثقل بالمشاغل الأكثر أهمية.

ثم سأل (أسامة) بمجرد أن انتهى (آدم) من تصحيح اسمه للضابط إن كان هو بالفعل المشتبه الأول فيه بالقضية دون تصديق. لتظهر علامات الدهشة على (آدم) كأنه لم ينتبه لتلك الكلمة بالمرة الأولى، ليجيب الضابط:

- سيد (أسامة ناصر علام)، معي أمرٌ بضبطك وإحضارك لبدء التحقيق معك، أتمنى أن تصحبني...

كاد (آدم) أن يتحدث، لكن الضابط زاد من نبرة صوته علوًا وحدَّةً في هذه اللحظة، مكمِلًا:

- وحــيــد، دون أي نوع من الجلبة.

نظر (أسامة) لأرضية الحجرة في أسى، ليتقدم إلى الضابط، مطأطئ الرأس، و(آدم) يتطلع للموقف غير

مصدقٍ لرد فعله المتراخي كما لو أنه فاض به الكيل من كم تلك المصائب التي تلاحقه وقد قرر الاستسلام لها بالنهاية دون مقاومة تذكر.

التفت (أسامة) صوب (آدم) المصدوم قبل أن يغادر الحجرة، ليقول بنفس لهجة الحزن:

- ألم أخبرك بأنها لعنة؟

ثم سار مع الضابط ليظلم المشهد من خلفه، ليت هناك جمهور ليسقف احترامًا وتبجيلًا لهذا المشهد المأسوي الرائع. لكن ما من جمهور، إنه القدر اللئيم من جديد الذي يصفعك على وجهك لينبهك أن هذا الواقع بمراره ليس مشهدًا مسرحيًا.

(8)
الشيطان الذي تعهده

23/7/2015

وسط البلد بالقاهرة

الثانية عشرة عند منتصف الليل

ما الذي يحدث لي يا ربي؟ أشعر بأنه لا يراقبني أو يتبعني هذه المرة، بل أوقن أنه أمامي في اختلاف عن النمطية، يرسخ ناظره في كياني ليخترقه متعمقًا بروحي الضامرة، لا أعلم من أين وُجِدَ لكنه قائم بين الموجودات. لا أدري متى بدأ في فعلته لكنه هنا واطد بالأمر، أفتش بين ثنايا الأجسام من حولي باحثًا عنه لكني لا أتوسمه، رغم وعيي اليقيني أنه هنا، يشاركني حياتي ويوجع راحتي، يزرع الهلع في صدري ويحصد بذور التشفي.

لقد تطور معي الأمر بعد زيارتي للمقابر. أشعر بأنه أمامي وليس بخلفي، يكتنز في الظلام ينظر لي بابتسامة خبيثة لا تراها عيني لكن تشعر بها روحي. في حين أن كافة محاولاتي في تخفيف هذا الشعور عن وجداني بالتدريبات النفسية العقيمة التي نصحني الأطباء بتطبيقها، باءت بفشلٍ ذريع.

لم أفطن لهذا الشعور عند التربي. فذلك الجو من الألفة في تبادل أطراف المحادثات حتى لو كانت ساذجة، يعطيني شعورًا بالأمان والسكينة التي كانت تغمرني من والديَّ. لكن هذا الشعور صعب الظفر به وسط هذا التجاهل من زملائي بالعمل وانعدام الأقارب.

بمجرد عودتي للمنزل شعرت بأن ما مررت به لم يكن سوى البداية، وها هي العواقب تحمل على رأسي الواهن متخطية حاجز ضغط الدم وصولًا للأرق.

حتى جالت بخاطري تلك الفكرة؛ أنا أخشى عيون الناس ومراقبتها لي؛ لذلك سأترك الناس بعيونها تذهب للجحيم، بينما أهرب أنا بما تبقى من عقلي. ما دام خيار صناعة الصداقات باطلًا من الأساس.

فرُحتُ أفكر بالمكان الذي تندر به الأعين ويقل به البشر؟ أتضحى راحتي كامنة بالبحر؟.. لا، فأنا أريد أن أظل حيًا لا أن تمسى نهايتي الغرق أو التعرض لبطش الأمواج. ماذا عن الغابات؟ أفِقْ يا (حسام) نحن بمصر التي يُعتبَر بها الحدائق أمرًا نادر العثور عليه. هل أفكر بالريف؟ الريف الغربي فحسب يكون هو الفارغ العليل من أي إزعاج أما هنا فهو الزحام ذاته الذي لا يختلف عن الحضر إلا في الانقطاع المتواصل للتيار الكهربي. إذًا لا يوجد غيرها.. إنها الصحراء.

***

أن تقطن بمنطقة غاية بالازدحام كوسط البلد لهو أمرٌ مروِّعٌ بالطبع بحالتي تلك، وبنفس الوقت يعود عليّ بالكثير من المال عند بيعها. لم أرث عن والديّ سوى هذه الشقة التي قررت بيعها والانتقال إلى (الوادي الجديد).

وكأي أحمق قليل الخبرة بالحياة، ذهبت لهناك أولًا ثم راودت ذهني فكرة أين سأقيم عندما ترجلت من الحافلة، مما سيضطرني غبائي للجوء للسماسرة واحتيالهم. ربما تلك الحالة من الخوف التي انتابتني أوقفت عقلي عن العمل بمنطقية وجعلتني أتعامل باندفاع مع أول فكرة تطرق برأسي المتمثلة في الرحيل، وها أنا أدفع ثمن قلة تدبيري للأمور.

لحسن الحظ كان الوصول للسماسرة سهلًا، ولتيمن النصيب أنه كان لديه الشقة المناسبة لي.

لا أعلم ماذا انتاب خلجاتي من ولع بمجرد أن سمعت عن مواصفات تلك الشقة. بشارع معزول عن بقية العمارات، لا يوجد حولها غير أربع عمارات أخرى ومحل للأغذية وصيدلية فحسب. هذا هو الشارع بكل تفاصيله القليلة، الأمر يُشابِه تجمعات الأثرياء الراقية القليلة السكان، مع وجود الكثير من الأتربة فحسب.

كانت الشقة مفروشة، مغلقة منذ سنواتٍ طوال، ببناية بالطابق الرابع والأخير منها دون حارسٍ لعقارها، عبارة عن حجرتين وصالة ومرفقاتها من المياه والكهرباء، بالتأكيد لا غاز هنا ولكن هذه ليست بالمشكلة العويصة. إنها مثالية للغاية لي.. بعيدة عن البشر بأعينهم المراقبة أو المحتقرة لمرضي.

دون الانغماس كثيرًا في تفاصيل لا داعي منها وصلت لمرحلة ولوجي للشقة بعد إتمام العقد بتأجيرها لمدة شهر. إنها مدة قصيرة بالفعل، هذا لأني لا أضمن إذا كنت سأرتاح بها أم ستزيد الطين بلة، لذلك اكتفيت بشهر على سبيل التجربة.

لن أدعي أن الشقة كانت ذات طلة قابضة للنفس أو روح خانقة أو شيئًا من هذا الهراء الذي يقال عن الشقق القديمة المغلقة، بل كانت عادية لأكثر من اللازم، كانت طبيعية لدرجة تثير الاطمئنان في النفس.

كانت الشقة محمّلة بالداخل بأطنان من الأتربة التي تنم عن عدم دلوف أحدهم للمكان قبل سنوات تفوق عمري تقريبًا، كان المشهد باهت الألوان لا تستطيع التفرقة بين الأحمر والأبيض من فرط الأتربة وكثافتها على الأثاث، بخلاف رائحة العطن الخانقة التي تصدر من دهاليزها المكتومة يبدو أنه حان الوقت لبدء

تنظيف هذه الخرابة. لدي من المال ما يكفيني لاستئجار أي زوجة بواب عقار قريب لتنظيف الشقة، فقد أصبحت ثريًا بعد بيعي لشقتي الأولى، لكن علي حسبان الأمر جيدًا، فأنا الآن خالٍ من العمل، ولا أعلم ما يخبئه لي المستقبل من مفاجآت. فإذا كنت أمتلك الآن من المال لآكل وأشرب الليلة، قد لا أجده بنفس الوفرة غدًا، وأنا عاطل بصفة رسمية عن أي عمل بعدما استقلت من عملي السابق.. لذلك وجب عليَّ الحرص في نفقة أموالي حتى تستقر الأوضاع، ولأتم ما لدي من مهام ما دمت أستطيع.

وعقب أن انتهيت من تنظيف الشقة التي كنت أتعرف على أثاثها بالمصادفة من فرط الأتربة التي تغلفها، أبصرت الخدعة أخيرًا. كانت إحدى الغرفتين مغلقة بقفل معدني لا يقل عمره عن عمر الموجودات بشقة القرن العشرين تلك، بالأخص تلك الحجرة ذات المقبض الذي يختلف عن بقية الغرف، حيث كان مقبضها دائريًا قديم الطراز ذا قفل خاص. ليس معي سوى مفتاحين، أحدهما للشقة والآخر لباب العمارة الرئيسي.. اللعنة على هذا السمسار المحتال الذي يعد ما جناه على حمقي من أموال الآن بعمولة كبيرة يدسها لجيبه.

سأتصل بهذا المحتال مطالبًا إياه بفتح الغرفة. لكن ليس اليوم، لقد أنهكني السفر والتنظيف في يوم واحد، وأنا لست في عجلة من أمري لفتح حجرة أخرى غارقة بالأتربة لأضيف عملًا على إرهاقي. لن أنام بالحجرتين معًا على أي حال. لذلك سأنام الليلة بهذه الحجرة وغدًا أقتل السمسار...

(9)
ما بعد الجحيم

10/2/2005

الأقصر

السادسة ظهرًا

يدلف (آدم) لغرفة البنتين، حاملًا بيده كيسًا بلاستيكيًا مليئًا بأصناف الشوكولات والحلوى الملونة المحببة للأطفال، وعلى وجهه ابتسامة مصطنعة. لتركض ناحيته (إيمان) وهي تصيح بفرح (عمو آدم)، بينما تظل (دينا) الصغيرة تلعب بدميتها وترمقه من حين لآخر.

فسألت الفتاة برقة عن إمكانيتها لزيارة والدها الآن؟.. فجلس (آدم) على أحد الفراشيين وهو يحاول انتقاء الكلمات في باله، حتى أردف بالنهاية أن الزيارات لا تزال ممنوعة عنه. فقد حاول اليوم زيارته كالأمس لكن النتيجة كما هي، تنتهي بالفشل.

همدت شعلة حماس الفتاة بعد كلمات (آدم) التي لم يستطع اختيارها بعناية كما هيأ لها، فيا له من شعور أن تحرم تلكما الفتاتين من رؤية أبيهما ومن قبلها أمهما،

إنه لشعور أقرب باليتم. بل بتلك الحالات يكون اليتم أرحم من عذاب الأمل الكاذب.

حاول (آدم) إسعاد الفتاة وإخراجها من حالة الحزن تلك، فقدّم لها الحلويات التي جلبها معه ولا تزال الابتسامة على وجهه، لتأخذ الكيس البلاستيكي وتجلس به في أحد أركان الحجرة، لتبدأ رحلة التنجيم واكتشاف خباياه، ناسية أمرَ الزيارة الممنوعة تلك، لكن حرارة الشوق لوالدها أذابت الابتسامة عن ثغرها، لفترة على الأقل.

وجهة (آدم) حديثه إلى (دينا) التي ظلت تلعب بدميتها ببراءة غير عابئة بهموم الحياة، على أمل أن كل شيء بخير أو سيكون كذلك عاجلًا أم أجلًا:

- كنت أريد أن أسألك عن شيء يا (دينا).

توقفت الفتاة عن اللعب، ورمقته بنظرة جافة خالية من أي تعابير، لقد اعتاد (آدم) هذه النظرات من الناس خاصة الأطفال، فلا بُدّ أنها تتفحص عينيه بدهشة الآن. فأنت لا ترى رجلًا ذا عين سوداء وعين خضراء كل يوم. فأكمل (آدم) بعد أن نجح في جذب انتباهها، أنه قد رآها يوم الحادث تختبئ في إحدى الردهات، مستفسرًا منها إن رأت حينها شيئًا ما قد أخافها بجانب صرخات (نرجس) الهيستيرية؟.. فظلت صامتة قليلاً

كما لو أنها تتذكر ما حدث يومها أو متعجبة من سؤاله برمته، حتى أجابت بالنهاية:

- لا لم أرَ شيئًا. لقد كنت مارة أمام الحجرة وسمعت بها ضوضاء كنوع من الشجار، لكني لم أهتم وتخطيتها حتى سمعت (نرجس) تصرخ. فظللت مكاني أحاول معرفة سبب صرختها.

ضوضاء! إنه حقًا لمنتحر عجيب! في البداية يستخدم الوسادة لعدم إزعاجنا، والآن كان يتشاجر! بالتأكيد لا يتشاجر مع نفسه، فتأنيب الضمير يكون أكثر هدوءًا. كل هذا يزيد من احتمالية تعرضه للقتل.

حاول (آدم) تكوين صورة ولو بسيطة عن الحادث لكنه لم يستطع، فالشرطة متكتمة على الأمر تمامًا خاصة ناحيته، فهو لا يعلم بالأدلة أو تقارير المعمل الجنائي أو حتى سبب حبس صديقه كل هذه المدة بالقسم، هل تم تثبيت القضية به حقًا أم أن الشرطة تضغط عليه لذلك؟ كلها أسئلة تورط بها دون إجابات.

فعاد (آدم) ليقول مطمئنًا، إن والدها سيعود بالغد أو بعده على الأكثر، لتجيبه في ثبات يفوق قدرة الأطفال على التعبير، إنها ليست خائفة. ثم عاودت تغمغم مبتسمة أن والدها بريء وسيخرج على أي حالٍ. كما لو أن شخصيتها تحولت من الجحود للثقة العمياء بوالدها

الحبيب في أقل من ثانية.

هذه الفتاة عملية أكثر من العديد من الرجال المفتوليين العضلات مدعين الرجولة والقوة. أعجب (آدم) بكلمتها رغم جهله إذ كان هذا تفهمها للموقف وثبات نفسي، أم براءة طفولية تصل لمرحلة اللامبالاة أم ثقة طاغية في شخصية أبيها الحبيب الذي يمثل لها الكمال الأخلاقي والمثل الأعلى.

- عينك غريبة.

قالتها الفتاة لتخرجه عن شروده، ليبتسم بدوره في ودٍّ وهو يكاد يردف أنها عيب وراثي لكنه تراجع عن الأمر مكتفيًا بلفظ (خلقة الله)، بعد استيعابه أن كلماته الأولى كبيرة على عمر هذه الفتاة ذات الخمس سنوات. ثم هب واقفًا عاقدًا عزمه على المغادرة بعدما تأكد من أن الفتيات بخير، وبعد طلبه من (إيمان) أن تترك بعض الحلوى لأختها.

ظل (آدم) يتجول قليلًا بين ممرات القصر الفخم وهو يتأمله مبهورًا، لم ينَمْ لليوم التالي ككل ليلة، فما حدث لصديقه يطغي على روحه نوع من الكآبة وحمل الهموم التي تؤرق نومه، فلعله يجد في هذه الجولة ما يثقل جفنيه.

كان القصر يتكون من ثلاثة طوابق مليئة بالغرف من

كل صوب، غير الغرف الموجودة بالطابق الأرضي، هنالك الكثير من الصور العائلية تملأ الجدران، فراح (آدم) يتأملها ويحاول انتقاء أوجه الشبة بينهم. فلـ (أسامة) شجرة عائلة ضخمة، كثيرة الأفرع.

ثم إن التمعن في صور البشاوات القدامى لهو أمر مسلٍّ، خاصة عندما ترى الرجال ذوي الطرابيش الضخمة والشوارب الرفيعة المنمقة مرتديين تلك الحلة القديمة ذات السلسلة المعدنية التي تتدلى من الجيب العلوي ومرصعة بالأزرار الذهبية الغالية. غير النساء اللواتي يرتدين الفساتين العملاقة والقبعات الغريبة التي تداري قصة شعر أكثر غرابة. رؤية كل هذا تعطيك هالة من الانغماس في فترة البشاوات ذات الأبيض والأسود تلك، لدرجة أنك تتخيل عطرهم الفرنسي الباهظ الثمن أو تبتسم على أسمائهم التي في الأغلب تكون (نازك هانم) للإناث أو (المنفلوطي باشا) للذكور.

حتى توقف عند إحدى الصور وراح يتأملها، كان بها ما يجذب انتباهه حقًا.. بل وأكثر. ظلّ فوق الخمس دقائق يتأمل تلك الصورة دون أن يحرك قيد أنملة، بانفصال تام عن الواقع، لدرجة أنه لم ينتبه إلى (نرجس) وهي تقف بجواره.

- أستاذ (آدم).

- ها، أجل.. ماذا هناك يا (نرجس)؟

قالها (آدم) بعد أن نجحت المرأة أخيرًا في إخراجه من شروده العجيب الذي طال لدرجة مخيفة كادت فيها أن تطلب الإسعاف أو ترميه بالمياه لإفاقته.

فردت بدورها:

- ليس بشيء.. كنت أطمئن عليك فحسب، فوقفتك هكذا بصالة القصر بلا حراك تثير الريبة.

لم يستمع (آدم) لما قالته من الأساس، فأشار للصورة وهو يسأل عن كون من يقبع بها من شخصيات؟

كانت الصورة تضم فتاة صغيرة في الثالثة عشر من العمر تقريبًا، ترتدي فستانًا فضفاضًا ذا لون فاتح لا يعلم كنه لأن الصورة بطابع الأبيض والأسود كما ذكرنا، تجلس على أريكة بجانب امرأة عجوز تقريبًا ترتدي زي الخادمات القديم ذا نمط الفستان الأسود ذا المريلة البيضاء. لكن المرأة سمراء البشرة بطريقة تختلف عن الفتاة وعن أي صورة أخرى.

أغلب الأشخاص بالصور الأخرى ذوو بشرة سمراء بحكم طبيعة مدينة الأقصر التي تفرض حرارتها، البشرة السمراء على أهلها بالإجبار، كنوعٍ من الضريبة للحياة بتلك المدينة الأثرية العظيمة. لكن هذه المرأة

كانت أكثر اسمرارًا عن الحد الطبيعي للآخرين، كما لو أنها إفريقية أو كما يتم تسميتها في الغرب بالزنجية.

تطلعت (نرجس) للصورة التي يشير لها، لتجيبه في سرعة:

- إنها السيدة (دعاء)، أمّ الأستاذ (أسامة) في صباها مع الخادمة الخاصة بها.

- أتعرفين تلك الخادمة؟

- لم أقابلها قَط، فقد ماتت قبل أن يتم توظيفي للعمل مع أسرة (علام) بك.

هزَّ (آدم) رأسه في علامة على عدم الرضا بتلك الإجابة وهو يطالبها بإطلاعه على أي شيء قد تعلمه عن تلك المرأة مهما كان تافهًا أو بسيطًا. تعجبت من إلحاحه هذا، ثم ردت في سرعة:

- كل ما أعرفه أن هذه الخادمة كانت قريبة جدًا من السيدة (دعاء)، ولم يفرق بينهما غير الموت.

للمرة الثانية لم ينَل الإجابة التي ترضيه، ولا يستطيع الإفصاح عن استفساره المقصود هكذا بسهولة، وإلا اتهمته بالجنون، لذلك فضل الصمت، ثم تحرك من موضعه قاصدًا غرفته للنوم. لكن صورة هذا السوار التي كانت ترتديه الخادمة في الصورة لا تزال تتراقص في مخيلته، ليعود شبح الماضي يتراقص في

هوجته الجهنمية مصاحبًا بشريط ذكريات في عيني (آدم)، لم يكن يتوقع أبدًا أن تعود له هذه الذكريات، في هذا المكان تحديدًا.

***

مدت (إيمان) إلى (دينا) أحد أعواد الشكولاتة التي جلبها (آدم) منذ قليل وهي تسأل إن كانت ستأكلها أم لا، لتجيبها (دينا) بالنفي رغم أن تلك القطعة من الحلوى هي المفضلة لديها.

ثم نظرت لها (دينا) في حدة وهي تقول ضاغطة على حروفها مؤكدة رفضها، ارتعبت الفتاة لتلك النبرة، ثم عادت تسألها بفضول عن مصابها ليجعلها تصل لتلك الحالة من السخط، لترد (دينا) وهي تنظر لباب الحجرة، أنها لا تحب هذا المدعو (آدم). فردت (إيمان) في استنكار وهي ترفع كتفيها:

- أنتِ لا تحبين الغرباء في جميع الحالات.

- لكن هذا بالأخص لا أحبه بطريقة مضاعفة عن الجميع.

نظرت (إيمان) لها بخوف وهي تستفسر عما في نيتها لتفعله، لتجيبها (دينا) بابتسامة عكس المتوقع، بأنها ستفعل ما تفعله بكل مرة.

ابتلعت (إيمان) ريقها وهي ترمق (دينا) في خوف،

كما لو أنها فهمت ما تقصده أو ما تنوي فعله.. وهو في الأغلب، ليس بالشيء الجيد.

(10)
الهلاك قادمٌ مهما تراخى

24/7/2015

الوادي الجديد

العاشرة صباحًا

لقد نمت أخيرًا، غصت في عالم من اللا واقع واللا قواعد المحبب، الذي به تسترخي كل عضلة من جسدي وكل عصب من عضلاتي في لحن من الاسترخاء ومعزوفة من الراحة.

فمنذ ليلة المقابر حتى بيعي لشقتي بالقاهرة وصولًا للوادي الجديد، لم يجد النوم طريقه أبدًا لبلوغ جفوني المؤرقة. ومن وقتها حتى الآن وأنا في مواجهة مراقبي الذي لا يسأم ولا يمل مني، بعدما كنت أتحاشاه بالنوم. لكني ها قد نمت ومع أول يوم بالشقة.

لا أعلم إذا كان سبب نومي هو المجهود البدني الشاق الذي بذلته أمس في تنظيف الشقة وما سبقه من السفر في صيف مصر الحارق، فأجبرني على فقدان الوعي من فرط التعب كالقتيل، أم أن السر يكمن في الشقة وأريحيتها في بُعدها عن الآخرين. لم أهتم كثيرًا

وانطلقت من الشقة باحثًا عن عمل بالمنطقة كما خططت.

***

- بالتأكيد لدينا عمل ويمكنك استلامه من الغد إذا رغبت.

قالها رجل أربعيني بصوت أجش شبيه لصوت قرقعة الشيشة التي يستنشق دخانها بين الدقيقة والأخرى، ذو كرش عملاق، يجلس على كرسي بلاستيكي واهنٍ يكاد ينفجر من ثقله، أسفل مظلة قماشية بدائية الصنع لحمايته من حرارة الشمس، التي يحاول جاهدًا الوقاية منها بمساعدة إضافية لعمامة صعيدية يلفها حول رأسه البيضاوي الضخم.

يبدو من جلسته المتفاخرة بوضعه لساقه على الأخرى التي يحاول أن يوحي لك بها مدى أهميته، بجانب صبي المقهى الذي يُسرِع بتحضير الشاي له وتغيير جحر الشيشة بحركة مستمرة لا تنقطع، هذا غير مراقبته للآخرين يعملون بينما هو يحتمي من لهيب الصحراء بكل تعالي الدنيا. إن هذا الرجل هو المدير بكل صفاته المعهودة من الثمنة والعجرفة وادعاء العمل بينما كل ما يفعله هو توفير وسائل الراحة لذاته.

لوحت بيدي محاولًا إبعاد دخان شيشته عن وجهي قبل حرقها لرئتي، قائلًا:

- ألم تسألني عن مؤهلاتي أو شيءٍ من هذا القبيل؟

- أنت تبحث عن عملٍ لم تحدِّد كنهه، وهذا يوفيني الحق لإلحاقك بما أشاء من أعمال. لكنك ستعمل في الحفر وتحطيم الصخور في المناجم على أي حال.

لم أحاور الرجل كثيرًا، فربما تلك الهالة الضبابية من دخان الشيشة الملوّث أثرت على بصره. فهذه الوظيفة ستحتاج لرجلٍ مفتول العضلات أو يحظى بجسدٍ صحيٍّ سليم على أقل تقدير، ليس في وهني ونحافتي! لذلك قد تقبّلت الوظيفة قبل تغييره لقراره، وعلى موعد باستلامها بعد يومين في المنجم.

***

بعد عدة أشهر

يمكننا القول أن هذا المكان كان وجه السعد على حالي كما تزعم بالأمثال الشعبية. لقد تحولت حياتي للأفضل بشكل غير مسبوق على النحو الآتي:

• تم تثبيتي بالعمل في المناجم.

الذي كان مرهقًا في بدايته خاصة مع جفاف الصيف، حتى اعتدته وأصبح كالمخدرات، أدمن على العمل بلا انقطاع في حين تؤلمني مفاصلي بأيام الإجازة.

• كونت علاقات بالعمل مع الكثير من الزملاء.

الذين توقفت عن إطلاق هذا اللقب المزعج عليهم ومنادتهم بالأصدقاء، حتى إننا بتنا نتبادل الزيارات المنزلية وتجمع بيننا جلسات المقاهي المطوقة بسموم السجائر والشيش والكثير من المرح، بعد يوم العمل المرهق المغلف بالعرق والغبار.

• كونت علاقات مع جيراني القلائل.

إن جئنا للحق، فلم تكن سوى جارة واحدة بالعمارة الهادئة بالشارع الأكثر سكونًا. فالمنطقة التي أسكن بها صامتة كما لو أن السكون ذاته يولد من رحمها بطريقة عجيبة. فحتى أصوات معدات الحفر العملاقة وضجة المناجم الأزلية، لا تصل لمنزلي رغم المسافة القصيرة التي تفصل بينهما، كما لو أنها تخشى مجرد الاقتراب من هالة المنطقة حتى لا تفسد سكونها. وهذا ما كنت أتطلع إليه بعيدًا عن أبواق الميكروباصات أو صخب جلبة الناس من محطة المترو بالقاهرة.

المهم أني لم أتعرف بالبناية -الخالية من السكان- غير على الحاجة (آيات) القاطنة بالشقة القابعة أسفل شقتي تمامًا. امرأة طاعنة بالسن، تظهرعلى وجهها المجعد علامات العقود التي مرت بها، كانت كغيرها من عجائز مصر، ذات وجه مريح بلونه القمحي. ترتدي

منظارًا عتيقًا يفوق تلك البناية ذاتها، تقترب حواسها من الإتلاف معلنة استقالتها عن وظائفها بعد هذا العمر الطويل، حيث كانت قليلة الكلام وشِبه ضعيفة السمع، تتحرك بنوع من الحماس بجسدها المتوسط، لتكذيب عمرها الذي مرَّ بها على غرة.

كنت دائمًا ما أتردد على منزلها لنتشارك وجبة العشاء الجماعية. فأحيانًا كنت أبتاع بعض الوجبات الجاهزة من الخارج مع عودتي من العمل لنتناولها سويًّا، وغالب الوقت كنت أتناول الطعام الذي تعده هي بكل نفسٍ وحياة.

هذه المرأة كانت متعطشة للعب دور الأمومة منذ تسع سنوات ولم تجد غيري أمامها لتفرغ حنانها عليه. حيث سافر ابنها الوحيد للقاهرة وزحامها بعد أن طالب بتحويل محل عمله ومن قبلها دراسته للعاصمة بلا أي نية للعودة للوادي الجديد، تاركًا أمه هنا بعد عنادٍ منها طال لتسعة أعوام لتبقى بجانب ضريح زوجها وابنها الأصغر رحمهما الله.

نعم، فقد فقدت هذه الأم المثالية -في نظري- ولدها الصغير ذا العشر أعوام في حادث. وكانت هذه النقطة الفاصلة في حياة كل من الأم والابن الآخر، حيث كان لكل منهما رأيّ متناقض عن الآخر تمامًا. حيث تشاءم

الابن من هذا المكان الذي فقد به أخوه الذي يصغره بالعديد من الأعوام لدرجة أنه كان يعتبر نفسه الأب الثاني له، بعد وفاة أبيهما بسبب وعكة صحية. بينما قررت الأم البقاء مع أسرتها حيث وَلدوا ودُفنوا، لتزاحمهم نومتهم الأبدية بالقبر بعد لفظها لآخر أنفاسها، مهما طال الانتظار.

و حتى يأتي ذلك اليوم، يبعث الابن لأمه ما تحتاجه من أموال لحياتها الزاهدة مع توصية من زوجة بواب إحدى العمارات القريبة بتوفير كل حاجيات الحاجة (آيات) من تنظيف للشقة أو شراء البقالة والدواء أو غسل ملابسها القليلة. دون أن تبرح مستقرها بشقتها أبدًا، فمهما اعترى العالم من بلاء في الخارج، فلن يصيب امرأة عجوز مثلها، تعد الأيام لأجلها الإلهي. لذلك لم تكن تعلم في هذه الدنيا غير شقتها الواسعة عليها وضريح عائلتها.

كانت هذه المرأة لطيفة المعشر، مبتهجة دائمًا،كما لو أن الحياة قد نضرت بها بمجيئي لأعوضها عزوة الابن. لكنها لم تعلم أنها هي من تعوضني حنان الأم.

• حالتي النفسية قد تحسنت.

غير أني أنام بالشقة في استمتاع وراحة بال لم أشعر بها منذ سنين طوال. كانت هذه هي العلاقة

السامية، من الصداقة والحب الأمومي الصافي مع الحاجة (آيات) التي كنت أبحث عنها. دون تحاشٍ أو تجاهل مني كزملاء عملي الأسبقين، دون مصلحة متبادلة كالأطباء النفسيين.

أضحت حالتي الصحية أكثر استقرارًا، ولم أعد في حاجة لعقاقير ضغط الدماء إلا لتثبيته لا كمحاولة للسيطرة على ثورته.

ازداد وزني من طعام الحاجة (آيات) الدسم والغزير، ونمت لي بعض العضلات على جسدي كرد فعل من عملي الدائم في تحطيم الصخور والحفر وحمل المعدات الثقيلة. ناهيك عن أني توقفت عن لجلجتي في الحديث والتلفت حولي كناشلي الحافلات. كما لو أن مرضي قد فارقني أخيرًا ليحل بلعنته عن عاتقي ليرمي بها على مضيف جديد، مبيحًا لي الفرصة لأغدو طبيعيًا من جديد.

(11)
أكثر من اللازم

12/2/2005

الأقصر

الساعة الخامسة ظهرًا

كان (آدم) بغرفته يقوم بمراجعة بعض المقالات التي كتبها على ورق دفتر ملاحظاته، التي سيعود لكتابتها على حاسوبه الشخصي فيما بعد، ويتحقق من جودة الصور ليجدول أيهم ممتازًا وأيهم الآخر ما يحتاج لإعادة التصوير، حينما سمع صوت الفتيات المرح وهن يصرخن بكلمة (أبي) يضرب مسامعه من خارج حجرته.

كان (أسامة) قد دلف من باب القصر أخيرًا بعد غيابٍ طال لأربعة أيام في قسم الشرطة بسرية تامة، لم يستطع (آدم) فعل شيء له، أما (نرجس) هي التي بعثت لأستاذ (عادل عبد المقصود) مدير أعمال (علام) بيك، ليبعث بأي محامٍ لعون (أسامة) بالقسم، لكن يبدو أنه تأخر أكثر من اللازم.

جثا (أسامة) على ركبتيه ليحتضن (إيمان) بينما

تضمهم (دينا) جميعًا.

لتصرخ (إيمان) والدموع تسيل من عينيها، عن مدى شوقها لوالدها، الذي كانت تخشى ألا تراه مجددًا.

جمال الطفولة هو التعبير عن المشاعر بلا قيود أو خجل، لهذا فنفسية الأطفال أفضل عشر مرات من أي رجلٍ بالغٍ يكبح مشاعره دون الجهر بها.

أما (دينا) فقالت بثقة، إنها كانت على يقين بعودته المحمودة القريبة.

كانت (نرجس) تراقب هذا المشهد والدموع تتلألأ في مقلتي عينيها على المشهد الأُسري النادر، تكاد دموعها تنزف من عينيها هي الأخرى لتشارك (إيمان) في بكائها.

ترجل (آدم) من غرفته هابطًا السلالم ليقتحم بدوره هذا المشهد، فيلاحظه (أسامة) ليترك الفتيات ناهضًا، ليتقدم ويحتضن صديقه بالنهاية.

كان منكوش الشعر ومبعثر الملابس، تفوح منه رائحة عطنة، فلولا أنه لم يقضِ بالقسم سوى أربعة أُيام لكانت لحيته نامية بطريقة غير منمقة الآن أو كان قد أدمن على السجائر.

توقفا عن هذا العناق الفياض بالمشاعر، ليقول (أسامة) مبتسمًا:

- لقد علمت من ذلك الضابط البغيض أنك كنت تأتي كل يوم لزيارتي وهم يمنعونك عن رؤيتي.

- لقد أفسدت المكان بعد أقل من عشر دقائق من خروجك منه؛ لذلك كنت أتعجلهم في الإفراج عنك لتنقذ ما يمكن إنقاذه.

ضحك كلاهما، ثم عاد (أسامة) ليقول:

- أشكرك يا صديقي على اعتنائك بهم من أجلي.

- استحم أولاً واشكرني لاحقًا، فرائحتك أشبه بالقمامة المحترقة.

قهقة جميع الواقفيين، وزهرة السعادة تعود لتنبت من جديد، بعد أن أذبلها غيابه.

***

بعد ساعة من رحيل العسكري الذي كان يتربع أمام غرفة مدير أعمال (المسعودي) سابقًا، كان (آدم) يجلس مقابلًا إلى (أسامة) في حجرة هذا الأخير بعد أن رمى بجسده أسفل مياه الحمّام المُنعشة وتناوَل بعض الطعام الدسم من يد (نرجس). لم يترك له (آدم) فرصة للنوم أو إراحة جسده المرهق، بل اقتحم غرفته عازمًا على معرفة كل ما حدث معه خلال الأيام الأربعة المنصرفة.

- لقد اشتبهوا أني القاتل، لأني صاحب المصلحة

الأكبر في موته.

فسأل (آدم) مستنكرًا عن كيفيه هذا ليجيبه (أسامة):

- اعتقد الضابط أني لم أصل لاتفاقٍ على بيع القصر معه، فقمت بقتله في نوبة هياج مني. ولم يقتنع أني لم أتناقش معه في الأمر من الأساس. حتى جاء المحامي الذي أرسله أستاذ (عادل) مدير أعمال والدي لنجدتي. تخيل أنهم كانوا يريدون احتجازي على ذمة التحقيق حتى استبيان نتيجة المعمل الجنائي!

- لمَ كل هذا التعقيد؟ لو كنت سفاحًا أو تاجرًا للمخدرات له عدة سوابق لكان التعامل معك هينًا عن ذلك.

- بسبب تحفظ الدولة على ممتلكات والدي ومنعه من التصرف بها، أصبحت الشرطة تظننا نريد الهروب وترك السفينة المثقوبة لهم لتغرق بهم أجمعين.

المجتمع الآن ينظر لهم على هيئة اللصوص، والأوغاد الذين نهبوا الكثير من أموال الفقراء، ويستحقون الموت عن طريق إجبارهم على التهام الجمر إن لم يقرروا سلخ جلودهم. وقد وجد الضابط من تلك القضية فرصةً لتهذيب (أسامة) كما لم يفعل والداه، ويُخرِج ما بروحه من حقدٍ على وجدان ضحيته

المحطم نفسيًا من البداية.

فقال (آدم) مغيِّرًا الموضوع:

- لدي لك خبرٌ رائع لك..عرضت على (عمر البحيري) صاحب شركات الحديد شراء القصر الخاص بك وقد وافق كسداد خدمة لي.

اعتدل (أسامة) في مقعده عندما تنبَّه لأهمية هذا الكلام ثم عاد يقول:

- مهلًا، مهلًا.. أنت تعرف (عمر البحيري) شخصيًا؟ لا أحد يستطيع الاتصال بهذا الرجل ولو حتى المخابرات المصرية.

ابتسم (آدم) في غرور وهو يقول:

- ليس على (آدم سمير) يا صديقي. فمنذ ثلاثة أعوام تقريبًا تم اتهام الرجل بإحدى قضايا النشاطات المشبوهة، بأن تجارته الأساسية بالمخدرات متسترًا عليها بالحديد تلك. فهب كل الصحفيين يسبُّون بالجرائد ويبرزون أنه شيطان رجيم تجسَّد في هيئة إنسانية ليعيث بالأرض فسادًا.

ثم أشار على نفسه مغمغمًا:

- إلا العبد لله الماثل أمامك.. كنت أدافع عنه وأحاول كشف الغطاء عن أعماله الخيرية التي همشها الآخرون، حتى اتضحت براءته بالفعل كما دفعني حسي. وبعدما

انتهت القضية طلب لقائي ليشكرني شخصيًا على مساندة موقفه، فلا تَنسَ أني أعمل بجريدة كبيرة، تقع في يد الكثير من القراء وقد ساعد هذا على توضيح الحرب التي خضتها. ومن وقتها وهو يدين لي بخدمة، ويبدو أنه قد حان وقت سدادها.

صمت (أسامة) قليلًا كما لو أنه يفكر في شيء ما، لكن (آدم) بتر تفكيره مطالبًا منه مشاركته في التفكير بصوت عال، ليضم (أسامة) حاجبيه وهو يقول:

- لقد عرضت على (عمر البحيري) شراء القصر بالفعل.. ليس هو شخصيًا مثلك، لكن أقصد مدير أعماله. لقد وافق، لكنه ينوي هدم المكان.

فسأل (آدم) متعجبًا، عن السوء بالأمر ليرد (أسامه) في سرعة:

- بالطبع أمر سيء.. بل هو أمر كارثي. كل ما ننويه أنا وأبي، هو بيع القصر ليعود علينا بالمال لعملية أختي والتصالح من البنوك لفك أرصدتنا المجمدة، هكذا سيستطيع أبي متابعة قضية تهرب الجمارك تلك، ثم نعاود شراء القصر عندما ينتهي كل هذا الصراع. لهذا لا أريد بيعه لمن سيهدمه باليوم التالي من شرائه.

قضب (آدم) حاجبيه ثم أردف:

- ألا يوجد إذًا شارٍ آخر ينوي الحفاظ عليه سليمًا؟

- لم يكن هناك سوى (مهيب المسعودي) من وافق على شروطي، لكني أعتقد أنه لن يحبذ التعامل معي بعد انتحار مدير أعماله في عقر داري.

صمت الاثنان هنيهة ثم قال (آدم) بالنهاية:

- إنه أمرٌ صعب، لكن عندما يأتي (البحيري) لشراء القصر من طرفي، يمكنني أن أزيد السعر عليه ولن يعترض. إنه العرض الذي أستطيع مساعدتك به، إما أن تبيع القصر بمالٍ مضاعف وتنسى أمره للأبد، أو تستمر في البحث عن شارٍ آخر ينوي الحفاظ عليه سليمًا.

- حسنًا. سأفكر بالأمـ...

قاطع جملته (نرجس) التي دلفت للحجرة المفتوح بابها، وهي تطلب من (أسامة) أن يأتي معها لدقائق لمحادثة الأستاذ (عادل عبد المقصود) المحامي عبر الهاتف بأمرٍ يخص القضية. فنهض (أسامة) معها لرؤية الأمر وهو يسب بسره جميع من ساهم على زجه لشقاء تلك الأيام السابقة، بينما طلب من (آدم) الانتظار لإكمال نقاشهما حين عودته.

***

بعد خمس دقائق من الانتظار والتأمُّل في اللا شيء، طرق لمسامع (آدم) صوت أشبه بالأنين قادم من حمام الحجرة الصغير.

يمكن بكل يسر التمييز بين الأنين المعدني الذي تصدره الماكينات أو المواسير الصدئة، عن الأنين الآدمي الذي يصدر من القصبة الهوائية المختنقة. فتمكن (آدم) بسهولة تمييز أن هذا الصوت بشري. لم يستطع إبصار صاحب الأنين لأن باب الحمَّام مُغلَقٌ، فترجل من مقعده لتفقد مسببه. ربما هي إحدى الفتاتين قد تسللت لذلك الحمام في لحظات شروده وتئنّ لشيء ما يؤلمها.

فتح الباب المغلق، ليجد أنه ليس بحمَّامٍ، بل هو مَمرٌّ ضيقٌ يقود لحجرة إضافية. تلفت حوله ليجد باب الحمَّام في ركن آخر من الحجرة لكنه لم يلحظه لأنه كان يقابله بظهره طوال الجلسة. هذه الغرفة تختلف في تصميمها الهندسي عن حجرته!! ربما يعود هذا لأنه في قصر وليس فندقًا حقيقيًا.

تيقظ (آدم) من خواطره حين تنبه لارتفاع صوت الأنين، وهذا يعني أنه بالطريق الصحيح. فتقدم بخطى بطيئة بذلك الممر المؤدي لغرفة بها إضاءة خفيضة نوعًا.

ما تلك الرائحة العجيبة التي تسللت لخياشيمه؟ أتلك نوع ما من البخور؟! لم يكفِه الوقت للتعمق بتلك الرائحة بأنفه، لأن ما سقط ناظره عليه بمجرد وصوله

للحجرة الأخرى أوقف أنفه وعقله وجميع حواسه عن التفكير أو الحركة. ظل في حالة من الشلل، احترامًا لهذا المشهد المهيب.

لم تكن الحجرة تختلف في حليها عن زينة القصر بأكمله، من أمر جماجم الحيوانات المعلقة على الجدران، القابعة بجوار الكثير من الحيوانات المحنطة. لكن عندما ترى جمجمة ثور بجانب جمجمة آدمية منقوش عليها بعض الكتابات والرموز اللاتينية، هنا تبدأ في الشك. حين تبصر ثعبانًا محنطًا جوار حامل شموع على هيئة قطة سوداء جالسة على ساقيها الخلفيتين، هنا تشعر بالتوتر. عندما تلحظ دولابًا مليئًا بالدمى القماشية بدائية الصنع مكدسة في ازدحام فوق بعضها، هنا تشعر باضطراب داخلي.

كان الأنين يصدر من امرأة تجلس على كرسي متحرك تتطلع من النافذة للأفق السرمدي، مقابلة باب الحجرة بظهرها.

اقترب (آدم) من المرأة في نوع من التوجس وهو يبتلع ريقه، لم يكن وجه المرأة شيطانيًا أو مشوّهًا. بل كان وجهها عجوز للغاية، متخطية السبعين على أقل تقدير، ذات وجه مجعد بغزارة وشعر أبيض معكوف، مرتدية عباءة ذات لون برّاق، ذات بشرة سمراء على

غرار أغلب السيدات في هذه البلد. فلولا هذا المشهد المحيط بها لقال إن هذه المرأة ملكة أفريقية ما أو زوجة رئيس إحدى الدول على أقل تقدير لأناقتها، لكن مع كل هذه الموجودات المثيرة للقشعريرة ووجهها الشائب الذي خفى التجاعيد ملامح الحياة عنه، فالقول يختلف.

عندما دخل (آدم) لمجال بصرها، ظلت ساكنة دون أن تتحرك قيد أنملة، كما لو أنها رحلت عن عالمها منذ مدة ليست بالهينة، لكن صدرها المتحرك وعينها المضطربة يدلان على أنها لازالت تتشبث بالحياة ولو على حساب رفات روحها. فبمجرد أن وقعت عينها عليه -دون أن تحرك رأسها- أصبح صوت أنينها يتزايد، كالقطط العاجزة عن حماية صغارها.

هنا أقتحم (أسامة) الحجرة وهو يصيح:

- ماذا هناك يا أمي؟

تقدّم نحو العجوز ليجثو أمامها ويربت على يديها بحنان، محاولًا تهدئتها بأنه قد حضر وكل شيء بخير بلا داع للقلق. شعر (آدم) بالحرج عند علمه أن تلك العجوز هي أم صديقه، فقال محاولاً الاعتذار على اقتحامه للغرفة، لكنه بتر كلماته، حين طالبه (أسامة) بالخروج فورا باقتضاب.

أسرع (آدم) من الحجرة دون نقاش قاصدًا حجرته، فكان يحتاج للخروج منها على أي حالٍ ليفكر أو يبعد تلك الهواجس عن رأسه. فاقتحم غرفته الخاصة ليتعثر في نفس الطاولة الصغيرة -كالمرة السابقة- التي كانت تحمل شيئًا ما تمعن به النظر لأول مرة. فأعين الرجال لا تتنبه لتلك الأمور الصغيرة إلا عند الحاجة إليها أو إزعاجهم.

لقد كانت مزهرية! لقد تركها المرة الماضية أرضًا دون أن يعيدها، فلا بُدَّ أن (نرجس) هي من أعادتها أثناء تنظيفها لحجرته. تناولها (آدم) بين كفيه وراح يقلبها متأملًا شاكلتها. لقد أسقط هذا الشيء مرتين أرضًا ولم تنكسر! هي بالتأكيد ليست قوية لهذا الحد، فراح يتأمل فوهة المزهرية الفخارية حتى علم السبب لعدم تحطمها.

فلم يظن (آدم) أن شبح الماضي سيأتيه هنا.. بهذا المكان بالذات. لكنه على الأقل تيقن مما يواجهه وبما وجب عليه التحصن. فسحر (الفودو) المنتشر بهذا المكان، يحتاج للتريث في التعامل وتقدير قوته.

(12)
سنسقط سويًا

29/11/2015

أحد مناجم الوادي الجديد

الواحدة صباحًا

تلك الرجفة القابضة التي تعتصر رئتيك بلا تراخٍ، ذلك الألم المبرح الذي ينسال بين أوصالك في تؤدة ليزيدك حرقًا فوق عذابك، تلك الظلمة الدامسة التي تكتسح عينيك وروحك بالتدريج في تلذُّذ رجيمي، ذلك الجمود الذي اعترى أطرافك وكافة جوارك محيلًا إياك لجمادٍ بالٍ. أليست تلك علامات تأكيد حضور الموت برهبته المفزعة للمشهد؟ لكني لا زلت قادرًا على استشعار قطرات الدماء المنسالة من جروحي مصرحة لما بقي من قواي بالخوار تمامًا. تنتاب عيني حرقة جحيمية كلما فتحتها كما لو أن هنالك جمرات ملتهبة تستقر فوق جفني، لكن بمقدوري الرمش على أي حال مهما كلفني الأمر من عناءٍ أليمٍ. بمقدوري التنفس كذلك، لكن هنالك أرطالٌ من الأجسام المجهولة، تجثم فوق صدري كما لو أنها تَحوُل بيني وبين التقاط أنفاسي المتحشرجة.

أنا أُحرِّك أطرافي وأتنفس بجانب حاسة الإحساس لدي التي لا زالت تعمل! أكل هذا يؤكد أن روحي لا زالت موجودة بين طيات جسدي ولم تُزهَق بعد؟ ربما تضحى تلك مجرد سكرات الموت التي تنتفض بها أنفاسي الأخيرة بخلجاتي قبل أن تجحظ من كنفي معلنة استسلامها بعد محاولتها الفاشلة بالتشبث بي. حتى لو لا زلت متشبثًا بالحياة، فتلك الرقدة الممتنعة عن أي تمهيداتٍ للحركة، توحي بأن نبضات قلبي صارت معدودة لا محالة.

ياللسخرية عندما يسألني الموتى عن سبب وفودي الغاشم لعالمهم وأجيبهم بـ...

مهلًا.. أنا حتى لا أتذكر سبب تلك الميتة تلك، لا بُدَّ أني سأضحى أهزوءة الأرواح ليوم القيامة..

"حــــــســــــــام"

هناك من يناديني باسمي! أحان موعد السؤال بتلك السرعة؟ لكني أميز تلك النبرة في نطق اسمي، إنه صديقي (صبري)! نعم هو بلا شك أو قلة يقين. لقد أمضيت معه شهرين من العمل بالمناجم بجانب تشارُكنا جلسات السمر الليلية المحمَّلة بسبِّ حُكَّام مباريات كرة القدم أو مدح صوت مطربات العصر الجميل. لقد زُرته ببيته وسلمت على زوجته البدينة وتعرفت على أطفاله

المزعجين، في نوعٍ من ود الجيرة الذي لم أعهده في حياتي السابقة. فكيف لي بعد كل هذا أن أخلط في صوته وحتى لو كنت على مشارف الموت؟

يستمر في الصياح باسمي مقترنًا ومصحوبًا باسم (عزت). أذكر هذا المدعو (عزت) بدوره، فهو الآخر أحد أصدقائي بالمنجم، بل ما يجد على عقلي هو تذكره لمشاركتي أنا و (عزت) الحفر بقلب أحد المناجم العميقة.

هل حقًا حدث ما تصوَّرتُه للتو؟ أسقط المنجم على رؤوسنا أجمعين؟ هل رقدتي الأليمة تلك هي بأنقاض الصخور المتهواية بعدما عجزت الشدات الخشبية عن تحمُّل ثقل السقف الطاغي؟ ربما هذا يفسر أثر مذاق تلك الحبات الترابية التي تتكدس بفمي بمجرد فتحي إياه كمحاولة لامتصاص كمٍّ أكبر من الأكسجين كعون إضافي لأنفي الدامية.

يقترب صوت (صبري) مصحوبًا بأصوات متداخلة لأشخاص كثيرين أميِّز بعضهم والبعض الثاني أجهله والبعض الثالث أتكاسل عن التركيز بنبرة صوته على أي حالٍ. حيث تعتريني الآن رغبة جامحة للانغماس في عالم النوم، لعلّني أعثر به على راحتي التي لم أجدها بيقظتي. أحاول الحفاظ على يقظة ذهني رغم

انغلاق جفوني، حتى لا يضربني الموت على غفلة مني، لكن طاقتي ضحت أدنى من إتمام جملتي...

***

رمادي!

سمعت يومًا أن الرمادي هو مرحلة البرزخ الكامنة بين اليقظة والإغفال. فأوشكت على سؤال نفسي تلك الأسئلة المجازية حول إن كنت مت بالفعل وأني في انتظار الحساب وسأرى الآن شريط حياتي الموحش يعاد ويُكَر أمام باصري. حتى رحمتني تلك المرأة البدينة من كافة تلك التساؤلات بملابسها الزرقاء المتسخة المميزة لزي الممرضات، فراحت تنادي على طبيبٍ ما جاهرة بيقظتي حتى لو كانت غير كاملة.

لقد نجوت من موتٍ محتَّمٍ بمعجزة إلهية على أقل تقديرا أعدت الإصابة بمرض ضغط الدم الذي طلق عنه الموت الصامت، فيمكنك الجزم بتكيفي الاستعداد لحالة الموت تلك حتى لو كانت مفاجأة. لكن تلك مرتي الأولى في اقتراب الموت من الظفر بي بتلك الفظاظة وأحالتي على مشارف الحياة.

تطلعت حولي لأجدني راقدًا على فراش وسط عنبر مليئ بحالات مرضى على شاكلتي! أحقًا حالتي ليست بالخطرة لوضعي بالعناية المركزة بغرفة منفردًا! أم أن

رفاهية العاصمة تلك لا ألاقي مثلها بالوادي الجديد؟

حضر الطبيب متفحصًا لبعض الأجهزة المتعلقة بجسدٍ، فحاولت محاورته لكنّ صوتي تعثّر بقناع التنفس المغلّف لكلٍ من أنفي وفمي لتحسين عمل رئتي، فأزحته عن وجهي في أول أمرٍ توصله خلاياي العصبية من رأسي حتى أحد أطرافي، لأصطدم بثقل جسدي في بادئ الأمر حتى يخضع ذراعي لأمري بالنهاية معاودًا لتجاوبه الطبيعي. مفرجًا عن كلماتي بحُرية رغم قلّتهم في سؤالي عمّا أصابني. ليجيبني الطبيب بابتسامة:

- حمدًا لله على سلامتك يا بطل.. حالتك مستقرة وبأتمّ صحتها. لقد صرح أصدقاؤك أثناء إخراجهم لك من أنقاض المنجم أنك كنت بعيدًا عن الكمرات الخشبية للسقف فأضحى الانهيار محدودًا على رأسك ولم يصيبك إلا بعض الكدمات البسيطة بفضل صلابة الأعمدة الخشبية التي كنت تتمركز أسفلها وحملت أغلب الانهيار عنك.

كدت أسأل عما أصاب (عزت)؟ لكن الكلمات لم تخرج من حنجرتي إلا وأنا أسعل كما لو أن غبار العالم أجمع تحشرج برئتي، ليجيبني الطبيب بعد أن سكن صدري عن تلك الانتفاضات الحارقة:

- صديقك هو من بحالة خطرة، يحاول زملائي معه بالعناية المركزة، حيث كان أغلب انهيار المنجم على عاتقه.. ليس بمقدورنا على شيء غير الدعاء له بالصحة لا أكثر.

صمت هنيهة ثم أشار على صدره مردفًا:

- أما بالنسبة لذلك السعال فهو طبيعي، لقد استنشقت رئتاك الكثير من الأتربة وعوادم الحفر، مما أدّى لإجهادها.. ناهيك عن مداومتك للتدخين منذ البداية.

طغى الإحراج وجنتيّ كما لو أن أبي قد قبض عليّ متلبسًا بفعلي المشين هذا. لقد واظبت على أمر التدخين هذا كنوع من جلد الذات أو الحزن على فقدان والديّ -رحمهما الله-.

أخرج الطبيب دفتر الروشيتات معلق به قلم حبر أحمر، من جيب معطفه الطبي، وراح يخط عليها بعض الأحرف العجيبة التي لا يقدر أحدهم على فك طلاسمها إلا أطباء الصيدليات، مغمغمًا:

- هذه بعض الفيتامينات لما فقدته من دماءٍ، مصحوبة ببعض الأدوية لمداواة رئتيك المجهدتين، حاول الابتعاد عن الدخان الملوث قدر ما تستطيع مع الإكثار من المشروبات الباردة والفواكه.. ولا أحتاج

لتذكيرك بالامتناع عن التدخين بالطبع.

حاولت تنبيه الطبيب بين سعالي، لعدم مقدرتي على تحاشي الأدخنة باعتبارها مجال عملي بين الصخور والأنقاض، وعن استحالة اقتباسي لإجازة بتلك المدة بالأخص، بسبب تعييني الجديد بالعمل الذي يمكن محوه بكل سهولة من السجلات الحكومية، كما أنه لم يندرج بعد لمرحلة عامل متمرس بالمنجم لأظفر بإجازة إصابات العمل. حتى قال مستسلمًا وهو يخط على على روشيتته:

- لقد حذرتك، وكما يحلو لك التصرف، لكني سأوصي لك ببخاخة قوية للحالات الطارئة عندما تخذلك رئتاك عن إتمام وظيفتها.

ثم ظل يثرثر عن مقدرتي على مغادرة المشفى الآن إن أردت، وأهمية الراحة بالفترة القادمة لسرعة استعادة صحتي، وبالطبع الابتعاد عن أي ضغوط قد تسبب لي تلعثمًا في تنفسي، بينما ذهني شارد في أمرٍ آخر. هل بالفعل ستتكاسل رئتي عن زفر الهواء لخارجها وتكتنزه داخلها حتى اختناقي ؟ هل سيتآمر صدري على ذاتي مشتهيًا مماتي؟ كما لو أن الموت أقسم على عدم مفارقتي مهما حييت في شتى التجسدات.

(13)
أغلب الأحيان

منذ عدة سنوات

إحدى المناطق العشوائية ببرازيليا عاصمة البرازيل

الثالثة ظهرًا

دلفت الأم إلى طفلها في حجرته لتطمئن على سبب عدم خروجه خارج حجرته حتى ذلك الوقت المتأخِّر عن عادته. فكان الطفل يلعب بألعابه العادية في براءة تامة دون سبب يحث على القلق، لكن لمَ يفعل هذا؟ فالأم تحفظ عادات صغيرها عن الجميع، كما يشعر الطفل اضطراب مشاعر أمه عن سواه، وهذه ليست بعادته في اللعب، حيث في أغلب الأحيان يلعب بالكرة في الحديقة الصغيرة المجاورة للمنزل أو يأخذ ألعابه ليبعثرها أمام التلفاز وهو يتناول عصير البرتقال. لمَ إذًا يشذ عن عادته الآن وبتلك الليلة بالتحديد؟

تقدمت الأم لتجلس على الفراش بينما يفترش صغيرها الأرض متخيلًا حوارًا خياليًا وملاحم إغريقية دامية بين لعبتين من البلاستيك. لتقول الأم مقاطعة معمعة الحرب:

- ماذا هناك يا صغيري؟ لمَ لَم تخرج للهو أمام التلفاز أو إزعاج ابنة خالتك (لوسندرا)؟

توقف الصغير عن اللعب، ثم رمق أمه جيدًا، ليفعل أكثر شيءٍ لم تتوقعه هي. اقترب من جسدها برأسه ليشتمها كما تفعل الجراء، كما لو أنه يتأكد من ذاتها، ثم عاد لجلسته الطبيعية وهو يصرح مثنيًا بإعجاب عن مهارة والدته إزالتها للرائحة تمامًا.

توترت الأم قليلًا قبل أن ترد بسؤالها عن كنه تلك الرائحة التي يقصدها. هي تعلم مقصد الصبي، وهو يعلم أنها تعلم مقصده. لكنه جاراها في الحديث، مردفًا أنها رائحة الدماء وكم كانت كريهة بالنسبة لأنفه الرقيق. وارتسمت علامات الاشمئزاز على وجهه مؤكدًا على شعوره، بينما اندهشت هي أكثر لما غمغم به للتو.

يبدو أنه رآها بالجلسة أمس بطريقة ما. ربما تسلل من حجرته لقضاء حاجته، أو وصلت الرائحة النتنة لخياشيمه الحساسة، أو بلغ قرع الطبول الصاخب لأذنيه الصغيرتين فخرج لتبين الأمر. على أي حالٍ لقد رأى، لقد عرف ما حدث، لكن السؤال هنا هو إلى أي حد قد رصدت عيناه الفضوليتان؟

- ماذا رأيت غير الدماء يا صغيري؟

- لقد رأيتك مع خالتي وعدة أشخاص لا أعرفهم

وأنتم تتراقصون على الطبول في حماس وترتدون شيئًا شبيهًا بالجلابيب البيضاء في حديقة المنزل الصغيرة، اعتقدت أنكم تعدون حفل عيد ميلاد أحدهم،حتى أحضرتم عدة دجاجات لذبحهن وتلطيخ ملابسكم بدمائهن ثم بدأتم بالصراخ والتمايل في الرقصات أكثر وأكثر حول شعلة النار التي تتوسط الحديقة وتضيء المكان. فركضت لغرفتي لعدم تحملي للضوضاء أو رائحة الدماء.

قد لا يكون قد رأى كل شيء لكنه قد رأى الكثير على أي حال، فمن كان يتصور رد فعل صبي صغير في العاشرة من العمر، عندما يرى والدته وهي تقطم رأس قطٍّ حيٍّ بأسنانها لتفصل رأسه عن جسده الأسود المنتفض، وتنفجر الدماء بوجهها. من كان سيتخيل تأثير مشهد طلاء خالته جسدها بدماء تحفظها في قعر جمجمة آدمية، على روحه الهشة. قد لا يعي لنصف هذه الأفعال، لكنها ليست بالأشياء التي نراها كل يوم وتمر علينا مرور الكرام، يجب أن تترك أثرًا ولو بسيطًا.

فتحاملت الأم على دهشتها، وهي تسأل عن السبب وراء اكتنافه بحجرته كل تلك الفترة ليجيبها بأنه كان في انتظارها لتنظيف المكان تخلصًا من تلك الرائحة، فلا يريد أن يشتمها ثانية خاصة أنها تثير غثيانه في

كل مرة ترد على خاطره.

إنهم الأطفال بسذاجتهم البريئة المحببة، التي أجبرت الأم على الابتسام بعدما كاد القلق يحوِّل قلبها لرماد. لم يدرك أن ما رآه هو واحد من أعتى أنواع السحر، لم يعلم أن هذه كانت جلسة لسحر الفودو، لم يفهم أن أرواح الأجداد الهائمة كانت تغلِّف المكان بأنفاسها الباردة. وكل ما لاحظه هو تلك الرائحة..

أخرج الفتى أمه من شرودها وهو يقول:

- ما كان هذا يا أمي؟ لم أرَك أو خالتي تقدمان على تلك الأفعال من قبل سواء كانت الرقصات أو قتل الحيوانات.

لم يكن عليها أبدًا الاستماع لكلام أختها..

لقد قامت الشرطة باعتقال أحد تجار المخدرات في المنطقة القريبة من متجر الخياطة خاصتهما، لذلك كانت أعين الشرطة في تلك المنطقة يقظة على أتم استعداد لاعتقال أي شخص بأي تهمة فارغة، لتحصيل معلومات عن معاوني التاجر ومخزن بضاعته أو رواده على أقل تقدير. فكان رجال الشرطة متنكرين بالملابس الميدانية، لكنها استطاعت أن تميزهم، فمن في (برتاجورز) يملك كل تلك العضلات وكل ذلك القبح في آنٍ واحدٍ غير الشرطة؟ ناهيك عن غبائهم في مداراة

أسلحتهم بقمصانهم الخفيفة.

هكذا لن تستطيع الأختان القيام بعملهما السري في وجود كل تلك الأعين المتطفلة، فهما لا تقرآن الطالع أو تتواصلان مع الأرواح كالمشعوذات المبتدئات، بل تقومان بالسحر وليس بأي سحر، إنه سحر الفودو الشائك ذاته. تصادَفَ في نفس الوقت أن لديهم زبونة ثرية تحتاج لاستخدام السحر في الإنجاب من زوجها حتى لا يخونها أو يُقدِم على طلاقها. كانت ثرية بطريقة تجعل اللؤلؤ يتساقط من بين شفتيها كالزبد، لكن وقتها ضيق وستسافر بعد أقل من أسبوع من البرازيل تمًا.

ما العمل.. ما العمل؟ بالتأكيد لن تفوِّتا تلك الزبونة التي ستجعل أرصدتهما البنكية تتزايد حتى يصل الرقم بها لما يشابه رقم هاتفك المنزلي الآن، ناهيك عن أنها ستعود عليهما بالمال الذي يجعلهما تقبلان على إيقاف النشاط حتى تهدأ الشرطة وهما مرتاحتا البال. لتذهب الشرطة للجحيم. إنها فرصة لن تتكرر، فأنت لا تقابل الأثرياء السذجين كل يوم. التعويذة بسيطة ولن تلفت الانتباه، لكنهما لن تخاطرا على القيام بها وسط كل هؤلاء المخبرين المتربصين بالمكان.

حتى اقترحت الشقيقة على الأم القيام بالتعويذة

في فناء البناية التي تقطنان بها. إنها مخاطرة أن يفتضح أمرهما أمام الصغار والجيران، لكنها بالتأكيد أهوَنُ من أن يكشف أمرهما للشرطة. ومع إغراء المال وإلحاح الشقيقة وافقت الأم.. وكانت النتيجة كما خشيتها.

ليتها فحسب تنقذ ما يمكن إصلاحه قبل أن تصبح العواقب وخيمة. لكن كيف ترد على سؤال الصغير هذا؟ أي كذبة يمكن أن تبرر الرقص على الطبول بهذه الطريقة الإفريقية وتلطيخ الجسد بدماء الدجاج مع الصراخ؟ حمدًا لله أنه لم يرَ باقي المراسم.

يمكنها أن تراوغ الصبي ولا تجيبه، لكن مَنْ يضمن أن هذا لن يؤثر بروحه. يمكنها أن تدعي أنها حيلة لإنقاص الوزن مثلًا أو هي طريقة صلاة لطلب الله في مولود جديد، لكن الأطفال ثرثارة أكثر من المذياع ذاته. سيسأل ويكشف كذبتها لتحاول أن تفكر في كذبة أخرى بعدها، لتولج في حلقة غير متناهية من الكذب غير البارعة به.

يبدو أنه قد حان وقت الحقيقة.. الحقيقة قد تكون صادمة، لكنها تختصر الكثير من الجهد النفسي. الحقيقة نقمة، لكنها مريحة. فالفتى كبير كي يستوعب الأمر الآن، فمن تحمل رؤية الحيوانات وهي تُذبَح، ربما

يمكنه تحمُّل المزيد بعد.

مسحت الأم على شعرها الأسود المجعد وجبهتها خمرية اللون وهي تقول بعد صراع داخلي:

- أصغِ لي يا صغيري جيدًا.. هناك أشياء نرثها من آبائنا وأجدادنا بعد موتهم.

قاطعها الصبي متباهيًا بذكائه:

- مثل تلك البناية التي تقطنين بها مع خالتي التي ورثتماها من جدي.

ابتسمت الأم في رقه وهي تجيب:

- أجل يا بني كهذا، لكني ورثت عن جدتك شيئًا مختلفًا، ورثت وظيفتها المندرجة من أصلها.

ظل الفتي يحملق بأمه ببلاهة، حتى قالت الأم مفسرة:

- سأوضح لك الأمر؛ منذ زمن بعيد كانت عائلتنا تندرج من نسل أصيل من ساحرات الفودو.

- ما هو الفودو يا أمي؟

كيف ستوضح الأم إجابة السؤال؟ كيف ستصف له أن الفودو هو سحر اندماج الخير والشر مجتمعين؟ الفودو هو الطاقة التي تنسال بين أفراد عائلتها منذ عصر حرق الساحرات حتى يومنا هذا. فالفودو هو

التذلل للشيطان، رغم أنه قد يكون الطوع لحكمة الله في آنٍ واحدٍ. الفودو هو شيء روحاني يسري بين سلالات محدودة من البشر وبشروط خاصة. الفودو هو السلاح ذو الحدين الذي يغوى الجميع بالانغماس في الحد الخاطئ.

فردّت الأمر بعد محاولتها في انتقاء كلماتها بأنه مجرد نوع من السحر الحقيقي البعيد كل البعد عن حركات الخفة أو الحيل التي تعرض ببعض البرامج التلفزيونية تحت مسمى السحر.

ابتسم الصبي وهو يجيب:

- كالذي يستخدمه (دكتور فيت- dr fate)؟

من جديد براءة الأطفال تطغي على المشهد لتخرج الأم من جدية الموقف مبتسمة. فالأطفال دائمًا –بمخيلتهم الخصبة- يشبّهون أيّ شيءٍ بالرسوم المتحركة أو المجلات المصورة. فها هو الآن يشبه كلامها الذي يبدو مخيفًا لشخص بالغ بإحدى المجلات المصورة.

فأكدت الأم على هذا التشبيه ولكن بقوة محدودة بعض الشيء. فردّ الصبي بحماس:

- هذا رائع.. ماذا تستطيعين فعله؟

- أشياء بسيطة أغلبيتها طبية مثل تحسين الأعضاء

التالفة بالجسد وشفاء الأمراض أو روحانية كـ...

لم تُرِد إعلامه أن بإمكانها التواصل مع الموتى، فلهذا تأثيرٌ مفزِعٌ غيرُ مَعلومٍ مستقره على روحه، ويكفينا زعزعة لسكونه بهذا الحد؛ فعادت لتغمغم كالتواصل مع الحيوانات. فأجاب الفتى بخيبة أمل بعد أن بهت حماسة:

- هكذا فحسب؟

- كان أجدادي يمكنهم فعل هذا وأكثر، لكن الآن مع تقدُّم السلالات بنا، أضحى هذا كل ما في وسعنا من حيل.

- ماذا كان بإمكانهم الفعل قديمًا؟

هذا الطفل إما بريءٌ زيادة عن المعدل الطبيعي إما فضوليٌ بطريقة مفرطة. هي أيضًا لن تخبره أن أجدادها كانوا يستطيعون قتل العشرات من الأفراد دون الخروج من منازلهم حتى، أو تُطلِعه على مقدرتهم على إحياء الأموات أو تُعلِمه أنهم يستطيعون التلاعب بالحظ أو كشف الأسرار وقراءة الأفكار.

هذا مخيفٌ جدًا عليه، هذا كثير جدًا على عقله الواهن، ستخبرة الحقيقة كاملة لكن حينما يكبر أكثر، فحمدًا لله أنه صبيٌ استطاع التماسك مع رؤية الحيوانات وهي تُقتَل، وليست فتاة هشة تملأ الدنيا

صراخًا قبل أن تفقد وعيها.

- كانوا يستطيعون الطفو في الهواء.

هكذا جارته بالحديث، فعاد الحماس للصبي صياحًا على روعة الأمر.. مستعلمًا عن الوقت الذي ستعلمه الفوفو بدوره؟.. ضحكت الأم برِقَّةٍ وهي ترفع ابنها ليجلس على فخذها قائلًا:

- الفودو إرثٌ عائلي بالطبع، لكنه ليس للجميع.

- ولِمَ هذا؟

- لا تمارس الفودو إلا النساء أو الرجال الذين يتخطون الستين عامًا.

- ما كل هذا التعقيد؟

قالها وهو يقطب حاجبيه، لتبتسم الأم مردفة، أن الفودو لا يمارسه إلا النساء السمروات أمثالها، وأنه ذو بشرة بيضاء كأبيه، فحتى لو كان فتاة فلن يستطيع ممارسته. فراح الصبي يتأمل كأول مرة في حياته الفرق بين بشرتيهما، حيث كان الصبي ذا بشرة متوسطة اللون ليست بالسمراء أو البيضاء. في حين كانت الأم ذات بشرة خمرية سمراء قليلًا تزيد من جمالها ورونق تقاسيم وجهها.

نهض الفتى عن حجر أمه ليعود لألعابة قائلًا:

- لا يهم.. لم أعد متحمسًا للفودو هذا، فالرائحة كانت

شنيعة على أي حالٍ بالأمس بما لن أستطيع تحمله.

ضحكت الأم من جديدٍ على تناسيه الأمر برمّته واهتمامه باستكمال معركته بين ألعابه بعد تلك الهدنة الاضطرارية.

نهضت وهي على وعدٍ تقطعه بأساريرها أنها لن تقوم بأي أعمال سحرٍ بالبيت من جديد ولو كان سيعود عليها برئاسة البرازيل ذاتها. فالله الغني عن كل تلك المتاعب.

نظرت لصغيرها نظرة أخيرة وهو منشغل بألعابه، فنطق لسانها بتلقائية عبارة (أحبك يا آدم)، ليرد هو بصوت مفتعل غليظ يتصنعه لإحدى الدمى معبرًا عن عشقه لها بدوره. ليضحك الاثنان في ود أسري ساحر.

***

لهذا (آدم) شعر بتلك الألفة العجيبة مع المكان رغم أنها زيارتها الأولى له، بجانب غرابته الشديدة، فالقصر شبيه بالغرفة السرية بمتجر أمه التي كانت تؤدي فيه طقوس سحر الفودو.

كل مهنة بالكون لها منافسوها الذين يزيدون من نسبة خطورتها، وهذه النظرية ليست بعيدة عن عالم السحرة والمشعوذين. فكما هناك الخير والشر، هناك الفودو الأبيض والفودو الأسود. فالفودو الأبيض هو

السحر النقي الذي يستخدم للأغراض النبيلة كالعلاج الصحي؛ فهو السحر الذي لا يعود بخطورة على مستخدمه أو ضريبة. أما الفودو الأسود هو كل ما يتعلق بإيذاء الآخرين وإحالة حياتهم لجحيم. كانوا يقتلون، يسرقون، يعبثون في الطبيعة وقوانينها من الطقس والحياة والموت. ينهبون بجشعٍ بلا ارتواء من أموال الغير. وهنا تأتي الحسنة الوحيدة بعد كل هذا العبث الشيطاني.. كانوا يموتون سريعًا!

تذكر تحذيرات والدته الدائمة عن الفودو الأسود وشعوذته. فهو نوعٌ خَالِصٌ من التعبُّد للشيطان الذي يمتص أرواحهم ليموتوا سريعًا ليلهوا بهم في الجحيم حسب أهوائه. أحيانًا يمكنهم إتمام صفقات مع الشيطان ذاته لإطالة حياتهم أو إيصالهم لمرحلة الخلود الأبدي، لكن لهذا عواقبه البغيضة والتي تبدأ بضريبة (قتل كل من تحب)، وهذا لا يعتبر إلا فتح شهية، فلا يزال القادم ألعن وأشد كَرْبًا من الأضحيات البشرية المنتقاة بعناية إبليسية.

حتى استطاعت إحدى الساحرات القدوم بالفودو الأبيض، القيام بتعويذة خاصة تابعة لكبار لحكماء معاقد السحر القدماء، تؤهلها للقيام بأعمال الفودو الأسود الخبيثة في حين يكون الضرر على جسدها

الفاني سريع المفعول. فهذه النوعية من التعاويذ محرَّمة على ساحرات الفودو الأبيض لخطوتها، ولأن إقدامها عليها يعتبر تسليمًا رسميًا ببيع روحها للشيطان، ناهيك عن أن الساحرة القائمة على تلك التعويذة، ستودَع للجحيم بالطبع مهما كان مبتغاها نبيلًا أو صالحًا. لكنها على الأقل ستوقف سفك الدماء هذا.

حين توغل (آدم) بعالم السحر هذا، دائمًا ما كان يستمع عن كراهية ساحرات الفودو الأسود العظيمة للأخريات ويقتلهن بسحرهن الشيطاني الذي يفوق الأبيض بمراحل قصوى. فكانت المجازر الدموية تفوق التصور، حيث أمست ساحرات الفودو الأبيض ينفجرن كما لو أن بداخلهن قنبلة موقوتة، أو يفاجأن بأن الطعام الذي تناولنه مليء بالحشرات الصغيرة التي تنهش في الأحشاء بلا رحمة، أو يتحلل جسدهن كما لو أنه قد انغمس في حامض حارق المفعول. وكانت تعويذات الحماية والتخفي لا تجدي بنفعها أمام السّحر الأسود بجبروته. فأضحت تلك المجازر تحدث يوميًا حتى قررت ساحرات الفودو الأبيض الاختباء في الأزقة أو الهرب من المدينة بأكملها لتبطش بها الأخريات كما يشتهين. وكتب عليهن التشرد والعمل بالخفاء للأبد.

لكن تلك الساحرة لم تتحمل رؤية أقربائها يُقتَلون

حولها، وبالأخص مقتل أمها وأختها على مشارف عينيها، التي تعتبر تلك القشة الأخيرة التي إما أن تحثها على الانتحار بدورها أو تدفعها لمقاومة ساحرات الفودو الأسود أجمعين بمفردها. فلا أحد يستطيع أن يرى والدته الحبيبة وأسنانها تتساقط على حين غرة وتموت بنزيف داخلي قام بسد قصبتها الهوائية عن التنفس، حتى تتفارق الحياة غارقة في دمائها بالمعنى الحرفي للكلمة كما فعلت هي. كما أنه لا يوجد من لديه القدرة على تحمُّل الحياة بعد رؤيته لأخته الصغيرة وهي تحك معدتها بأظفارها صارخة من الألم الممتزج بالفزع وهي ترى شيئًا يتحرك أسفل جلدها، فأحضرت السكين لتشق معدتها، ليبرز من داخلها فأرٌ ضخمٌ يخرج للنور بعد محاولته للتحرر من سجنه بعد أن نهش به ما تعينه أسنانه عليه.

دائمًا ما كانت تسرد إلى (آدم) الحكايات على ألسنة كلٍّ من أمه أو خالته عن تلك التعويذة التي قامت بها تلك الساحرة لتقلب موازين اللعب تمامًا على كلا الطرفين. لا أحد يعلم كيف نجت البرازيل وقتها بعدما هبَّ بها ذلك الزلزال المروِّع الذي شعرت به أمريكا الجنوبية بأسرها.

كانت ساحرة واحدة في مقابل جيش من مشعوذي

السحر الأسود، لكنها كانت لهم بالمرصاد، لتنتهي الحرب بانتصار الساحرة السامية–كما أسموها فيما بعد- وحدها دون عونٍ.

فدعت الساحرة السامية من تبقّى من ساحرات الفودو الأسود للقيام بمعاهدة سلام وطلسمن العقد بينهن بتعويذة محصّنة يستحيل كسرها حتى آخر الزمان. بأنه إذا أقدم أي ساحر/ة على قتل ساحر/ة آخر من الفريق المقابل، ليحرق الفاعل على الفور ذاتيًا، بنهج (burn the witch) الشهير. وقد نخرج من هنا بنظرية الاحتراق الذاتي للبشر لكن هذا ليس بموضوعنا.

مع الأسف بعد الحرب الضارية بين الساحرة السامية والأخريات، فقد استغلت أكثر من أغلب طاقتها بالحرب، ولم تنتبه لتلك الثغرات بالعقد.

حيث كان العقد:

1. ينص على القتل فحسب، لا الإيذاء حتى الموت أو إفقاد الوعي أو الإصابة بالخبال.
2. يقتصر على السحرة فحسب لا الأبناء الذكور الذين لا يجيدون السحر ولا ينتمون لعبثه.

ولكنها لم تملك الوقت لتعديل ثغرات العقد، حيث أتاها الموت بعد توثيقه بأقل من أسبوع عقب تلف

كافة أجهزتها الحيوية، لتحرق روحها بالجحيم بعد أن ضحّت بها لأسرتها وكل أخواتها من ساحرات الفودو الأبيض.

كان هناك بعض المناوشات الطفولية بين الفريقين، لبضعة أشهر حتى توفوا تمامًا، فرغبة ساحرات الفودو الأسود على الانتقام لما أقدمت عليه الساحرة السامية من دمار عليهن، كانت تدفعهن لقتل الأخريات لا إيذائهن فحسب بدافع من الحقد يحركهن، فكن يحترقن هن الأخريات بنفس الثانية.

ولكن دوام الحال من المحال، فلن تستطع ساحرات الفودو الأبيض ضمانَ عدم عودة غريماتهن لنفس الأفعال الانتقامية المتهورة أو استغلال الثغرات.. لن يضحى للثقة مستوطن بينهن.

فكما وجب عليهن تعلُم كافة أنواع تعاويذ الحماية والشفاء لمواجهة الخطر القائم، ألزمت الأم تحصين ابنها (آدم)، لتضمن حمايته من بطش الأخريات، فصانته بتعاويذ الحماية حارصة على تعليمه كافة أسرار الفودو حتى يدرك كيف يتجنبه ويميز نوعه أو يبطله.

هنا اقتحم (أسامة) الحجرة ليبادره (آدم) الكلام بعدما أخرجه من شروده قائلًا:

- جيد أنك أتيت يا (أسامة)، فنحن نحتاج لنقاش طـــويـل.

قالها وهو يضرب بساقه اليسرى أرضًا، ليتأكد من وجود سكينه الفضي الصغير في موضعه على أهبة الاستعداد لتشرب بعض الدماء.

(14)
ابقَ معي

4/12/2015
أحد مناجم الوادي الوادي الجديد

- لماذا لم تأتِ أيها الوغد؟

قالها (صبري)، في نوع من العتاب الودي، لأرد بدوري:

- اعذرني يا صديقي..فلدي نوع من الخوف الفطري من تلك الأماكن، لكني سأزور أسرة (عزت) لأعزيهم مرة أخرى كنوع من تكفير الذنب.

- تذكر أنها ليست المرة الأولى.

شردت عيني تأملًا في كلمته الأخيرة. فمنذ أن التحقت بهذا العمل، وهناك الكثير من العمال يتوفون بطرق عجيبة. من تصدمه سيارة –رغم قلتهم بالأرجاء- أو من يسقط في إحدى البالوعات مهملة الغلق، انتهاءً بالمسكين (عزت) الذي انهار تشبثه بالدنيا رغم محاولات الأطباء، أمام انهيار المنجم الشنيع. ثلاث حوادث أليمة حدثت لأصدقائي الذين لم أتهنأ بهم لفترة أطول، كما لو أنه مُقدّر على حياتي الوحدة،

سواء بنفور الناس منّي أو موتهم من حولي. لكني سرعان ما أزحت هذه الأفكار المتشائمة عن رأسي. لقد توفى ثلاثتهم بالقرب من محيط منزلهم ليلًا، وهذا ليس له علاقة بالعمل -مكان تجمعي معهم- أو أني نذير شؤم لا سمح الله.

أما بشأن هذا العتاب، فأنا لم أحضر دفنة أيٍّ منهم واكتفيت بالعزاء. فأذكر زيارتي الأخيرة للمقابر وبصمتها غير المحببة على روحي!

قاطع شرودي أحد أصدقائي وهو يلقي بفأسه العملاق أمامنا، وهو يمسح الغبار عن جبهته بكم قميصة الأكثر تتربًا، قائلًا بتذمُّر:

- تبًا للعمل الذي لا ينتهي بهذا اليوم.

كانت الساعة قد قاربت الخامسة وهو موعد انتهاء العمل الرسمي! فلمَ كل هذا السخط على الحياة ما دامت مشقتها قد قاربت على الانتهاء؟

فأجابه (صبري):

- ما دمت لن تأتي غدًا فاعمل ضعف اليوم كالأغلبية بلا تأفف يا صديقي.

لن يأتي للعمل غدًا الأغلبية! كررت تلك الكلمات بذهني جاهلًا مقصدها. أكره أن أمسى الأحمق وسط الحوار، فقاطعت حديثهم مستفسرًا عن معنى تلك

الكلمات الأخيرة ليستند صديقي بالعمل هذا بكفه على كتفي وهو يقول بسخرية:

- نعم..تذكرت الآن أنك حديث العهد بالمدينة.. مرحبًا بك في عالمنا.

ليرحل تاركًا إياي أغرق في ذهول حيرتي، مطالبًا للعمل لفترة إضافية اليوم مع التغاضي عن عمل الغد، حتى لا يخصم له بالمرتب من قِبَل مديرنا الثمين.

فالتفت لي (صبري) سائلًا:

- ألم تسمع عن لعنة يوم الخامس من ديسمبر؟

حرَّكت رأسي علامة النفي وعلى وجهي علامات الفضول ليطلعني عليها، ليجيب مفسرًا:

- هذا اليوم هو ذكرى وفاة (أبا الحسني).

- أبا ماذا؟

- (أبا الحسني) هذا هو صاحب تلك المناجم قبل أن تؤول للحكومة.

سرحت بخيالي قليلًا ثم سألت بعد فقدان الأمل في مخيلتي الضحلة:

- وما المعضلة في ذكرى وفاته؟

- هذه الذكرى كالمصيبة، لا تأتي أبدًا فرادى.

كانت على وجهي علامات الغباء واضحةً كوضوح

الليل الذي بدأ يخيم بظلمته الباردة علينا. ليستكمل هو:

- سأقص عليك ما أعنيه.

***

في نفس المكان مع اختلاف الزمان.

لفت أحد العمال أنظار الجميع إليه وهو يصيح (الطّرق.. الطّرق.. لا أسمع غيره).

كان (خليل) شابًا أرعن، كثير السخرية وقليل الاحترام للآخرين، عاق الوالدين لا يستمع لمشورة أحدهم مهما كان كبيرًا مكانةً أو سنًا. امتنع عن الولوج للثانوية العامة للعمل وكسب ماله الخاص -رغم رفض والديه قبل أن يهجرهما- لتدخين الحشيش أو تأجير فتيات الهوى أو أي فاحشة لا تزيده إلا فجورًا وإغضابًا لربه.

كان الفتى عتيًا يماثل في صحته خمسة من هؤلاء الكهول –بنظره- المنتشرين بالمنجم مدعين القوى. فلم يتخلص منه مدير العمل مهما كثرت الشكاوى ضده ليمليهم دومًا برده المعهود (هل ستقوم بعمله إن قمت بتسريحه؟ لا! إذًا عُد لعملك وحاول الاجتهاد به.)

و كانت حصيلة المقالب منه أكثر من عدد شعيراته كما يقال بالأمثلة الشعبية.. النجدة، هناك ثعبان لدغني.

النجدة، أكاد أسقط في البئر. النجدة، يكاد المنجم يسقط على رؤسنا. النجدة، هناك ضبع يقترب، والكثير الكثير من هذه الإهانات من سنهم ووقارهم وهم يركضون أو يصرخون من إثر كلماته قبل اكتشافهم لحقيقة الخدعة.

وهل تظن أنهم سيصدقون عندما يقول إنه يسمع طَرقًا بأذنه؟ لتصَمّ أذنه أو يذهب بها للجحيم، فلن يصغي أحدٌ لهذا السخف. كانت على تقاسيمه علامات الألم والخوف! لقد أجاد الفتى التمثيل يومًا بعد يوم، فلا داعي للاهتمام. الفتى يقترب من أحد الأنفاق! لقد طالت الدعابة عن كل مرة. لقد سقط الفتى في النفق ليصحبه صوت الارتطام المحطّم للعظام! لقد تخطت المزحة الحد هذه المرة، إن كانت مزحة من الأساس.

تجمع العمال حول النفق وهم يبصرون اللون الأحمر الدامي المميّز وهو يسري حول جسد الفتى من كل صوبٍ بهدوء الموت ذاته، كما لو أنه تحرّر أخيرًا من محبسه النجس.. هذه لم تكن مزحةً.. أبدًا لم تكن.

***

لم يكن (محب) اسمه فحسب، بل كان صفته على وجه الأخص، محبوب ورفيق ومساند للجميع، كريم ومعطاءً مع كافة الناس دون تفريق، طيب القلب يفعل

الخير دون انتظار لرد المعروف أو تعداد الجمائل، لم تجد أبدًا من يكرهه أو يتمنى له السوء أو يكن له ضغينة، دائمًا لطلته تلك الروح البهجة والنفس المستحبة.

أتى ذلك اليوم للعمل كاشفًا عن ابتسامته الودية كعادته، ليراه صديقه (محفوظ) ملوِّحًا له بنفس الابتسامة، فيتقدّم (محب) نحو زميله بالعمل الذي سبقه للمناجم بدوره منذ ثوانٍ، يسند (محب) فأسه على كتفه بنحوٍ طبيعيٍّ، بينما يسقط فأس (محفوظ) من قبضته الهزيله بغتةً، فينحني لالتقاط هذه الأداة التي أضحَت ثقيلة على كهولته، يرتفع برأسه ليجد فأس (محب) وهو يغرس بكل قوة بجمجمته الواهنة، سامحة لخيوط الدم الرفيعة بالانبثاق من الشقوق الضيقة بين جمجمته والفأس. فترك (محب) فأسه العالق بجمجمة (محفوظ) ليلتقط فأس هذا الأخير النظيف، ثم انطلق به يضرب ويقتل أول من تسقط عليه عينه. والابتسامة لا تزال تزين ثغره في مودة، قبل أن تتحول لابتسامة شيطانية مريرة بعيونهم.

تحاشد الرجال حوله ليقيدوه محاولين إفلات سلاحه من قبضته بعد أن سقط الكثير مصابًا أو صريعًا. باتوا يوجهون له عبارات العتاب والتوعد

بالانتقام لأول مرة في حياته، لم يتخيلوا أبدًا أن صديقهم الودود يخرج منه هذا الشيطان الرجيم بهذا الفعل الجهنمي، لا بد أنه قد فقد عقله إن لم يكن قد مسه الجان.

عزم الرجال على تسليمه للشرطة ثم بعدها ينهبون ما ابتغوا من الدنيا من وقتٍ للتفكير بما شوَّه حاله هكذا. لم يتقدموا بضع خطوات إلا وقد انسال (محب) من بين قبضات الرجال القوية المكبلة له ليعود لسلاحه من جديد، فتراجع العمال للخلف خائفين من انفعالاته غير المتوقعة أو المبرَّرة.

رفع (محب) الفأس بالهواء وسط ذهول الآخرين، ليهوي به على ضحيته الأخيرة.. التي كانت ذاته.

اندس الفأس ممزقًا جلد رأسه، مهشمًا عظام جمجمته، متلفًا خلايا عقله، منهيًا حياته بأسوأ ما يمكن الإقدام عليه قبل إختامها. حياته كانت أكثر من صالحة وأجَلّ من سالمة وها قد ختمها بالطمي والدماء، ختمها بالصراخ والألم.. ختمها بالموت المعمم.

***

أنهى (صبري) سردَه المفصَّل للأحداث مع آخر رشفة من كوب الشاي الخاص به مع عبارة:

- والكثير الكثير من تلك الحوادث على مَر السنين

بنفس يوم الخامس من ديسمبر، حتى اتعظ العمال أن ذلك اليوم شؤم ويكون للموت تأثيره الواضح به، والتغيب عن هذا اليوم بات إجباريًا على الجميع.

ظل يتأمل بواقي حبات الشاي المترسبة في قعر كوبه المسقر فوق منضدة المقهى الصغيرة وهو يتمتم:

- لو كنا نعمل بأحد المشاريع الخاصة لضغطنا على ولي الأمر بأخذ اليوم إجازة رسمية. لكننا نعمل لدى الحكومة وصرامتها اللامبالية بموت العمال أجمعين بهذا المكان.

ذكرتني حكاياته تلك بأساطير النداهة الريفية، لم أكن أعلم أن بمصر أساطير (أبا الحسني). الصحراوية كذلك، ابتسمت ساخرًا متمنيًا ألا تُعثّرني الأقدار بأساطير الحوريات البحرية أو لعنة فرعونية بمكان قريب-إن وجدوا-.

ضربت بيدي على جيبي بنطالي، محاولًا استمالة موضع علبة سجائري والقداحة، لكني لم أتعثر بأيٍّ منهما، فرحت أخبط على كافة جيوب ملابسي كراكبي الحافلات قبل اكتشافهم لما نُشِلَ من بين ثنايا ملابسهم. حتى استوقفني ذلك الجسد البلاستيكي المتشكل على هيئة حرف (L). متذكرًا أنها بخاخة التنفس خاصتي التي رحت أستبدلها بلفافات التبغ

المهدرة لأموالي. فرغم أنني لم أستهلك من إجازتي غير يوم واحد للتعافي من أثر الحادث، لكن حالتي الصحية بأتم عافيتها، ناهيك أنه لم تعترِني أيٌّ من حالات ضيق التنفس التي حذرني الطبيب منها، رغم استمرار تعاملي مع صخور المناجم كأن شيئًا لم يكن. لكن الحرص واجب على أي حال.. فآخر ما أتمناه هو الموت مختنقًا، نادمًا على إهمالي في الإعداد لهذا الموقف الشنيع.

ابتسمت لـ (صبري)، محاولًا مداراة غفلتي، وأنا أقول عائدًا لمحل حوارنا الرئيسي، أن كل ما حكاه جميل وخلاب، ولكن أين الرابط بين كل تلك الحوادث بخلاف اليوم؟.. فظللت أعد على أصابعي مكملًا:

- (خليل) هذا كان مازحًا على حسب كلامك ولا بُدَّ أنه تمادى بمزحته حتى إنه لم يلحظ تعثره بالنفق.. (حبيب) ربما كان يعاني من انفصام بالشخصية قد يصاب به أيُّ أحدٍ خاصة لو كان الشخص طيبًا بشكل مريب كما وصفت.

عقب (صبري) بعد أن أشعل لنفسه لفافة تبغ لتسرع الوقت:

- اسمه (محب) وليس (حبيب)، ثم ما أدراك أنت عن الانفصام، أحصلت على شهادة بالطب النفسي دون

علمنا؟

بالتأكيد لم أخبر أحدًا عن مرضي السابق بهذه المنطقة، فأنا في غنى تام عن حالة جديدة من التحاشي ونظرات الحذر، وعندما كانوا يسألونني عن سبب ولوجي للوادي الجديد كنت أدعي أني قادم للبحث عن عمل وهذا على نقيض الواقع تمامًا، باعتبارها محافظة فقيرة بخلاف القاهرة.. لكنها كانت الإجابة الأكثر إقناعًا.

قطع (صبري) شرودي قائلًا وهو ينفث دخان سجائره من أنفه:

- ثم إن ما سردته لك لم تكن سوى قصص قلائل، فهناك الكثير والكثير عن وقائع ذكرى (أبا الحسني) سأرويها لك هي الأخـــ...

قاطعته سائلًا إن حضر بذاته أيًا من تلك الوقائع؟.. انشغل بتدخينه لسجارته مداريًا حرجه لكنه قد جهر في صوته المتردد قائلًا:

- في الواقع لا.. أنا أعمل بالمناجم منذ خمس سنوات ولم أشهد أيّ وقائع بهذا اليوم تحديدًا أو أسمع أنها حدثت في غيابي.

- إذًا فلا غريب بهذا اليوم.

- لا يا صديقي. لا وقائع؛ لأنه لا توجد عمالة بالمناجم

بهذا اليوم فالكل يتغيب بلا استثناء، لكني أتوقع أنه ستكون هناك ضحايا بالغد.

سألت متعجبًا عن سبب تلك الثقة المفرطة، ليجيبني بكل جدية كما لو أنه يتحدث عن مؤامرة دولية:

- حالات موت أصدقائنا تلك أدت لتغيُّب الكثير من العمال لأمور الدفنة والجنازة، مما أدى إلى قلة أرصدتهم من الإجازة عند الحكومة.

و كما ترى نحن بالرابع من الشهر وقد تغيَّب أغلبنا الثلاثة أيام الأولى منه، منشغلين في أمر وفاة عزت والسفر للمنوفية لدفنه مع أسرته هناك. والغياب التالي سيعود علينا إما بالخصم من المرتب أو التحقيق، وأغلبية العمال في غنى عن الاثنين. فالشهور المنصرفة كثرت بها حالات التغيُّب عن العمل بسبب الموتى كذلك ولن تسمح لنا الحكومة بالمزيد أو التماس الأعذار.. لذلك سيعمل من يقدر منهم بالفترة المسائية لتعويض يوم غد أما الباقي فسيأتون بالغد أملاً من الله أن يبقى الوضع مستقرًا كالسنين الماضية.

كان ينقص أن يذيِّل الحوار بعبارة (مع استثنائي بالطبع)، فتلك الواسطة التي يملكها (صبري) باعتباره نسيب أحد مديري المناجم، تكفله بالأهلية ليمتنع عن الولوج للعمل دون اعتراض أحدهم لطريقه رغم إتمامه

لأيام الإجازة كغيره، ناهيك بالطبع عن عدم إلزامه بهذا العمل الإضافي.

صمت كلانا، ليسمح لي بالتفكير في كلماته بتعمُّق أكثر. إنها منطقية لحد كبير لكن لا يزال ينقصها بعض التفاصيل، فقاطع (صبري) شرودي للمرة الثانية وهو يدهس عُقب سجارته أسفل حذائه البالي من إنهاك العمل، سائلًا عن عدم تصديقي للأمر بعد، لأجيبه أن الأمر وما فيه، أن الحوادث ليس لها علاقة بغيرها وهذا ما يحول الفكرة عن الولوج برأسي.

ابتسم (صبري) حتى قارب على الضحك بصوت عال، فأشار بسبابته خلفي مردفًا إن الحياة بعيدة كل البعد عن تلفاز المقهى العارض طوال الوقت للأفلام الأجنبية المبتذلة، الواقع يكون به الموت أسرع وأخف مما تظن.. ودائمًا ما تلاحظ بصمته البشعة بعد فوات الأوان.

نهض (صبري) من مجلسه معلنًا انتهاء جلستنا التي طالت بالحوار المشدود أطرافه، ليقول ختامًا:

- أعلم أن هذا السؤال يجول بخاطرك. لذلك سأريحك بالإجابة عليه.

(أبا الحسني) لم يرَه أحد قط ولم يعاشر أيامه شخص، إنما كل ما تبقى من الرجل هو اسمه وسمعته،

وذكرى وفاته، بجانب بعض المعلومات الطفيفة عنه، كثرائه وأملاكه المتعددة التي تحولت معظمها للقطاع العام بعد وفاته.. شخصيًا، لا أعلم متى أو كيف بدأت الأقاويل عن الرجل، لكني أصدقها ولن أبحث بأصلها، قد تجد من يعرف عنه المزيد مع البحث، لكني لا أعتقدك متفرغًا لهذه الدرجة.. إلى اللقاء يا (حسام).. أراك بعد غد.

وانصرف كلانا بعد توديعٍ حارٍ، وأنا أردِّد كلماته بذهني كشريط الفيديو. أنا بالفعل لست متفرغًا للبحث وراء هذا السخف، لكن على الأقل سأثبت ادعاءه.. وسأذهب غدًا للعمل.

(15)

على مشارف الجنون

12/2/2005

الأقصر

السابعة ونصف مساءً

- بكل بساطة يا صديقي القديم، والدتك ساحرة فودو.

قالها (آدم) بسعة الدنيا أجمع كما لو أنه يخبره بأن طعام والدته رديء المزاق. في الواقع لو كان طعام والدته هكذا حقًا، لكان قد اتخذ بعض التعبيرات المتوترة على وجهه من الإحراج على أقل تقدير، لكنه أخرج الخبر من بين شفتيه بهدوء عجيب.

فرد (أسامة) وعلى فمه شبح ابتسامة ساخرة:

- حقًا..حسنًا هنيئًا لها.

- أنا لا أمزح أيها الأحمق، والدتك ساحرة بالفعل

جلس (أسامة) على أحد كراسي الحجرة وهو يردف في تململ محاولًا إنهاء هذا الحوار، إن المزحة تصبح رديئة عند تكرارها.. ثم إنه ليس كافة النساء الطاعنات بالعمر ذوات الشعر الأبيض ساحرات، كما أنه ليس

جميع الرجال المشعرين مذنوبين.

ظل (آدم) يتحرك بالحجرة في حركة متوترة وهو يقول:

- كل شيء بالمنزل له علاقة بسحر الفودو، ابتداءً من الحيوانات المحنطة، مرورًا بالجماجم، انتهاءً بتلك النجمات المنقوشة بداخل كل مزهرية بالقصر.. هذا النقش يعطي للمزهرية صلابة المعدن للحفاظ على غرضها، وغرضها الأصلي هو للحماية.

- حماية من ما؟

- لا أعلم، لكن الهدف من هذا النقش هو تكوين هالة بالمكان المتواجد به لمنع الأرواح من اقتحامه، والذي تستخدمه الساحرات للتخلص من المراقبين أو الحاضرين مما هو غير بشري أو ما يُعرَف بعمار المكان، أثناء جلسات السحر الخطرة.

هز (أسامة) رأسه نادمًا على انجرافه بهذا السخف، ثم قال بحدة واقفًا من مقعده:

- هل يمكنك التوقف عن هذا السخف والتحدث بعقلانية قليلًا.. لا أستوعب كيف يمكنك القول على والدتي الأمية كل هذه الادعاءات؟ والدتي التي لا تعرف في الكتابة إلا القليل، تدّعي أنها تجيد السحر، كيف تعلمَته بحق الجحيم من الأساس؟

قالها (أسامة) بسخرية، ليرد (آدم) سريعًا كمن حضر لهذه الإجابة من البداية بعدما توقف عن الحركة:

- الخادمة.

- ماذا؟

- لقد رأيت بإحدى الصور العائلية، والدتك في صباها مرتدية فستانًا فضفاضًا مع خادمة أفريقية. ما لفت انتباهي هو ذلك السوار الفضي الذي كانت ترتديه الخادمة حول معصمها الأيسر. إن هذا السوار مثبَّت عليه مختلف الشعارات التي ترمز للفودو، كأسنان الماعز وعظام الرضع الصغيرة، بجانب قدم الأرنب المطلسمة. ناهيك بالطبع عن بشرة الخادمة السمراء التي توحي بتمكُّنها للفودو.

سأل (أسامة) بتعجُّب عن دخل لون بشرتها بالأمر؟ ثم أن أغلبية الخدم كانوا سمر البشرة في تلك الحقبة الزمنية!.. كان محقًّا لدرجة أنك لا تستطيع التمييز بين الخدم في تلك الفترة؛ فكلهم متشابهون شكلًا ولهجةً، حتى الملابس كانت واحدة. حيث كل الذكور حاملون لاسم (عثمان) أو (إدريس)، أما جميع النساء حاملات للقب أم (عثمان) أو أم (إدريس).

فأجاب (آدم) بدوره:

- الفودو لا يمارسه إلا ذوو البشرة السمراء، وهنا

أختص الذَّكر السحرة الحقيقين بعيدًا عن الأفّاقين والكاذبين ذوي البشرة البيضاء. وقد تكون محقًا أن أغلب الخدم ذوو بشرة سمراء في تلك الأيام، لكني لم أسمع عن خادمة يتم تصويرها مع سيدتها في الصور العائلية. وإذا بحثت في أمر تلك الصورة ستجد أن والدتك بنفسها مَنْ أمرَت بتعليقها هنا كنوع من التكريم أو المحبة لها.

عاود (أسامة) ينقد في منطق (آدم) مردفًا:

- أبهذه البساطة تستطيع الخادمة تعليم والدتي السحر، كما لو أنها تعلمها لعب الشطرنج أو إحدى حيل الطهي.

- بالتأكيد الأمر ليس بهذه السذاجة، فسحر الفودة ينتقل عبر نسول العائلات كالأمراض المزمنة، ولا يستطيع أي فردٍ من خارج تلك الأعراق المميزة إتمام ولو تعويذة واحدة حتى لو أقدم على كافة طقوسها بطريقة سليمة دون عثرات.. لهذا قد تكون الخادمة وسمتها بوشم (النجمة المشتعلة) وهي التي تسمح للآخرين باستخدام سحر الفودو لكن في نطاق تعويذات محدودة للغاية كالحماية أو التتبع، ناهيك بالطبع عن القتل إن كان الفودو خاصتنا من النوع المظلم.

هز (أسامة) رأسه من جديد نافضًا تلك الأفكار عن رأسه:

- أنت تثبت تهمتك بأمي من كل اتجاه.. ثم ما أدراك بكل هذا؟ ولا تقُل إنه بفضل عملك بالصحافة من جديد.

ابتسم (آدم) مردفًا أنه قد عاش في منزلٍ يعم به الفودو من كل صوبٍ ومكان، لمَ يمنحه درجة الخبير في تلك الأمور وعن جدارة.

طالت النظرات الصامتة بينهما. كان (آدم) يتحدث بثقة منقطعة النظير أجبرت الشك على التوغل بقلب (أسامة) بالفعل، لدرجة أنه قارب على تصديقه. لمَ لا يتحدث بثقة؟ لقد أقام بالبرازيل مع أمه بالإجازات المدرسية الصيفية كاملة، ليتشرب منها أسرار الفودو وخباياه.

أخبرت أمه والده عن أمرِ عملها المستتر هذا منذ اللحظات الأولى من وقوع كل منهما في غرام الآخر، فتحمَّل الأب المخاطرة التي ستعود عليه وعلى صغيرهما ليتزوجها وتُرفع راية الحب عاليًا. موافقًا على شروطها بسفرها مع (آدم) للبرازيل بالإجازات ثم تعاود لزوجها بمصر بعد انتهائها. فتلك الثمانية أعوام التي قضاها بتعلُّم الفودو، تمنحه درجة خبيرٍ بكل

تأكيد.

فقال (أسامة) معترضًا على الموقف:

- اسمع يا هذا، أمي ليست سوى امرأة بسيطة في أواخر أيامها بسبب ذلك الشلل الذي أصاب جسدها بالكامل.. فدعها وشأنها.

تنبّه (آدم) لكلمة (أسامة) تلك فردّدَها على لسانه كما لو أنه يؤكد على سماعها، ليرد (أسامة) أنها مصابة بالشلل الرباعي منذ فترة.

لم يلحظ (آدم) اتصال جسد المرأة بأنبوب محلول (الكلوكوز) المغذي المنبثق من ذلك الكيس البلاستيكي المتدلي عن عمود معدني رفيع ليرسخ علامات الشلل الكلي بالأذهان. ربما رائحة بخور السحر والمشهد من حولها المدجج بالشعوذة التي لم يتوقع أبدًا رؤيتها في مصر، جذب أغلب تركيزه ولم ينتبه لتلك الأمور البسيطة.

كما أن تلك المشاحنة الكلامية التي تجري بينهما الآن تجذبهم بدورها عن تلك الطنات الخفيفة التي تصدر من خارج باب الحجرة المفتوح. فليس لأيٍّ منهم بالًا للاهتمام بمصباح على وشك التلف خارج الحجرة، أو حتى إبريق يئن من نهش النيران في قاعدته.. فما يدور بداخلها أكثر أهمية.

فعاد (آدم) يسأل، -متجاهلًا (أسامة)- عن التقرير النهائي للجريمة قبل خروجه ليرد (أسامة) وعلامات التعجب ترتسم على وجهه لتغيير (آدم) النقاش:

- لم يكن هناك حالة نهائية، لكن التقرير المبدئي أن الضيف قد كان في مقاومة مع شيءٍ ما، لكن بلا بصمات أو اقتحام أو آثار عنف على الموجودات..كما لو أنه يصارع ذاته كالمصابين بالفصام.

ابتعدت الشبهات عن (نرجس) بالطبع بعد التأكد من أن القتل ليس بدافع السرقة، فخزانة غرفة الضيف كانت مغلقة بإحكام. وعندما تم فتحها من قِبَل الشرطة وجدوا بها محفظته المدججة بالمال وهاتفه المحمول غالي الطراز، صحيح أن بعض الأموال لم تكن بالخزانة لكنها كانت سليمة دون مساس بجانب ساعة ذهبية باهظة الثراء نسي أن يولجهم للخزانة قبل منامه الذي أضحى أبديًا.

ناهيك بالطبع عن أن (نرجس) عجوز من أسرة ميسورة الحال لا تحتاج للمال أو لسرقته، بل هي تعمل بالقصر كنوعٍ من الوفاء والحب لأسرة (أسامة) لا أكثر ولابنتيه. ناهيك عن أنه لا يوجد ضغائن شخصية بينها وبين القتيل بالطبع.

فعاد (آدم) ليقول بعد تذكُّره لتلك المعلومات التي

حصل عليها من (نرجس)، بعد التحقيق الأول والأخير معها بليلة الجريمة منذ خمسة أيام:

- دعنا نستبعد أمر المرض النفسي ذلك، فالأثرياء المجانين ليسوا إلا بالأفلام. ثم إنك لا تقابل مريضًا نفسيًا كل يوم بتلك الطريقة تعسة الحظ.

اتسعت عينا (أسامة) عندما استوعب تلميحات (آدم)، ليصرخ به والعروق تبرز من رقبته غيظًا، إن كان يقصد أن والدته هي القاتلة بسحرها؟

ليبادله (آدم) الرد بهدوءٍ بعدما جلس على أحد الكراسي بالحجرة ليساعده على التفكير بسهولة:

- بالطبع لا.. فأساليب الموت بالسحر الأسود تكون أعنف وأغرب من هذا بمراحل عدة، فأقل حالات القتل بسحر الفودو هي أن تتساقط مقلتا عيني الضحية وينزف من محجريهما حتى الموت.. ثم إن والدتك مصابة بالشلل كما ذكرت، وبحالات القتل كتلك تحتاج لجلسة تعاويذ ورقصات فودو أفريقية والتهام كبد قط نيء وأمور عدة لا تقدر عليها بالتمتمة فحسب من مقعدها دون حراك.

شعر (أسامة) بالغثيان قليلًا من هذا الوصف الذي ذكره (آدم)، لكنه جلس على كرسي آخر بالحجرة ليتنهد في راحة بعد تبرئة أمه.. لكن الراحة تلك لم

تطل بعدما بترها (آدم) بتأكيده أن طريقة القتل تلك تعود للأشباح!

هز (أسامة) رأسه، كما لو أنه اعتاد الأمر قائلًا:

- أجل بالطبع هذا ما ينقصني. أمي ساحرة فودو والقصر مسكون بالأشباح، كم هذا خلاب!

حاول (آدم) التحدُث لكن (أسامة) قاطعه ساخطًا وهو يهب واقفًا عن كرسيه من جديد:

- لقد فقدت عقلك تمامًا يا (آدم)..اعذرني لكن عليك الرحيل من قصري قبل أن تتهمني بأني أخبئ النداهة في إحدى حجرات القصر.

نهض (آدم) من كرسيه بدوره، مجاريًا غضب (أسامة) لأول مرة وهو يصيح مؤكدًا درايته بمدى صعوبة استيعاب الأمر من مرته الأولى، لكنه قد أفنى حياتي في تلك الأمور التي لا تدعوه للشك أو الادعاءات الكاذبة، مجبرة (آدم) على تصديقه بلا تكذيب. فاقترب (أسامة) من (آدم) وهو يلوح بيده في الهواء قائلًا:

- أتتعقل ما تقوله الآن؟ أنت تتحدث عن شبح أتى من اللا مكان لقتل هذا الرجل، هل يبدو لك أن هذا أمر قابل للاستيعاب؟

في الواقع لا.. الأشباح لا تزور المكان للقتل ثم ترحل

كما لو مرت مرور الكرام هكذا، الأمر ليس بهذه السذاجة. فالأشباح لا تُقدِم على فعلٍ ضخمٍ كهذا إلا بأسباب عديدة. كما يبدو أننا نتعامل مع شبح خجول لا يتباهى بقدراته كالأشباح المعهودة كالهمسات من الجدران، وتحريك الجماد، والطَّرق على أبواب المنزل وغيرها من الأمور المشابهة للأشباح الصاخبة. والتي لم يشهدها (أسامة) طوال حياته بهذا القصر، أو يلحظها (آدم) بإقامته القصيرة به.. إذًا فالأمر به لغز لم يحل بعد!

فعاد (آدم) للرد:

- بالتأكيد الأمر ليس بتلك العشوائية التي تدعيها، لكن دعنا نعود لأمر والدتك..لا بُدَّ أنها توصلت بطريقة ما لوسم شخص آخر بنفس وشم الفودو الأسود ليقوم هو باستحضار تلك الروح لقتل الرجل. قد يكون هذا الشخص أي أحدٍ بالقصر.. (نرجس) مثلاً أو إحدى ابنتيك أو حتى صبي المكوجي لا تستبعـ...

قاطع (أسامة) حديث آدم المتسرع وهو يهز يديه علامة التمهل، مغمغمًا:

- مهلًا مهلًا..عن أي ابنتين تتحدث، أنا لا أملك غير ابنة وحيدة.

فردَّ (آدم) في سأم:

- ليس هذا الوقت المناسب أرجوك لتعلمني أن إحدى فتاتيك متبناه أو واحدة منهما هي ابنة خالة للأخرى وتقيم معكم هنا لسبب مأساوي لا أهتم بمعرفته الآن.. نحن في خضم أحداث جلية التي لا تتحمل المزيد من التفاصيل الفرعية.

فعاود (أسامة) الرد بجدية أكثر قائلًا إنه ليس أيًا من هذا أو من ذلك، حيث لا يوجد أي فتيات بالمنزل غير ابنته (إيمان). رمى (آدم) بجسده على الكرسي، مكذبًا أذنيه.. فيبدو أن عائلة (علام) لا زالت تحوي في جعبتها الكثير له.

(16)
الخوف هنا

12/2/2005

الأقصر

الثامنة مساءً

أطاحت (دينا) بعض الألعاب المتراصة في أحد أركان حجرة (إيمان) صارخة، لتنظر هذه الأخيرة لها لتستفسر بتلعثم عن سبب تلك الحالة من الهياج التي انتابتها، لتنطلع إليها (دينا) بغضبٍ والشرر يتصاعد من عينيها، لتصيح بصوت لا تسمعه إلا (إيمان) ذاتها أن هذا المدعو (آدم) يعلم الكثير وسيفضح أكثر. ثم عادت (دينا) لتصرخ وهي تستمر في لكم الحائط بقبضتها وركل كل شيء قريب من ساقها. حتى أضحى الزبد يتساقط من بين شفتيها وتبعثر شعرها في انتصاب شبيه بالمجانين أو ثورة الثيران.

فتسألها (إيمان) عن المشكلة في هذا الأمر الذي يزيد سخطها لهذا الحد، وهي تحاول الابتعاد عنها قدر ما سمحت مساحة الحرة، حتى لا يمسها أيٌّ من بطشها. كان استفسارًا بريئًا، لكنها لم تلقَ نفس الأسلوب في الرد، فنظرت (دينا) بعين مكدسة بالغضب لـ (إيمان)

التي التصقت بجدار الحجرة خلفها بلا منفذ آخر للتقهقر.. فأجابتها (دينا) وهي تتقدم نحوها:

- إن علموا سرنا سيفرقون بيننا.. وأنا لن أسمح بهذا.

فأردفت (إيمان) وهي تبتلع ريقها وأشباح الخوف تتراقص أمام عينها الصغيرة، أنها تخيفها الآن.. فاقتربت (دينا) منها حتى صارت على بعد خطوات معدودة من (إيمان) التي بدأت في الارتجاف بردًا وخوفًا، لتردف بعدها بثبات وبعلامات وجهها اختفت منه معالم الغضب ومعالم الحياة أجمع، بأنه وجب عليها الخوف.. فهي لن ترحل وحيدة.

***

ظل (آدم) فاغرًا فاه لدقيقة كاملة، ثم ختم هذه الدهشة التي أصابت عقله:

- أأأ.. أعد.. أعد ما قلته رجاءً.

نظر له (أسامة) كما لو أنه لا يصدق هذا السخف الذي تطور إليه الحديث، ثم أجابه للمرة الثانية مؤكدًا على خلو القصر من الفتيات الصغيرات سوى (إيمان) ابنته. فيسأل (آدم) سريعًا وهو يضرب بقبضته على مسند كرسيه في غلٍّ عن من (دينا) تلك بحق الكتب السماوية؟.. فارتسمت الدهشة على (أسامة)، ليقول ببساطة كما لو أنه أمر بديهيٌّ، بأنها صديقة خيالية لـ

(إيمان).. لا وجد لـ (دينا) تلك بالواقع!

كيف هذا وقد رآها؟ لقد تحدَّث معها! لم يلمسها، لكنه شعر بوجودها المادي من حوله! وهي تأخذ حيزًا من الفراغ وتتقاسم أكسجين الحجرة معه! لقد تبادل معها أطراف الحديث لأكثر من ربع ساعة تقريبًا! كيف لم يشعر بعد كل هذا بأنها غير حقيقية؟

فقال (أسامة) مقاطعًا (آدم) من شروده الذي كاد يعصف بتلابيب تعقُّله:

- أتذكر أول يوم لك هنا عندما قلت لي (حفظهما اللّٰه لك). أكنت تقصد هذه الكلمات حرفيًّا؟ كنت أعتقدك تمزح لهذا ضحكت.

اعتقد (آدم) وقتها أنه يضحك ودًا لا ساخرًا، وأيضًا عندما غمز له وهو يقول (لوح لها –دينا- من بعيد).. فهم أن تلك الإشارة تعني أن الفتاة خجولة ولن تسلم عليه فعليًّا، ليس بمسايرة (إيمان) على حجم إدراكها والتعايش أن هناك فتاة أخرى تقف بعيدًا.

لكن ما يثير جنونه، هو أنه لم يلحظ الأمر من البداية، وعندما كانت تأتي سيرة (دينا) على لسان كل من (نرجس) أو (أسامة) كانوا يبتسمون في سخرية، بل ما يثير غيظه فوق جنونه أن حديثه مع (أسامة) لم يشمل أي شيء عن حياته الأسرية.

لم يسأله عن سبب الطلاق! لم يستفسر عن أي عامٍ دراسي للفتيات! لم يستعلم كيف يتعايش مع الأمر وحده وعلى كتفيه فتاتان تفتقدان لحنان الأم! لم يستعلم منه عن سبب ترك الأم للصغيرتين لوالدهما دون معاونته في تربيتهما! لم يستوضح منه عن خبرة الزواج التي لم يمر بها بعد! كل ما شغل ألسنتهم وقتها هو تذكر أيام الجامعة أو أي شيء تافة آخر. لا يعلم إن كانت تلك الذكريات هي من كدّست نفسها في عقله وقتها بعد غياب السبع سنوات بينهما، أم هناك قوة خفية حجبت الحديث عن حياتهما الشخصية سواء كان تطرقًا للسانهما أو حتى مرورًا على خاطرهما.

بعد الكثير من الوقوف والجلوس من كليهما على كراسيهما بحركات انفعالية.. وقفا ليحاولا تمالك الموقف، فسأل (آدم) وهو يقترب من النافذة بتهكم، أن ابنته تدعي رؤيتها لفتاة وتحادثها بل وتشاركها حجرتها، ليتعامل بتراخٍ مع الأمر؟.. ليرد (أسامة) محركًا كفيه، مؤكدًا على طبيعية الموقف:

- إنها فتاة وحيدة تحتاج لمن يشاركها اللهو، فبالرغم من تعدُّد أقاربنا إلا أننا لا نراهم كثيرًا بسبب العمل سابقًا والقضايا البنكية حاليًا.. فما المانع من استخدام مخيلتها الخصبة في اختراع صديق تشاركه أيامها.

هز (آدم) رأسه متعجبًا من تبسيط (أسامة) لهول الموقف مصححًا:

- يلجأ الصغار للأصدقاء الخياليين بسبب الاضطهاد المدرسي أو التفكك الأسري.. ولو افترضنا أنها ابتدعت صديقة خيالية بسبب العامل الثاني، فالأطفال يستخدمون الأسماء البسيطة للذاكرة على غرار (مشمش) أو (سوسو)، أو يعودون لأسماء قريبة من اسمهم الأصلي فبالنسبة إلى (إيمان)، ستكون صديقتها (إيمي) أو (منمن).. ليس (دينا) والتي هي بعيدة كل البعد عن اسمها الأصلي.. ناهيك عن أن عادة اختراع الأطفال الخياليين تلك لهي عادة غربية أصيلة منعدمة في مجتمعنا الشرقي!

فالأطفال الذين بعالمهم المجلات المصورة بكل أبطالهم الخارقين، يلجؤون بالطبع للصديق الخيالي الأقوى والأشجع الذي يستمدون منه الأمان والعزم حتى لو كاذبًا. أما الأطفال المصريون الذين لا يعرفون غير المغامرين الخمسة بجانب (ماسنجر)، فالخيال لم يصل لديهم لذروته بعد لابتداع الصديق الخيالي.. ف (آدم) قد عاش بين الطفلتين ويستطيع أن يميز بينهما بأريحية.

وجد (أسامة) المنطقية أخيرًا في كلمات (آدم)،

فأنت لا تجد ابنتك تُحادث الفراغ وتضحك معه كأمرٍ مَعهودٍ! قد تحادث الدمى أو الحيوانات أو حتى انعكاسها بالمرآة لمرات قليلة، لكنها لا تصل أبدًا لدرجة الحديث تلقائيًا مع نفسها بأي وقتٍ دون سببٍ! فأهمل (أسامة) الأمر في بدايته حتى اعتاده فيما بعد، باعتبارها صغيرة خصبة الخيال، لا تفعل شيئًا غير اللهو البريء.. دون النظر للجوانب المخيفة الأخرى للأمر.

- علينا أن نفكر الآن بصوتٍ عالٍ.. مَن (دينا) تلك. هي لم تأتِ بهذا الاسم من العدم، لا بُدَّ أن له دلالة ما.

قالها (آدم) ليحث بها (أسامة) على التفكير معه في هذا الأمر، لكن عقل (أسامة) قد أُجهد من العمل. في البدء يعلم أن أمه ساحرة، ثم قصره مسكون، والآن ابنته قد صابها الخبال! أي فجوة جحيمية سقط بها بتلك الليلة. ليته ظل في قسم الشرطة يستقبل تلك النظرات العجيبة من المجرمين معه بالحجز، متعددة النوايا الخبيثة أو بخدمة كبير التخشيبة لمزيد من الوقت ليضمن أمانه.

فعاد (آدم) للكلام وهو يطرقع أصابع يده اليمنى، مطالبًا (أسامة) بالوقوف معه، فالأمر خطر بما فيه الكفاية ويحتاج لكل حواس تركيزهما مجتمعين. تلعثم (أسامة) في الكلام قليلًا ثم عزم على حسم قراره

بالحديث، لكنه لم ينطق سوى بعض الهمهمات الخافتة كما لو أن لسانه لا يطاوعه في نُطقِ ما جال بخاطره. فاقترب (آدم) من (أسامة) ليهزه في انفعال بعدما استنبط أنه قد خرج بتفسيرٍ ما، حاثًا إياه على الإفصاح عما بجعبته.. لينطق (أسامة) أن الاسم قريبٌ من اسم (دنيا). فعاود (آدم) ليسأله -بعدما توقف عن رج صاحبه كعلبة الدواء- عن كنه (دنيا) تلك.. وليته لم يسأل قط.

***

منذ سنوات بعيدة

(مبارك يا أبا البنات) راحت هذه العبارة تتردد على الكثير من الألسن في خلفية المشهد مهنّئة للزوج، في حين أن وجوههم تعتريها دهشةٌ ممتزجة بالفرح.. فتاتان بدفعة واحدة! يا لها من نعمة محمّلة بمسؤولية عظيمة. كانت الفتاتان على الفطنة، فكانتا متماثلتين بالشكل حد الإتقان في عيني الزوج وهو يتأملهما، متذوقًا الأسماء في رأسه، مصرحًا عن نيته بتسميه المولود على اسم والده إن كان ذكرًا أو على اسم والدته إن كانت أنثى واحدة، لكن مع وجود فتاتين، وجب عليه انتقاء اسمين متختلفين كتعديلٍ للخطط.

يا لها من مهمة صعبة لم يعد لها! وكيف يجول بخاطره أنه سينجب توأم من الأساس؟ فهو حدثٌ نادرٌ في أسرتيَ كلا الزوجين، ناهيك عن أن أجهزة (السونار) السحرية لم تقتحم هذا العصر بعد، لتقتحم محافظة بعيدة عن حضر العاصمة كالأقصر.

ما زالت الصدمة جلية على الزوج بعد أن ظفر بلقب جديد وهو الأب، أثناء مطالعته لصغيرتيه التوأم، اللتين لم تحضرا لهذه الحياة إلا لخمس دقائق وربما أقل وها هما تملآن الدنيا من حوليهما نحيبًا صاخبًا، كما لو أنهما لم يكفيهما ما خلفاه على جسد أمهما من إنهاك. مصمص بشفتيه قبل أن يحسم قراره:

- (دعاء ودنيا) ما أروعهما.

ومن هنا اندلعت حكاية (دعاء ودنيا) اللتين لم تضحَ حياتهما عادية كمولدهما. فعندما كبرت الفتاتان، تكونت ملامح كل منهما وسهلَ التفريق بينهما، حيث لم تكونا توأم متماثل، فلكل منهما تقاسيمها وشخصيتها المنفردة.

كانت (دعاء) جميلة كوردة وسط صحراء مدججة بالصبار، كانت هادئة كالنسمة لا أحد يستطيع سماع حركتها حتى أو ملاحظَتَها، بالكاد تتحرك من موضعها أو تنطق الكلمات من فمها.. أما (دنيا) فكانت النقيض

تمامًا عن أختها؛ ثرثارة، لا تتوقف عن الحديث ليل نهار، لديها طاقة على الكلام تفوق المذياع ذاته، لم يشاهدها أبواها تتوقف أبدًا عن التفوة بالكلمات إلا وهي نائمة. حتى قبل تعلُّمها لنُطقِ الأحرف والكلمات، باتت تطن كالنحلة بلا استكانة. أضِف إلى ذلك أنها قبيحة لدرجة تجعلك تشك أنها من نسل هذه الأسرة، بل تجعلك تشك أنها بشرية طبيعية؛ حيث كانت جبهتها عريضة ذات وجنتين شاحبتين تبرز عظامها بجانب أنف ضخم مدبب كالدجاج.. مؤكدة أن الأختين هما التناقض ذاته.

لم يكن للطب النفسي أي وجود بتلك الحقبة الزمنية، لذلك ظل الوضع على ما هو عليه، بعدما أعلن أطباء الأطفال أن الشقيقتين مصابتان بنوع من التأخُّر العقلي.. لم تكن الفتيات يترددن على المدارس على أي حال في عصر البشاوات فظلتا حبيستي المنزل تحت رعاية الخادمات المكثفة

حتى ماتت (دنيا) بسن العاشرة بالتهاب القلب المفاجئ، لتحرر (دعاء) من حالتها المرضية العجيبة وتعاود مزاولة حياتها العادية كأيِّ صغيرة بعمرها، من الحركة والحديث واللهو دون حواجز، كما لو أن هنالك رابطًا خفيًا يربط بين الأختين يجبرهما على الحياة

بتلك الحالة المتناقضة الشاذة، تمزق بموت (دنيا) المفاجئ.

(17)
لاشيء آخر

5/12/2015
الوادي الجديد

ربما لو كانت هذه الأحداث صادفتني بينما لا يزال لدي مرضي النفسي، لكنت تراجعت عن الأمر آثرًا الخير، لكني الآن أفضل من أي وقت مضى بحياتي. فلحيتي النامية بانتظامٍ وضخامة جسدي من العضلات بالإضافة لثبات حركاتي دون أي التفات عصبي، يمنحاني الثقة التي حرمت منها لفترة نسيت بها مذاقها. فأحيانًا لا أتعرف على ذاتي في المرآة، فأنا الآن إنسانٌ جديدٌ بقرارات عجيبة.

كنت بالعمل أحطم الصخور كعادتي، لم يكن معي سوى أربعة عمال آخرين، أغلبيتهم عجائز لم تساعدهم كهولتهم على العمل بالفترة المسائية كالجميع، فحضروا مجبريين الليلة بحكم حاجتهم للمال.

كنت أدقق النظر بكل شيء، وأحسب الخطوة بعقلي قبل الإقدام عليها، لمنع وقوع أي حادث ولو حتى بسيط.

فقد سمعت من قبل عن ظاهرة عجيبة شابت على جسر ما في إحدى الدول الأجنبية، لا يعلم سببها إلا الله بهذا المكان، أودت على الدولة بالكثير من الأموال مع حركة السياحة لفترة كبيرة، وعندما انتهت تلك الظاهرة، عزمت الحكومة على إعادة إحيائها مهما كلف الأمر، فلجأوا للتكنولوجيا. حتى كُشفت لعبتهم إعلاميًا وانتهت تلك الظاهرة للأبد.

التاريخ بارعٌ في إعادة ذاته بهذه المنطقة من مصر. قد تكون وقعت بعض الحوادث العجيبة هنا بالمنجم، لكن من يدري أن مسببها قد انتهى منذ فترة وما يحدث الآن ليس إلا تخطيطًا للتلاعب بعقول السذج وزرع أفكار محددة برؤوسهم؟!

قد لا أعلم الغرض من تلك الحوادث. فهذا المكان ليس سياحيًا كالجسر، لكننا في منجم قد يحتوي على خيرات الله المعدنية التي يمكن أن تسرق بهذا اليوم تحديدًا مع تربُّع الجميع ببيوتهم. ما أدراك أنه ليس هناك مجموعة من المديرين ينجمون عن الذهب وينون تهريبه الليلة؟ ما أدراك أن مديري لا يرأس جماعة من عبدة الشيطان ويجتمعون بهذا المكان بنفس الوقت سنويًا لتقديم قرابينهم البشرية لأسيادهم من شياطين الجحيم الخبيثة؟

تفكيرٌ غريبٌ! ربما.. لكنه الأكثر منطقية الآن حتى أستبين الحقيقة، وتظل حجتي هي عدم الترابط بين الحوادث التي لا أزال غير مقتنعٍ بها.

أتاني أحد رؤسائي بالعمل طالبًا مني الاستعداد أنا وزملائي للعمل بالنفق رقم (6)! تدلى فكي السفلي، فاهرًا فاهي من فرط ذهولي من هذا القرار الذي قد يودي بنا للتهلكة حرفيًا.. فالنفق رقم (6) هو أحد الأنفاق الأكثر خطورة بالمكان، ولا يدلف له إلا العمال من المناصب الأولى ذوي الخبرة العليا. فلو تغاضيت عن قلة خبرتي بهذه النوعية بالمناجم، فنزول خمستنا فحسب للنفق يعد انتحارًا رسميًا. فالنفق عبارة عن بئر ذي عمق أكثر من عشرين مترًا، ثم يمتد بخط أفقي للأمام بعشرين مترًا أخرى وهذا الانغماس تحت سطح الأرض يحتاج للكثير من العمالة لتوفير حالات الأمان.

حاولت تنبيه رئيسي بالعمل لقلة خبرتي وضآلة حيلتنا، لكنه أجابني، بوجوب تسلُّم هذا الموقع منتهيًا بالغد، ومع كثرة تغيبات العمال بالأيام الماضية، قلت العمالة بالنفق رقم (6)، فلم ينتهِ العمل به حتى الآن. وهو بالطبع لن يسمح بتأخير تسليم المنجم للجهات العليا بيوم واحد تأخير، في غنى تام عن تشويه ملفه النظيف بالإدارة.

هذا اللعين يرمي بنا بميدان الحرب، بخبرة قليلة وخطر داهم، كي لا يخصم هو من مرتبه غير عابئ بأرواحنا. لكن ما باليد حيلة، إن عصينا الأمر سنفصل، وليس لدينا رفاهية الاعتراض بالطبع.

بعد كثير من التوجس المحمَّل بالخوف، المغلف بالهلع والمبطن بالارتعاب..تناولنا معداتنا، هابطين للنفق رقم (6) لبداية العمل.

كان النفق عميقا بالأرض وغائرًا بالصخر، فلا تصله أسلاك المصابيح، ناهيك عن أن المصابيح الكهربية اليدوية ليست ذات القوة الكافية لتبديد عتمة المنجم، فلجأنا لمصابيح الغاز بجانب مصابيح الخوذ الصغيرة.

وصلنا لمكان الحفر المطلوب وبدأنا في تحطيم الصخور توسيعًا بالنفق. ولكن! هل هذا حقيقي ما بلغ أذني أم أنني أتوهم؟ إنه صوت طرق معدني على الجدار مختلف البتة عن الصوت الناتج عن اصطدام فئوسنا بالصخر! لا لا، ليس الجدار منبع الصوت.. بل هو يصدر بأذني! اللعنة على (صبري) وحكايات الجدات خاصته التي جعلتني أسير على نهجها.

عليَّ الآن أن أركز بالعمل طاردًا هذه الأفكار الساذجة عن رأسي. اختلست بعض نظرات لزملائي، لألاحظ أن خمستهم يعملون بإقدام على نحو طبيعي -لو تجاوزنا

رهبتهم من المكان بالطبع- دون أي علامات للريبة.. لكن مهلًا، لمَ هم خمسة؟ آخر ما أتذكره أنهم أربعة عمال غيري، هل نزل رئيسنا بالعمل ليشاركنا العمل بذاته؟!

مهما بلغت نسبة الخصم أو الجزاء الذي ستصيبه إن لم يُسلّم النفق مكتملًا حسب الخطة الهندسية له، فهذا لن يدفعه أبدًا للعمل بيده معنا. فبمجرد أن يضحى الفرد مديرًا أو رئيسًا بأي مهنة مهما كانت سخيفة، تُتشكل بكينونته تلك الشخصية النرجسية المتعالية. فدائمًا سيرى نفسه أهم، وأفضل، وأبرع، وأوسم، وأرقى، وأسنى منك بكل شيء..لماذا؟ لأنه المدير بالطبع الذي من دون توجيهاته الحكيمة سيفسد العمل وتنهار الدولة وتندلع حربٌ عالمية ثالثة. ولكل هذا لن يغامر رئيسنا بالمشاركة الحيوية بالعمل، حتى ولو سيتعرض للإعدام. فهذا الرجل له شخصيته المحمّلة بجنون العظمة بكل ثقلها الذي يحثه على الانتحار قبل مساعدة من هم أقل منه رتبة.

هل هذا العامل الزائد، أحد أصدقائنا، حيث وصل متأخرًا عن العمل؟ بالتأكيد لا.. فلو كان كذلك، لشعرنا بهبوطه من الأعلى. مَن هذا يا ترى؟ بل السؤال الأهم: ما الذي يفعله بحق الجحيم؟ ناهيك عن أنه يضرب بفأسه في مكان خاطئ، بل هو يضرب في مكان قريب

من الأساسات الخشبية التي تحمل النفق على أعتاقها.. هذا المجنون سيهوي النفق على رؤسنا، دافنًا إيانا أحياء!!

توقفت عن العمل وأنا أحملق بالرجل محاوِلاً ترجمة الموقف سريعًا بعقلي، حتى تنبّه زملائي لفعلتي، ليوجهوا أعينهم صوب موضع إبصاري ، ثم اتسعت حدقاتهم تدريجيًا مستوعبين نفس الأمر الذي جال بعقلي وخطورته. فناديت عليه أسأله عن شخصه، لكنه لم يجب. لا يوجد أمامي سوى التقدم نحوه.

صوت الطرق لا يزال يضرب بأذني. إنه صوت مميز يختلف عن طَرق الفأس على الصخور أو ضجة المناجم التي اعتدتها.. هناك شيء خاطئ.

مع كل خطوة أقدِم عليها تصحبها طرقة بأذني.. لقد أصبحت على بُعدِ خطوتين منه.. لمَ هذا المكان أكثر حرارة عن سابقه؟

ناديته من جديد لكن صوت اصطدام فأسه بالصخور بتلك الحركة العنيفة، عالٍ للغاية، أعجز حتى عن سماع صوتي الشخصي، فوضعت يدي على كتفه لأنبهه بوجودي في المحيط، لكنه قد التفت لي بمجرد أن لامست جسده. لأثب للخلف أمتارًا للوراء وعلامات الخوف تظهر جلية على ملامحي قبما تنتشر

كالفيروس كاسحة لوجوه أصدقائي بدورهم، وهم يرمقون المشهد معي بتوجس، مؤكدين على عدم هذياني.

ما نثر الرعب بيننا كالنار بالهشيم التي هشمت تماسكنا العصبي، هو الرجل ذاته ليست التفاتته! كان وجهه أقرب للجثة! أجهل وصفها بدقة لكن وجهه كان شاحبًا، يلتصق الجلد -أو ما تبقى منه- بجمجمته لتبرز وجنتاه، عدة مواضع من جلده متآكلة ليظهر ما يخفيه من أنسجة أو عظم جمجمته التي كانت بيضاء بيوم ما ليس قريبًا، إحدى عينيه لم تكن بمحجرها لتظهر محلها فجوة لا تستبين بها إلا السواد.. أعتقد أن مصطلح (جثة) بات واضحًا الآن. يرتدي ملابس العمال الشتوية التي تستر أسفلها الكثير من البشاعة، لكنها لا تخفي الصورة التي أخذناها عن باقي تكوينه الجسدي بنهج وجهه.

كانت النيران بالمصابيح الغازية ترتعش خوفًا من المشهد مع قلوبنا، لتضيف للمكان أيقونة جديدة من الظلال والخيالات التي تزيده رهبة وتزيدنا فزعًا.

حاولت النهوض لكن صوت الطَّرق كان عاليًا لدرجة جعلت تفكيري يُشَلّ كجسدي. وضعت يدي على أذني محاولًا كتم الصوت، لكن هذا بلا جدوى، فالطَّرق يتردد

داخل عقلي بلا هوادة لا خارجه. سقطت أرضًا، ضاغطًا على أسناني، لا أحرك غير عيني.

شعر أصدقائي بالخطر بمجرد أن بدأت تلك الجثة الحركة صوبهم، فلا أعلم إن كانت روح الحماسة قد دبت بقلوبهم أجمعين بنفس الثانية أم أن أحدهم قرر أن أفضل وسيلة للدفاع هي الهجوم وسار الآخرون عن نهجه. لكن المهم أنهم اندفعوا للهجوم على هذه الجثة متسلحين بفؤسهم الثقيلة.

لم أبصر المشهد جيدًا بسبب رقدتي أرضًا والعروق تكاد تنفجر من رأسي من أثر الضغط، لكني أتذكر الدماء.. الكثير الكثير منها. كانت الجثة أسرع وأخف من أربعتهم، تضرب يمينًا فتهشم رأس أحدهم، تضرب يسارًا فيحطم صدر الثاني، تضرب لأسفل فتسحق سيقان الثالث، تضرب لأعلى لتقتلع أمعاء الرابع من مكنفها. سامحًا للدماء بتلطيخ المكان في صورة جحيمية شنيعة بفرمان من حاكم الهلاك.

اقترب مني وهو يجر فأسه أرضًا، مُصدِرًا أزيز الاحتكاك المزعج كنوع من اعتراض أرضية المنجم على إشراكها في هذه المجزرة، لا أستطيع الحركة أو التوسل له بالإبقاء على حياتي التافهة. يرفع الفأس قدر ما سانده ذراعه على هذا، لينزل به بعنفٍ صارخًا

بجملة وحيدة واصلة لمسامعي مخترقة الطرق:

(تــوقــفــوا عــن مــراقــبــتــي)

مظلمًا للشاشة بعين الخامس.. وهو أنا..

***

فتحت عيني بكل ذعر الدنيا وأنا ألتقط أنفاسي بصعوبة كما لو كنت في مارثون أولمبي منذ دقائق

أعرف هذا الدولاب الخشبي الذي يصدر صريرًا صاخبًا مع فتح أبوابه أو تركِها لشأنها كنوع من الضريبة. أعلم هذا السرير المعدني قديم الطراز الذي تحوّل لونه من الأصفر للأسود بفعل الصدأ. على دراية بهذه المروحة الحديثة المحاطة أجنحتها بأتربة الخمول الشتوي، التي تشذ عن هذا المكان القديم، حيث اشتريتها من فترة ليست بطويلة.. إنها غرفتي!!

أكان كل هذا حلمًا؟ لا مستحيل، فأنت لا تحلم بهذا الكم من التفاصيل أو تشعر بهذا الحد من الألم به ،لقد كان أكثر من حقيقي، لقد كان رؤية للمستقبل! وجب عليّ تحذير العمال بالمنجم.. عليّ الإسراع لنجدتهم.

انتفضت من فوق السرير غير منتبهٍ لبقعة العرق الكبيرة التي تزين الفراش، أو حباته المتكثفة على رأسي رغم برودة الشتاء لتزيد رعشتي التي أجهل إن كانت رجفة برد أم رجفة فزع، أو أني خرجت من

شقتي أهرول بمنامتي كمجاذيب الحسين.. حتى وصلت أخيرًا للمناجم.

لقد ظللت نائمًا عن موعد ضجيج المنبه بساعة كاملة. لا أعلم كيف حدث هذا رغم نومي الخفيف وصياح منبه هاتفي الصاخب؛ لذلك أمسيت أهرول للمنجم آملاً ألا أكون قد تأخرت عن وقوع أي شيء خطير.

رآني رئيسي بالعمل، فاستوقفني متصنعًا الغضب:

- لمَ تأخرت هكذا يا (حسام)؟! لولا حاجتي للعمالة لكنت جازيتك أو خصمت من راتبك اليوم.. اذهب الآن لـ...

قاطعته وأنا ألهث من فرط المجهود البدني الذي بذلته مستفسرًا إن ولج العمال للنفق رقم (6) بأمرٍ منه. فرفع حاجبيه في تعجب قائلًا:

- كيف عرفت بهذا؟ لا يهم.. التقط فأسك واذهب لتشاركهم العمل، ثم ما هذا الذي ترتديه؟

قالها بعد أن تأمل حالتي الرثة، فعاودت أقاطعه قبل أن يسرد على مسامعي أهمية احترام العمل وملابسه، بأنه يجب علينا إخراج العمال من هناك سريعًا، قبل أن تقتلهم جثة (أبا الحسني). فحرك عينيه في مجريهما علامة الضجر، كما لو أن حواري متكرِّرٌ لا يخلو من

الملل:

- (أبا الحسني)؟ حتى أنت؟ لقد سئمت من حكايات الأطفال تلك.. انضجوا يا قوم وحاولوا التفريق بين قصص المزاح والعمل، خلاصة القول.. ستشارك الآخرين بالعمل أم سترحل؟

علمت أن الحوار معه لن يجدي بنتيجة، فقررت أن أتركه راكضًا للنفق لأحثّ الآخرين على الخروج قبل فوات الأوان.. لكنه قد فات بالفعل.

فلم أكد أتحرك خطوتين قاصدًا النفق، حتى اندلع انفجارًا هائلًا من تلك المنطقة بالذات، لتشرع الأرض تهتز بدورها من أسفل قدمي خوفًا من الحادث، فكانت النيران تصل لعرين السماء والدخان يتخطى الغلاف الجوي ورائحة الاحتراق تمزق الأنوف.

قد يكون وصفي مبالغًا به، لكن المشهد عن قُرب برؤية كل تلك الألسنة النارية التي تتصاعد من النفق كما لو أنه بوابة جحيمية تتراقص بجعبتها شياطين الهلاك، يجعلك تتوهم ما هو أشنع من هذا.

كان يتطاير من النفق ما عجزَت النيران عن تحويله لرمادٍ، كبعض قطع الحديد والفؤوس التي أعلم جيدًا من هم أصحابها. حتى سقطت أمام قدمي مباشرة عينٌ آدمية ملوّثة بالدماء، متصلة بنخاع شوكي محترق..

لتنهي المشهد في شاعرية ساخرة، يعلو بها اسم (أبا الحسني) منتصرًا على الجميع.

(18)
لأجلي

12/2/2005

الأقصر

التاسعة مساءً

هذا الطنين على عتبة باب الحجرة لا يتوقف أبدًا، لكن عقليهما لا يزالان مشتعلين من التفكير لدرجة أنهما نسيا تقريبًا أين هما وبأي عامٍ الآن. لقد خارت قواهما بعد أن استنزفها عقلاهما، فجلسا أرضًا يستندان ظهريهما بجدران الغرفة بشكلٍ متقابل، لم تسعفهما قدماهما حتى للوصول للكراسي. كل منهما يحدق في الفراغ، كل منهما لا يصدق كم كان مغفلًا طوال الوقت.

فمن يهتم لتلك التفاهات كالطنين أو (نرجس) التي اختفت عن القصر فجأة كما لو أن الأرض قد انشقت وابتلعتها. لدينا بهذه الحجرة ما هو أكثر أهمية ليجعلك تنفصل عن العالم، غارقًا في صحراء من الجهل، لا تعلم متى ستنتهي ولن تجد المعين أبدًا.

- إذًا فشبحُ خالتي تسكن القصر منذ أن ماتت به؟

قالها (أسامة) ليخرج (آدم) من سكونه الذي أصبح

موترًا، والأهم أن يزيل خيوط عنكبوت الصمت التي كادت أن تغلِّف المشهد، لينبه نفسه أنه ما زال حيًا.. فأجابه (آدم):

- يبدو هذا.

- وهذا الشبح تنكر في هيئة صديقة خيالية لابنتي؟

- يبدو هذا أيضًا.

- لكن لماذا؟ لمَ شبحها عالق في القصر؟ ولمَ اختارت أن تظهر لابنتي ولك، والأهم من هذا وذلك.. لمَ تقتل الآخرين هكذا؟

- لا أدري.

لم يكن هذا فحسب ما يجهل إجابته، بل هناك الكثير والكثير من الغموض بالأمر على غرار: كيف عادت السيدة (دعاء) لحالتها الطبيعية بعد موت أختها؟ لمَ تعلمت الفودو من الخادمة؟ هل أجبرتها على تعلُّمه لمساعدتها في شعوذتها البغيضة أم كان باختيارها الشخصي؟ هل استخدمت السيدة (دعاء) ما تعلمته من السحر لتحضير روح أختها؟ وإن كانت الإجابة نعم، فلمَ تفعل هذا.. خاصة مع تكتمها على أمر أختها الميتة تلك، وعدم الإتيان بسيرتها إلا نادرًا.

تعجب (أسامة) من إجابة (آدم) المقتضبة، فراحَ يسأله بنوعٍ من الغضب، عن كيفية جهله بهذا الأمر،

أليس الخبير هنا؟.. ليجيب (آدم) أنه خبير في أمور سحر الفودو هذا، أما الأرواح المعلقة والأشباح الثائرة، فلم يصادفه الكثير من الاختلاطات معها من قبل.

كل ما يدريه (آدم) عن الأشباح، هو المعلومات العامة التي يعلمها أغلب العامة من الناس، كأن الأشباح تتكون نتيجة طاقة نفسية هائلة وُجِدَت بعد الموت، كالقتل عنفًا أو ظُلمًا؛ لذلك تظل الأرواح بعدها هائمة أو ساعية للانتقام. لكنها لا تظهر بعد أكثر من ستين عامًا من قتلها على حين غرة، بجانب أن الفتاة لم تمُت بأيٍّ من الطريقتين على أي حالٍ؛ لذا فوجودها يتعلق بشيءٍ يربطها بعالم الأحياء، كالحب أو الغضب أو الرغبة في إتمام أمرٍ غير مكتمل.. لكن هذا كله يظل غير متوافق مع شبحنا مجهول النية، كما يظل اللغز الأكبر في استطاعة (آدم) رؤيتها عن غيره؟

فسأل (أسامة) في غباءٍ:

- إذًا ماذا نفعل؟ نجلب شيخًا لطرد هذه الروح؟

- الشيوخ –لو لم يكونوا أفّاقين- يقدرون على الجن أو الشياطين، أما الأرواح فهي ليست من تخصصاتهم، على حد علمي.

- بمن نستعين إذًا؟

أجاب (آدم) مبتسمًا:

- لم أسمع من قبل بطاردي الأرواح إلا بالأفلام الأجنبية، لكن ما يمكننا فعله هو نبش قبر خالك وحرق جثمانه بعد نثره بالملح كحلٍّ مؤقتٍ، وإن لم يفلح الأمر سأطلب عون أمي وخبرتها بالأمر.. لكن الأمر ليس مباحًا هكذا فالاتصال بالبرازيل قد يتطلب أيامًا مع سوء الاتصالات لديهم.

اتسعت عينا (أسامة) وهو يسأل بإجفال إن كان (آدم) جادَ بما قد عقدَ العزم عليه بالفعل. ليحرك (آدم) كتفيه علامة الجهل، مردفًا أنه لم يواجه أشباحًا من قبل، وإن هذا هو كل ما في جعبته ليجربه.

لم يتحدث أيٌّ منهما وظلا هائمين بأفكارهما محاولين ربط هذه الأحداث، وصوت الطنين هذا يخيم المشهد، حتى قال (آدم) ساخرًا على هذا الوضع بأكمله:

- ليت المنزل به كلب ما.. فأعين الحيوانات تبصر ما يتخطى العين البشرية ولها القدرة على الشعور بكل ما هو فوق الطبيعي.

فتلك الحواس تفوق أيضًا الشعور بالأرواح، بل يمكنها التنبؤ بالهزات الأرضية، والفرار من المباني قبل أن تسقط على رؤوس أصحابها.

فغمغم (أسامة) كما لو أنه تذكّر شيئًا، متأسفًا على هروب (مشمش). انتبه (آدم) لهذه العبارة الأخيرة، لم

يسأل عن كنه (مشمش) هذا، فهذا الاسم هو اللقب الراسخ بين كل قطط مصر مذكرة كانت أو مؤنثة، لهذا تخطى الأسئلة الساذجة ليسأل عن سبب هروبه كما ذكر (أسامة)، فتعجب هذا الأخير من اهتمام (آدم) بهذا الأمر.. لكن ذكرني عما دار بينهما اليوم من حوار لا يدع للتعجب؟ فأجابه بيُسرٍ عن جهله التام للسبب. فبين يومٍ وليلة رحلَ القط عن القصر رغم أنهم لم يسيئوا معاملته قَطّ، فكانت (نرجس) تطعمه بسخاء يوميًا.

اتسعت عينا (آدم) من خطورة ما طرقَ بباله، فبادر (أسامة) بالسؤال بعدما لاحظ هذا الخوف:

- ماذا هناك؟ أرجوك لا تخبرني أن هذا القط هو مذؤوب بدوره.

- لا أيها الغبي..القطط لا تترك المكان التي تجد به الطعام هكذا.

فالقطط لا تنكر لهذا الحد كما تزعم الأمثال، قد تهرب عند لحظات الخطر ولا تحزن على صاحبها على نقيض الكلاب.. لكن همها الأول والوحيد متمثل في الراحة والطعام، وكما ذكرت أنت فقد وفرت لـ (مشمش) كل هذا وأكثر؛ لذا فقد هرب لأسباب أخرى.

- أي أسباب؟

لم يفهم (أسامة) معظم الكلمات التي قالها (آدم)،

فمنذ متى وصديقه خبير حيواني! فتجاهل (آدم) سؤاله الأخير ليستفسر هو:

- هل قُتل أو توفى أو اختفى أو شيء من هذا القبيل، لأيٍّ من عُمَّال القصر قبل أن تفصل موظفيه؟

- لا أتذكر.

انتفض (آدم) في جلسته وهو حاث إياه على أعمال ذاكرته الصدئة حتى لو كان ما لاحظه أمرًا تافهًا، فتلعثم (أسامة) بالكلمات قليلًا حتى أردف متذكرًا:

- هناك (كريمة)، فلاحة شابة متوسطة الجمال، كانت تعمل هنا في تنظيف الحجرات، اختفت بين يوم وليلة، ثم حضرت الشرطة للتحقيق معي بعد إبلاغ صديقاتها عن اختفائها، لكني لم أفِدْهم بأي شيءٍ لأني بالفعل لم أدرك شيئًا عن أمرها. حتى استقرت الشرطة على أنها هربت مع عشيق مجهول لمكان لا يعلمه غير الله. لم يكن لها بالأهالي الكثيرين الذين يسألون عنها، فخمد الأمر سريعًا.

- هل هناك المزيد؟

صمت لثوانٍ محاولًا دفع الأفكار دفعًا لمقدمة رأسه المنهكة، حتى قال بالنهاية:

- هناك أحدُ رجال الأمن الذي قمت بفصله بعد إيقاعي به يتناول الحشيش بالحديقة، أمرته بترك

العمل حالًا بلا مناقشات، فلملم حجياته واستقل سيارة أجرى، لأن الوقت كان متأخرًا بلا ميكروباصات بالشوارع لنقله.. علمت بعد ذلك أن تلك السيارة أقامت حادثًا ما، نجا منها السائق لكن رجل الأمن قد لقى مصرعه بالحادث.

رمش (آدم) بعينيه عدة مرات حتى لا تسقطا من محجريهما ليتأكد أنه لا يحلم وأن ما استنتجه هذا حقيقيٌ بلا مراوغات، فهب ناهضًا على قدميه جافلًا وهو يقول سخطًا على غباء صديقه:

- ألم تفهم بعد؟ ذلك الشبح يقتل كل من يمكنه فضح أمره، ابتداء بالقط الذي يمكنه استشعار وجوده، مرورًا بإحدى الخادمات منقطعة المعارف، تحقد على أسيادها وابنتهم المدلّلة البلهاء، انتهاء بالحارس مدمن الحشيش ضيِّق البال الذي لا يطيق سخف الأطفال المحادثين للفراغ.

لماذا كل شيء واضح هكذا في عين (آدم)، بينما (أسامة) ما هو إلا أحمق كبير؟ لكنه ليس مُلَامًا على تلك الهفوات غير المقصودة، فتلك أمور بسيطة لا تُلاحَظ. ولو لاحظتها لاتهموك بالشعور بالمؤامرة وأنك لست سوى مهوِّل للأمور البسيطة. فكيف تلاحظ أن القط اختفى بعد عدة أيام من المواء المضطرب المزعج

وحالة من الانتفاضة أصابت جسده؟ كيف تلاحظ أن الخادمة تركت العمل بعدما أمرت (إيمان) في سخطٍ، بأن تتوقف عن أمور توهم الأطفال السخيفة تلك؟ كيف تلاحظ أن الحارس قد مات بعدما قال للفتاة أن ترحل بخرفها الواهم هذا لتلهو بعيدًا عنه في قلة صبر ليتمتع هو بجلسته المزاجية؟.. بالتأكيد لم يلحظ كل هذا رغم وضوحه الشديد.

فقال (أسامة) وعيناه تتسعان في جزع بعد ما استوعبه بتلك اللحظة:

- اللعنة.. تلك الشبح تُقدِم على إخفاء كل مَن يعترض على وجودها أو يسخر منها.

- أو قتله.. فأنت لم تتأكد أن الخادمة (كريمة) هربت مع عشيقٍ أم لا، وبالتأكيد يمكنها قتل القط بكل سهولة وإخفاء جثتيهما.

صمت (آدم) قليلًا وهو يبتلع ريقه ثم أردف:

- لكن يظل مقتل مدير أعمال (المسعودي) لغزًا.. فلماذا قتلته (دنيا) وتركت جثته هكذا دون أن تخفيها مثل السابقين؟ ولماذا قتلته على أي حالٍ؟، فأنا لا أعتقد أن الوقت قد سمح له ليسخر من الصديق الخيالي لفتاة ذات سبع سنوات.. فحسب ما سمعته، فقد دلف الرجل للنوم بمجرد وصول...

قاطع (أسامة) كلمات (آدم)، واقفًا وهو يسأل في سخط:

- لا أحتاج مزيدًا من التبريرات.. ابنتي تحيا مع شبح خالتي الذي يقتل الأبرياء على أسباب تافهة.. لا أهتم لم فعل هذا أو ما تفسير ذلك.. علي حماية ابنتي.

كان (آدم) شاردًا ينظر للسقف كما لو أنه يتعمق في شيء ما، فصاح (أسامة) بسخط أكبر، حاثًا إياه على الإصغاء له، لكن (آدم) ردّ عليه إن كان قد سمع مثله هذا الطنين؟.. كاد (أسامة) أن يسبه أو يلكمه أو يقذفه بأقرب كتلة تتعثر بها قبضته من أثاث الحجرة، مطلقًا العنان لغضبه على تفاهة ما يثير انتباه (آدم) في هذا الموقف المشحون بالتوتر. ليبادره (آدم) آمرًا بحزم أن يغلق فمه الثرثار ويطلق العنان لأذنيه على اتساعهما. فأرهف كلاهما السمع، ليصل لآذانهما صوت طنين خافت يأتيهما من الحين للآخر من خارج الحجرة.

أخيرًا سمعاه بعد كل هذه الفترة من الجدال والنقاش والصياح، لكن هناك شيئًا آخر وصل لمسامعها!! كان صوت صياح أنثوي صغير! كان صوت (إيمان) وهي تصرخ كما لو أنها هوت بالجحيم ذاته!

(19)
لأجلك

12/2/2005

الأقصر

التاسعة والنصف مساءً

خرج الرجلان من الغرفة وهما يهرولان لحجرة (إيمان) بنفس الطابق، حاول (أسامة) اقتحام الحجرة لكن الباب كان موصدًا. لم يأخذ الكثير من الوقت في تحليل الموقف، فراحَ يُطالِع (آدم) بنظرة فهم مغزاها.. من الجيد أنهما رجلان عفيان عمليان.

تراجع كل منهما بضع خطوات حتى التصق ظهراهما بحافة السلم (الترابزين)، ثم ركضا نحو باب الحجرة قبل أن يثبا مصدرين كتفيهما للباب لينكسر الجزء الخشبي المتصل بمقبض الباب عن حافة الجدار، كاشفًا عما كان بأحشائه.

لقد كان الباب موصدًا لسبب يجهلانه رغم أنه لم يكن مغلقًا بأي نوع من الأقفال أو المفاتيح، لكنهما لم ينتبها لتلك النقطة.. فقد استطاع المشهد بداخل الحجرة أن يجذب كل حواسهما وتركيزهما ببراعة.

كانت الحجرة كما هي بلا أي كسر في محتوياتها. الفراشان مهندما الملاءة ومنظما الوسائد، الدولاب مغلق على ملابس مطوية في نظام، ألعاب الفتيات بعضها في ركن الغرفة والبعض الآخر مبعثر في منطقة تنم أن أحدهم كان يلهو بها منذ توانٍ.. كل شيء منظم، وكل صوب طبيعي. في استثناء أن كل شيء رأس على عقب!

لا.. هذا ليس تعبيرًا مجازيًا، فقد كانت كل الموجودات مقلوبة! كل شيءٍ معلّق بالسقف في مشهد خارق لكل قوانين الجاذبية!

كانت (إيمان) تطفو في منتصف الحجرة مقلوبة الوضع هي الأخرى مثل كل الموجودات بالمحيط. فرأسها لأسفل وراحة قدمها على بعد مترٍ من سقف الغرفة..كانت تسبح في الفراغ بأريحية صامتة.

توقفت شخصية (أسامة) العملية عن الحركة بعدما أبصر ابنته في هذا الموقف العجيب الذي يجعلك تفرك عينيك عدة مرات للتأكد أنك يقظ ولست غافلًا وسط حلمٍ سخيف، ثم تنتصب شعيرات ذراعك عندما تتيقن أن ما تراه ليس بخدعة ما، بل هو واقع.. لكن أي واقع جهنمي هذا؟

لم تكن حالة (آدم) تختلف كثيرًا عن حالة صديقه.

نفس الإجفال، وذات التخشب في الوقفة، ونفس العيون الجاحظة التي ترمق المشهد في عدم تصديق، وذات النفس المذعورة. لكنه لم يكن ينظر للفتاة، بل كان يعلّق نظره على (دينا) -أو بالأصح (دنيا)- التي كانت تقف على قدميها وكفيها على أحد جدران الحجرة وتنظر لهما بعينين ناصعتي البياض تمامًا، يختفي منهما أي أثر لبؤبؤ العين.مرتدية ذات الفستان الأزرق الذي لم يشهدها دونه منذ أن رآها لأول مرة. في وضع أشبه بالعنكبوت الذي يراقب فريسته بنشوة وهي مقبلة على مصيدته المحكمة.

فصاح (أسامة) صوب (آدم) حاثًا إياه على التحرك لفعل شيء ينقذ به ابنته، مخلفًا ذلك التصلب في أعقابه. وهو يؤكد على عبارة أنه الخبير واسع الحيلة بالحجرة. فرمقه (آدم) باحتقار قبل أن يوجه له سبة بذيئة على تصديره وحيدًا لهذا الموقف العجيب الذي لم يشهد له مثيلًا في حياته، ثم تقدم بخطى مرتعشة لداخل الحجرة جاهلًا ما عليه فعله.

كان (أسامة) يريد إنقاذ ابنته من هذا الوضع الشيطاني لكن التردد تملكه، فما أدراه أن إسراعه لنجدة ابنته لن تجعلها تهوي بهذه الوضعية على الأرض الخشنة لتنفجر الدماء من رأسها أو تتهشم جمجمتها؟

لذلك وجب عليه التصرف بحكمة، والاستعانة بعون صديقه الخبير بكل شيء كما يزعم.

فصاح (آدم) مدعيًا الثبات محاولاً كتم رجفته الخائفة:

- أنا لست خائفًا منك أيتها الروح.. لقد تم استدعاؤك عن طريق سحر الفودو وأنا محصن منه، لذلك أمرك بأن تتركي الفتاة تذهب وسندعك بدورنا في سلام.

كان في موقف لم يحسد عليه قط. فرغم رؤيته للكثير من جلسات التواصل مع الأرواح بل وتواصله مع بعض أرواح أجداده شخصيًا بالفعل، إلا أن هذه هي مرته الأولى لمواجهة أحدهم وهو في نوبات سخطه، بل وله عدة سوابق في قتل الأبرياء.

لم يدرك (أسامة) إلى من يوجِّه (آدم) حديثه أو الى ما يقترب، فمشهد الفتاة التي تقف على أربع على الجدران تلك، عجزت عينه البسيطة عن استبيانها رغم بروزها بوضوح للحاضرين. يبدو أن (آدم) يستطيع رؤية الكثير مما يعجز عن استيضاحه الآخرون.. لكن لماذا؟ لماذا تسمح له روح (دنيا) برؤيتها عن غيره؟

لم يكن هناك وقت لهذه الثرثرة؛ لأن الفتاة قد انقضت على (آدم) كالثور الهائج لتطيح به خارج الغرفة بأكملها اندفاعًا، ليهوي من الطابق الثاني قاصدًا

الطابق الأرضي! فحتى عندما اصطدم ظهره بحاجز السلالم للطابق (الترابزين) الصخري، لم يمنعه هذا من السقوط، بل تحطم الحاجز لتطيح أجزاء منه بدورها معه لتحتضن أرضية القصر لأول مرة.

كان شبح الفتاة متشبثًا بتلابيب ملابسه أثناء السقوط. لكن ما أبصره ببياض عينيها، جعل الزمن يبطئ من حوله!

رأى صباه عندما كان يتنقل بالإجازات للبرازيل مع والدته! أيام براعمه وهو يتعلم البرتغالية ويخلطها بالعربية! أمه وهي تُجري طقوس الفودو لأول مرة! الغرفة السرية بمتجر والدته التي تقوم بها بأعمال سحرها الأبيض الخفي! نفسه وهو ينغمس في تلك الجلسات للتعلم منها أو إتمام تعاويذ الحماية عليه شخصيًا من الفودو الأسود! أول حب له! سنوات الجامعة وأيام العمل المرهقة! شريط حياته الحافل أمام عينيه والذي كان غارقًا به حتى أخمص القدمين بالسحر الأبيض!

إنه ذلك الشعور الذي يتم يصويره بالأفلام قبل الموت. لكن مهلاً، هل يموت حقًا! هل يتم التهام روحه للتو على يد تلك الروح البغيضة؟ لكن الأرواح ليس بمقدورها فعل هذا، إنه فعل الشياطين! من يهتم الآن

لمثل هذه المسميات.. فهل لو غرست نابيها بعنقه الآن سيزعم أن هذا من فِعل مصاصي الدماء وهي ليست بواحدة منهم! إنها تقتله وهذا هو المهم، لهذا وجب عليه التصرف.. لكن كيف!؟

لو كان هذا مشهدًا سنيمائيًا لتم تصويره بالحركة البطيئة وتعميق الكاميرا لبؤبؤة عينيه اللتين تتحركان في محجريهما بسرعة جنونية، قبل أن يعود له وعيه وينتبه أنه يسقط من ارتفاع يتجاوز العدة أمتار. فانتزع (آدم) سكينه الفضي ذا المقبض الخشبي من جوربه ليغرسه في معدة الفتاة بحركة سريعة دون تردُّد، لتصرخ هي بدورها في ألمٍ فتتوقف عن امتصاص روحه أو مهما كان ما تفعله.

كانت صرخة الفتاة عالية لدرجة أنها جعلت الأثاث بحجرة (إيمان) يهتز في خوف من دوي هذه الصرخة، التي وصلت لمسامع (أسامة) وهو يرى صديقه يهوي في فراغ القصر، فسرعان ما ميز أن تلك الصرخة ليست من عالمنا، بل هي صرخة جحيمية بكل المقاييس، لدرجة أنها جعلت (إيمان) تعاود قواعد الجاذبية وتسقط بأرضية الحجرة أخيرًا، ليركض (أسامة) ناحيتها ناسيًا أمر (آدم) تمامًا. الذي لامس هو الآخر أرضية القصر أخيرًا في ارتطام أليم. فراح

السواد ينتشر أمام عينيه، ليستريح قليلًا في عالم الإغماء من هذا الألم ومن قبله هذا الإجهاد الذهني، تاركًا (أسامة) في مواجهة هذا الهول.. وحيدًا..

***

فتح الأب باب المنزل قبل أن يدلف ابنه للشقة راكضًا لغرفته بعد ضغطٍ مستمرٍ لجرس الباب يدل على حالة من الغضب تعتري القارع.

أسرَعَ الأب لحجرة ابنه التي اختفى في ظلامها، ليضغط قابس الإضاءة، فيصدر ذلك الطنين المبدئي الممهد لسريان الكهرباء في الأسلاك، لتذكر المصابيح بوظيفتها الأساسية. فيبدّد ضوء المصباح ظلام الغرفة المشؤوم ليكشف عن الطفل الصغير وهو مكتنز في أحد أركان الحجرة ضامًا ركبتيه لجسمه، دافنًا رأسه الصغير بين ذراعيه.. وهو يبكي.

أجفل الأب من هذا المشهد فتقدم نحوه وهو يصيح في نوعٍ من الخوف على ابنه ممتزجة بالغضب من حالته تلك:

- (آدم).. ماذا هناك؟ لمَ تبكي هكذا، أحدثَ شيء ما؟

ظل (آدم) ذو الأحد عشر ربيعًا كما هو يبكي بلا سبب معلوم بصرخات مكتومة، فتقدم الأب ليجلس على الفراش ثم حمل (آدم) ليجلسه بجانبه، دون أن

يبدي الطفل أيَّ نوعٍ من المقاومة، كما لو أنه قطعة عجين يسهل تشكيلها. مسح الأب للصغير عينيه من الدموع وهو يسأل في نوعٍ من الرفق عما حدث لصغيره، مطالبًا إياه بإعلامه بما حدث وسوف يتصرف هو آخذًا حق (آدم) إن ضايقه أحدهم.

بعد عدة انتحابات، أخيرًا نطق الصغير:

- أريد العودة مع أمي للبرازيل يا أبي ولا أعود لهنا مرة أخرى.. الأطفال هنا ينبذونني بسبب عيني ويطلقون عليّ لقب (آدم أبو عين زجاجية) وينهالون طوال الوقت في السخرية مني، على خلاف أصدقائي في البرازيل الذين يلعبون معي في تناغم دون ذِكر الأمر حتى على مسامعي.

ابتسم الأب على سذاجة الأطفال الذين شبهوا عين (آدم) بعين إحدى حكايات الجدات المخيفات وهي (الجني أبو عين زجاجية) وهو على غرار (أبو رجل مسلوخة) أو (أمنا الغولة) والكثير غيرها من حكايات ما قبل النوم المخيفة.

فقال بعد أن دارى ابتسامته:

- عليك أن تتعلم الدفاع عن نفسك ضد كل تلك الكلمات المهاجمة، وإعادة توجيه ما يشابهها على عاتقهم.. فلا أحد يمتاز بالكمال، فكل منهم به عيب

يحاول إخفاءه وراء ستار السخرية من الآخرين أو ادعاء اللامبالاة.

توقف (آدم) الصغير عن النحيب قليلًا، ثم سأل والده وعينه تلمع من أثر الدموع عن سبب اختلاف لوني حدقتيه بهذا الشكل الشاذ عن الآخرين، ليبتسم الأب مجيبًا:

- إنها حكمة الله يا بني.. هو من أراد أن تمسى عيناك هكذا، وهو من أراد أن يضحى لي كرش ضخم كهذا.

قالها الأب مشيرًا على نتوئه بالمعدة الواضح للعيان، ليبتسم (آدم) بدوره، فيستأنف الأب مردفًا:

- الله لا يفعل أي شيء عبثًا، فكل شيء له حكمة ومغزى بالنهاية، فشجرة التفاح المحرمة لم تكن عبثًا، ابتلاع الحوت لـ (يونان-يونس) لم يكن عقابًا عابرًا، أمرُ الله لـ (إبراهيم) بقتل ابنه لم يكن للمرح.. عينك لها فائدة في اختلافها، قد لا تعرفها الآن، لكنك ستعلم بها عما قريب.. وكل ما عليك فعله الآن هو الفخر بها.

احتضن الابن أباه بعد هذه الكلمات، التي بالرغم من قلتها إلا أنها كانت كل ما يحتاجه لتهدأ روحه الصغيرة المنزعجة.

تدلف الأم للحجرة بجلبابها الفيروزي البرازيلي المعهود، لتقـ...

مهلًا لحظة! ما الذي تفعله الأم هنا؟ المشهد السابق مرَّ بالفعل بآدم في صباه، لكن الأم لم تكن به! ما الذي يحدث!؟ هذه ليست ذكرياته!

- عليك أن تفيق يا (آدم)، فصديقك وابنته بحاجة لعونك.

ترجّل (آدم) من الفراش بخطواته الصغيرة ليستقيم أمام الأم، قائلًا:

- ماذا أفعل يا أمي؟ أنا لم أتعامل مع أرواح مشتهية بالانتقام من قبل، ثم إنها تخطت تعاويذ الحماية خاصتك!

- أعلم يا (آدم) لكن هنالك الكثير من الأمور لم تلحظها بعد.

ليستفسر الصغير بلهفة بصوته الناعم عن ماهية هذه الأشياء.

فجأة تهدمت الموجودات من حولهما كالزجاج المتهشم نتيجة قذفه بالصخور، على ذبذبات صرخة مدوية. ليغطي اللون الأبيض المكان. ثم يتحول آدم لصورته الكبيرة الحالية وهو يبصر أمه بوجهها الخمري الجميل وشعرها المجعد بأيام شبابها.. لتصرح الأم بعد صمت:

- أنت تعلم كيف تتخلص من الأرواح، لكن هذا ليس

بالخيار المسموح به الآن لذا عليك الارتجال.

فأجاب (آدم) بصوته الخشن الذكوري:

- كيف أفعل هذا؟

- تذكر أصل هذه الروح واستغله ضدها، تذكر الرابط.. أما الآن.. فعليك أن تستيقظ.

***

كان هناك خيط بسيط من الدماء ينسال من حاجب (إيمان)، حمدًا لله أنه لم يكن بالأمر الضخم بعد سقوطها هكذا من طفوها العجيب.

بعدما اطمأن (أسامة) أن ابنته بخير، حاول أن يحملها ليهرب بها من هذا المكان اللعين، لكنه شعر أنها ثقيلة كفيلٍ! وكأن هذا ما ينقصه..كانت ابنته تطفو في الهواء كما لو أنها بالونة هيليوم منذ ثوانٍ، والآن هي تركض أرضًا كما لو أن الجاذبية انتبهت لتقصيرها السابق وعادت لتصويبه بشكل أكثر تطرفًا! أهناك شيء آخر ينقصه ليجعله يفقد عقلة الآن؟ وليته لم يسأل هذا السؤال السخيف في باله. حيث وجد جسده يرتفع بعنف، ليلتصق بالسقف في بأس!

لو كان تحرك عدة سنتيمترات لليمين، لكان هناك عمود معدني ملطخ بالدماء، ينبعج من بين قفصه الصدري، نتيجة تحطيمه لمروحة السقف بظهره ونتوء

عنقها خلال جسده.

ظل يرمق المروحة بعيون يتطاير منها الخوف، لكن ما يحدث على أرضية الحجرة أكثر تشويقًا.. بعيون غير آدمية لا تصل مداها إلا إلى (إيمان وآدم) نبصر (دنيا) وهي تدلف من باب الغرفة، منكوشة الشعر، وهي تقبض بمعدتها التي تؤلمها موضع طعنة (آدم) لها، محاولة إيقاف الدماء التي لطخت جزءًا لا بأس به من فستانها الأزرق، ولكبتِ هذا الألم الذي تملك حيزًا ضخمًا من كيانها، متمتمة بكلمات يبدو عليها أنها أنواع جمة من السباب نسبة إلى تعابير وجهها المشحونة بالغضب.

أفاقت (إيمان) أخيرًا، لتفاجأ بأن والدها معلّق بسقف الحجرة مع بقية الأثاث بشكل عجيب، فلولا مروحة السقف وموضوع باب الحجرة لظنت أنها هي من معلقة بالسقف لا العكس. لكن مفاجأتها تلك لم تدم، حيث زادت أضعافًا بعدما لاحظت عبث الجاذبية حولها في عدم استطاعتها لتحريك جسدها. لم تتمكن إلا بتحريك عينها في محجريهما، لتمسح به المكان مبصرة (دنيا) التي بادرت بالحديث وهي تشير لجرح معدتها:

- انظري ماذا فعل بي والدك. لقد أحضر صديقه القاتل للتخلص مني وتركك وحيدة.

فسألتها (إيمان) وهي موشكة على البكاء عما اصابها هي ووالدها، وعن السبب وراء عدم مقدرتها على الحركة.

وصلت كلمات (إيمان) لأذن والدها الذي صرخ بدوره بعدما استنتج الحدث على أرضية الحجرة بحضور روح (دنيا) من جديد:

- ابتعدي عن ابنتي أيتها الحثالة، إنها ليست سوى فتاة صغيرة، تعالي وتعاملي مع من في نفس حجمك.

قالها ماسحًا المكان بعينه آملًا التعثر بها، فهي لا تزال خفية عنه. فازداد أحمرار وجه (دنيا) غضبًا حتى كادات الأبخرة الحارة تتصاعد من أذنيها كتمهيد لثورة بركان سخصها، لتشير صوب (أسامة) وهي تصيح:

- أترين؟ هذا الكائن الحقير، لا يريدك أن تنعمي بأي سعادة.. كنت أعلم هذا منذ البداية وأنتِ من كنتِ تحامين عنه.. لهذا وجب عليه الموت كالباقين، يجب أن يموت الجميع.. حتى نبقى أنا وأنت.

ثم بدأت (إيمان) بالصراخ كرد فعل طبيعي على هذه الكلمات المشخونة بالجنون، ليعاود (أسامة) توجيه سبابته إلى (دنيا)، التي قالت وهي تتقدم نحو الفتاة مقتحمة الحجرة:

- هيًا بنا يجب أن تختبئي في مكان ما حتى أنتهي

مما أريد فعله.

شرعت آثار الدماء في الاختفاء عن جانب (دنيا)، وعن كافة ملابسها، مخلفة في أثرها فستانها الأزرق المعهود كما لو أنه عاود جديدًا.. فمنذ متى والأشباح ينزفون دمًا من الأصل؟

أمسكت (دنيا) بكاحل الفتاة وبدأت في جرِّها نحو باب الحجرة كالماشية عندما يتم جرهم للذبح، لقد عادت للفتاة القدرة على تحريك جسدها؟!

ومن يهتم لهذه الملاحظات، فيبدو أن هذه الحجرة تسير فيها قوانينها الفيزيائية على هوائها الخاص، فلا تستبعد أن يتحول سقف الغرفة لمادة هلامية أو تبرز الأيادي الموحشة من الأرضية السائلة لتبتلع أول شيء تقابله.. كل هذا جائز لكن دعنا نأمل ألا يحدث.

حاولت الفتاة أن تتشبث بشيء وهي تبكي مستنجدة بأبيها، لكنها لم تجد إلا الفراق، فكل أثاث الحجرة يجرب الالتصاق بالسقف لأول مرة على شاكلة الحجرة المقلوبة.

رأى (أسامة) الفتاة وهي تسحب خارج الحجرة من الفراغ، فصاح والخوف يتراقص أمام عينيه، باسم (آدم) طالبًا منه العون أو النجدة. توقفت (دنيا) وهي تتطلع له بحدة، قبل أن تغمغم بصوت لا يسمعه:

- سأنتهي منك أولًا ثم سأعاود لصديقك العجيب هذا.. فأنا سأوفر له الكثير من المرح.

ليصل لمسامعها صوت يأتي من خلفها قائلًا:

***

فتح (آدم) عينيه بتثاقل ليرى سقف القصر البعيد والغرفة متراصة من حوله بشكل دائري مميز. تصادمت الذكريات برأسه ليتنبه لما حدث من أهوالٍ، حاول النهوض لكنه شعر بألِم سحيق في ظهره، فتراجع عن الأمر وهو يئنّ، وصل لمسامعه بعض الصرخات الطفولية، فتذكر صديقه وابنته الصغيرة في ورطتهما الكبيرة.

عليه أن ينهض، عليه أن يتحامل الألم، عليه حمايه صديقه. إنهما يواجهان شبحًا ثائرًا وحديهما.. عليه نجدتهما.

عاود في مثابرة للنهوض حتى أتمها أخيرًا، ضاغطًا على أسنانه في محاولته لكتم ذلك الألم الضارب بخلجاته في سادية، مسح المكان الذي سقط به بعينه حتى وجد ضالته..سكينه الفضي الصغير. التقطه وراح يتحرك بتثاقل ناحية غرفة (إيمان) في تثاقل، حتى طرقت لأذنه استغاثة (أسامة) الطالبة العون منه شخصيًا. بصق بعض الدماء التي تحشرجت في حلقه،

ثم عاود الركض أملًا أن يزيده الأدرينالين نشاطًا. لم ينتبه لما أصابه من كدمات أو إصابات، فمع كل صرخات الفتاة، لا يمكنك التركيز في شيء آخر غير نجدتها.

وصل لغرفة (إيمان) بالطابق الثاني ببصره لكنه لا تزال هنالك بعض الحجرات التي تحول بينهما، عليه تخطيها أولًا ليبلغ المكان بجسده أيضًا.. بعد أن تدارك ساقه اليسرى وما يشوبها من عرجٍ أثر السقطة، لكنه لم يهتم ولم يلاحظ.

طرق لمسامعه بمجرد اقترابه من حجرة الفتاة عبارة:

- سأنتهي منك أولًا ثم سأعاود لصديقك العجيب هذا.. فأنا سأوفر له الكثير من المرح.

هنا قرر أن يتدخل بعدما رأى طيفَ (دنيا)، فانقض عليها صائحًا:

- ولمَ الانتظار؟

وهو يندفع للفتاة ليغرس سكينه الفضي في معدتها للمرة الثانية، تحشرجت الكلمات في حلقها لتنفتح عينيها على اتساعها في ألمٍ قبل أن يشحب لونها، متحولًا لما هو أقرب من الطابع الشفاف وتختفي في العدم تاركة السكين الفضي يطعن الهواء.

شعر (أسامة) بأن الجاذبية عادت للعمل، حينما استطاع أن يحرك يديه بعد محاولة لفك وثاقه الخيالي لم تتوقف منذ تعليقه هكذا. فهوى أرضًا، لكنه استطاع أن يحمل السقطة على كاحليه وراحتي يديه، لتخفيف أثرها.

تحركت الفتاة هي الأخرى لتنهض وتحتضن والدها مهرولة، لتمنحها ضمَّته نوعًا من الأمان من هذا الهول المحيط بهم.

هنا شعر (آدم) أخيرًا بالألم في ساقه التي التوى بها كاحله بعد إتمام الأدرينالين لوظيفته وقد حان موعد رحيله ليذكره بالوجع الحارق في ظهره، غير صعوبة تنفسه التي تنم أن هناك ضلعًا قد كُسِرَ من قفصه الصدري. تمنى أن تكون تخميناته خاطئة وأن الأمر لا يزيد عن مجرد كدمات بسيطة، لكن أمنيته الأهم أن يكون الأمر قد انتهى بالفعل، رغم تيقنه أنهم لا زالوا في بداية ليلتهم فحسب.

فغمغم (آدم) مقاطعًا للمشهد، بأنه ليس وقتًا للحظات الأسرية، فلا يزال الخطر قائمًا. تنبه (أسامة) لكلمات (آدم) الذي ترنح في وقفته من أثر الألم الساري بأوصاله مهشمًا تمالُكه لطاقته. فنهض (أسامة) عن الأرض وهو لا يزال يضم ابنته لتلتصق بساقيه،

مستفسرًا أن (آدم) لم يقتلها منذ ثوانٍ؟ فقد رآه يطعن شيئًا ما بالهواء. أشار (آدم) لسقف الحجرة، بنظرة ذات معنى، ليبصر (أسامة) الأثاث الذي لا يزال يلتصق بالسقف، ثم ناول (آدم) سكينه إلى (أسامة)، آمرًا:

- يجب أن ترحلا من هنا حالًا.. تناول هذا السكين ثم توجه للمطبخ وخذ معك بعض الملح.

فردد (أسامة) الكلمة الأخيرة كما لو أنه يتأكد مما سمعه للتو لاختلافه عن حدة الموقف الذي يمرون به للتو، ليجيبه أنه لا وقت للشرح الآن، لكن عليه ترك المكان بجل ما يملك من سرعة.. فتلك الروح تريد ابنته وستعود بأي لحظة. ثم تركه (آدم) ليرحل عن الغرفة في عجلة، محافظًا على جسده في حالة حركة وإلا سيفقد الوعي من الألم من جديد مع أي لحظة تراخٍ، فصاح به (أسامة) مستوقفًا، مستعلمًا عن وجهته الغامضة وعن سبب عدم مشاركتهم الهروب. ليتوقف (آدم) وهو يستند للحائط ملتقطًا بعض أنفاسه، قائلًا قبل أن يعاود العدو من جديد:

- سأقضي على الرابط الذي يثبتها بعالمنا.. كما ذكرتني أمي.

(20)

لأجلنا جميعًا

5/12/2015

الوادي الجديد

التاسعة مساءً

كنت أتناول وجبة الحاجة (آيات) للعشاء ذات الطابع الدسم المدججة بالسمن البلدي والروائح العطرة الدسمة.. حضرت العشاء المصري المعهود من أوراك الدجاج المحمرة وأطباق حساء لسان العصفور الشهيرة:

فسألت الحاجة وهي تضع زجاجة بلاستيكية من الماء على طاولة الطعام بقلق حقيقي:

- طمئني عليك يا بني.. ماذا حدث بعد ذلك؟

كان هذا أول سؤال ينبع منها عقب إنهائي لسرد تفاصيل اليوم بأكمله بداية من الحلم، نهاية بالحادث الأليم، لأجيب بالنهاية:

- لا شيء جديد.. أتت الشرطة مصاحبة الإسعاف والمطافئ بعد أن انتهى الحريق ذاتيًا، متأخرين كعادتهم، ليبدأوا التحقيق في سبب الانفجار.. لكن الاستنتاج المبدئي هو انفجار غازي.

فسألت متعجبة:

- غاز.. أي غاز؟ أليس منجمك هذا لاستخراج المنجنيز؟

- نعم هو كذلك، لكن هذا لا ينفي وجود معادن أخرى بالأنقاض. فقد صادف وجود بعضٍ من الحديد والفحم بالمناجم المجاورة وليس بالبعيد وجود غاز طبيعي.

ظللت أمضغ بعض نسائل الدجاج بفمي ثم أردفت بعد أن ابتلعتها:

- تقول الشرطة -كاستنتاج مبدئي أيضًا- أن أحد العمال توصل لمنطقة مدججة بالغاز، فأدى لتسريبها بدون وعيٍ عن طريق ضربها بفأسه. فتفاعل الغاز مع المصابيح الغازية مودية لهذا الانفجار، حارقًا معه كل زملائي.

تنهدت الحاجة ثم حمدت الله بأريحية أنني كنت بعيدًا عن أثر الانفجار، مترحمة على باقي زملائي في عبارة واحدة، فتوقفت عن تناول الطعام لأقول بجدية:

- لكني كنت على دراية كاملة بما سيحدث.. لقد حلمت بموتهم.

- لكنهم لم يموتوا بنفس الطريقة التي تصورتها!

أجبت في عبوس:

- نعم لقد انفجر المكان، وهذا ما يشعل الجنون

برأسي..إذًا ما كل هذه البشاعة والدماء التي حلمت بها.. لقد عاشرت العمال، بنفس الأحداث الخاصة بالولوج للنفق رقم (6).

- ربما حكايات أصدقائك عن (أبا الحسني)، أثارت الرعب في نفسك، محرضةً عقلك الباطن عليك بالأحلام.

- هذا احتمال مستبعد.. فأنا لم أخف من (أبا الحسني) من الأساس بل كنت على نية تحدي الأمر.

هنا استجمعت شتات أفكاري لبعض الوقت، سائلًا نفسي أهم سؤال:

لمَ لم أخف من (أبا الحسني) من الأساس؟ قد تكون شخصيتي تغيرت بعد مرضي وأصبحت أكثر ثقة بنفسي، لكني لم أكن أبدًا بالأكثر عنادًا أو شجاعة. قد أكون ساخرًا مثل موقفي مع الدجال، لكن سخريتي تلك أحتفظ بها في قرارة نفسي دون البوح بها على الملأ، بحيث يظل على شاكلتي الرهبة فحسب. لمَ أصررت هكذا على كشف سر (أبا الحسني)؟ ماذا سأستفيد أن أثبت صحة كلامي على أي حال أمام قوم أغلبهم ينتهي تعليمه عند الشهادة الابتدائية؟ أنا أحفظ شخصيتي جيدًا مهما طرأ عليها تغييرات، ومن رأيتموه منذ بضع صفحات هذا، لم يكن أنا، كما لو أن أحدهم

يستحوذ على تفكيري لإجباري على تلك الحماقة.

فوجهت حديثي للحاجة (آيات) سائلًا إن كانت تعلم أي شيء عن (أبا الحسني) باعتبارها من سكان المنطقة الأصليين؟ فما سرده (صبري) عن الرجل ذاته لم يكن بالمجدي على نقيض حكايات الحوادث تلك. توقفت الحاجة (آيات) عن تناول الحساء، ثم أردفت وهي تمسح فمها بكم جلبابها، أنها تعلم عنه الكثير دونًا عن غيرها. فتهللت أساريري مطالبًا إياها بقص ما تعرفه على مسامعي. لتشرد بعينها كما لو أنها تعود للخلف بذاكرتها:

- (أبا الحسني) هذا تنوعت عنه الأقاويل التي وصلت لحد الأساطير، فهناك من ادعى أنه مخاوٍ للجان ويحدثهم همسًا أو جهرًا بلغة غريبة، وهناك من روى أنه ولي من أولياء الله الصالحين أصحاب الخطوة ومالكو الخدام، وهناك من صرح بأنه مجنون ولا يمت للعقل بصلة رغم ثرائه، وهناك من قال وعزم وأقسم على أشياء متنوعة عن هذا الرجل، وتعددت حكايات الليل للأطفال.

لقد كونت صورة لا بأس بها عن ادعاءات الناس عن الرجل التي تخطت كافة الأساطير التي سمعتها يومًا، لكن السؤال هنا:

- لمَ كافة تلك الأقاويل تقال عن رجلٍ واحدٍ؟ ما المميز به لهذه الدرجة؟

- كانت طريقته في التعامل مع الآخرين عجيبة للغاية، فقد تحوَّل الرجل الثري صاحب الأراضي والمشروعات، لكائن ذي نظرات غريبة يرمق بها المارة، يتلفت حوله أينما ذهب، يحملق في اللا مكان كما لو أنه يرى شيئًا يفوق العين الآدمية على تحديده.. كما لو أن أحدهم يتربص له أو يراقبه لسرقته.

ذكّرَتْني كلمات الحاجّة (آيات) بشيء بالغ في الخطورة. ليس إن (أبا الحسني) كان مريضًا ببارانويا الارتياب مثلي، فهذا الأمر بات بديهيًا. لكنني تذكرت شيئًا آخر، له علاقة بجلستي الأخيرة مع طبيبي النفسي.

***

- الأمر يعود لسبب هذا المرض وهو الحادث. لو استطع...

ها هو الطبيب يتحفني بأحد توقعاتي من جديد، يبدو أنه ضيق الأفق بعد كل شيء، لكنه أيضًا ليس بالمعالج المناسب.

نهضت من مجلسي عازمًا على المغادرة، تاركًا الطبيب بحكمه المعهودة التي مللتها حد الاختناق

والجلسة التي لم يمر على بدئها إلا دقائق. لكن الطبيب أستوقفني في حزم آمرًا إياي بالجلوس بمقعدي دون البراح عنه وإلا أودعني بمشفى الأمراض العقلية.

نظرت له بنفس الغضب المتبادل، سائلاً إن كان هذا تهديدًا؟.. لم أتعلم الغضب يومًا الذي تشهده مني الآن، إلا على يد هؤلاء الأطباء وحلولهم المؤقتة لحالتي.

فردّ الطبيب بكل هدوء وهو يسترخي في مقعده، بأنه طبيبي النفسي وله الحق في ذلك ما دام يرى عدم استقرار شخصيتي. فعدت لمجلسي وعلامات الفضول تحل موضع معالم الغضب، قبل أن أستعلم في جهلٍ إن كانت حالتي غير مستقرة بالفعل؟

لم يجِبني بالبداية ليوضح لي مدى أهمية دوره وحوجتي لمشورته العظيمة بحياتي أو شيء من هذا الهراء. لكني تحملت عجرفته، حتى قال بالنهاية:

- حتى الآن مستقرة. لكن رفضك لفكرة العلاج النفسي والعداء الذي تصنعه معي من العدم لن يحل المشكلة أبدًا.. حالتك هكذا ستتدهور وتضحى خطيرة عليك وعلينا.

- ماذا تعني بلفظ (علينا)؟

- حتى الآن أنت تحافظ على استقرار حالتك، لكنها يمكن أن تتطور بأي وقت للأسوأ.. سترى حينها

الضلالات والأوهام أو تكره كل البشر على أقل تقدير، ستتطور حالتك لما يماثل الفصام، وأعلم أن الفاصل بين حالتك والغرق في بئر الفصام العميق، خط واهن ضعيف.. وبدون الجلسات النفسية أنت تقدم على قطع هذا الخط بيدك دون عمد منك.. قد تعتزل الحياة أو تنتحر أو تكشر عن أنيابك للعالم وتبدأ في قتل الأبرياء.

رددت الكلمة الأخيرة بعقلي وعيني تتسع عن اخرها في رجفة خائفة، قبل أن أسأل بلساني، إن كان مرضي قد يودي بي لقتل أحدهم؟.. ليرد بذات الهدوء السخيف متعمدًا:

- احتمال وارد.

- و لمَ لم يطلعني أي من الأطباء السابقين بهذا؟

- لا يمكننا مصارحة المريض بما يحدث من تطورات لحالته، حتى لا تشتت خلايا عقله ويقبل عليها مسرعًا. فلا يمكنني إخبار مريض (الميسوفوبيا) -وسواس النظافة- بأن حالته قد تودي به بالامتناع عن الطعام أو إيذاء النفس، لاعتقاده أن كل الطعام ملوّث، حتى جسده قد أضحى مستودعًا للبكتيريا. ولا يمكنني إخبار مريض (الأتيفوبيا) -الخوف من المرض- بأنه بنهاية المطاف سيعتزل العالم والحياة لظنّه أن حتى

الهواء العابر قد يسبب له التهابًا بالرئتين لما يحمله من عوادم حتى لو كانت بسيطة. هناك مدارك للمرض لا يعرفها العقل البشري، نحاول بقدر إمكاننا أن نشغله عنها قبلما يصل إليها.. لهذا من المستحيل علاج طبيب نفسي من أي علة نفسية، لأن عقله قد تحصَّن من العلاج ويسرع ناحية النهاية بالفعل.

صمت الطبيب هنيهة، ليسجل انفعالاتي مع كلماته في دفتره ثم أكمل:

- أما الآن عليَّ أن أنبهك لحالتك التي لا تهتم بها تلك والتي قد تودي بك لمشفى الأمراض العقلية لإيذائك للآخرين.

- لكني لم أؤذِ أحدًا بعد.

قلتها مترجرجًا نتيجة لتحشرج الكلمات بحلقي وأنا أتخيل نهايتي المأساوية، فأبتسم بهدوء ثم أكمل:

- وظيفتي ليست فحسب تشخيص مرضك وعلاجك.. بل هي تتضمن أيضًا تقدير مراحل تطوُّر المرض بك، ومنعها من إيذاء الآخرين بأي وسيلة.. فأنا لن أنتظر لتؤذي أحدهم ثم أتصرف.

ظهرت على وجهي علامات الصدمة والقليل من الحزن، ليكمل هو:

- لا ضغائن شخصية بالأمر، فهذا عملي.. فلا يمكنك

رؤية أحدٍ يزرع قنبلة بالمترو وتتركه يذهب في سلام لأن القنبلة لم تنفجر بعد.

لقد فهمت مقصده تمامًا.. عليّ أن أحرص على جلسات العلاج أكثر، قبل أن أجد نفسي مرتديًا بيجامة زرقاء ومقيض بالأساور المعدنية (الكلابشات) بفراش معدني بغرفة مليئة بالأسرة المشابهة ويزين بابه كلمة (عنبر).

ربما حان الأوان لأصفي نيتي بهؤلاء الأطباء وأتقبلهم ولو قليلًا.

***

كانت هذه آخر جلسة لي مع الطبيب قبل أن أهجره بعدها لعدة أشهر من انتقالي للوادي الجديد، فحاولت مهاتفته بعدها على عيادته لاطلاعه على أمر هجرتي من العاصمة. لكن مجيبي على الهاتف كانت امرأة تصرِّح بأن عيادة الطبيب قد تم تأجيرها لإحالتها لما يماثل شركة ما لتوظيف الأموال! فسألتها عن الطبيب لتجيب بجهلها عن كنه، ثم شرعت تثرثر عن تعيينها الجديد بتلك الشركة وعدم فطنتها لكثير من الأمور غير المتعلقة بالعمل، فأغلقت المكالمة قبل أن تبدأ في سردها عن مشكلات غلاء الأسعار أو صعوبة المواصلات أو شيء من هذا القبيل.. ولم أهتم

بمحادثته من حينها، فقد تحسنت حالتي وهذا هو المهم.

فعدت أحادث الحاجة (ايات) مستعلمًا عما حدث بعد ذلك. فأجابتني وهي ترتشف بعضًا من المياه معلنةً بذلك أنتهائها من وجبة عشائها الصغيرة:

- جن جنون (أبا الحسني) بسبب تلك المهدئات التي أدمنها لفترة قبل أن تمحو له ما تبقى في رأسه من عقل حتى لو كان صغيرًا.. وبدأ في قتل الناس بالخفاء واحدًا بعد الآخر، اعتقادًا منه بأن هذا من يراقبه ويكن له الضغائن.. قتل أهله وأقاربه، حتى أصدقائه وبعض العاملين لديه.

لهذا أخبرني (صبري) أنه لم يرَه ولا يوجد أحد رأى أو عاصر (أبا الحسني) في زمانه، بكل بساطة لأنه قتل الجميع، كالمجرم الذي يخفي جريمته البسيطة بجريمة أبشع.. فعاودت أسألها عن كيفية اكتشاف تلك الجرائم، لتجيبني بسرعة كمن كانت تنتظر هذا السؤال:

- استطاعت إحدى ضحاياه الجديدة الهروب منه بحيلة ما قبل أن يوجز عليها.. فأتت بعد ذلك الشرطة للقبض عليه بعونٍ من الأهالي الذين لم يتمكن من رشوتهم أجمعين هذه المرة لستره جريمته.. سار معهم بهدوء في بداية الأمر كما يجاري الرضيع أمه بمحاولة

دفعه للنوم، لكنه سرعان ما أصابته حالة الجنون تلك من جديد، حيث راح ينتفض بين قبضتي العساكر، لينسل من بين أناملهم، سارقًا سلاح أحد الضباط من غمده الجانبي على غفوة منه، ليصوبه بعد ذلك لرأسه وهو يصرخ بكلمة وحيدة خاتمًا بها حياته وكانــ...

- كانت (توقفوا عن مراقبتي)، أليس كذلك؟

قلتها سريعًا، لتنظر لي بدهشة مؤكّدة على صحة تخميني، مستفسرة عن كيفية معرفتي بذلك الأمر..

كل هذا جميل. كل هذا خلاب.. لكن ما علاقتي أنا بالأمر، لمَ أنا عن غيري من حلمَ به وبموت الآخرين. أيريد أن يحذرني أم يهددني؟ وبكل الأحوال يظل السؤال قائمًا بِلِمَ هذا أو ذلك؟

فقالت الحاجة كما لو انها تذكرت شيئًا:

- نسيت إخبارك أن (أبا الحسني) كان مالك تلك الشقة والبناية برمتها، بل ومعي شيء من أثره.

ثم هبت من طاولة الطعام لغرفة نومها لإحضار هذا الشيء الغامض! لم أستبين كلماتها الأخيرة، ولم أرمِ لها بالًا لتلفتني لتلك الرجفة في معدتي من الجوع، فتلقيت طبق الحساء وهممت أتناوله. لقد نهبت هذه القصة مساحة أكثر مما تستحق من رأسي.. فليت سيجارتي الحبيبة بين شفتي الآن لأتجرع نيكوتينها الساعف

إياي على التفكير.

أثناء تناولي لحساء لسان العصفور المليمن، برز من الطبق عين آدمية وحيدة ترمق الفراغ! فنهضت عن الكرسي وأنا أبصق ما كان بفمي من طعامٍ، لأتأمل مشهد تلك العين التي تطفو على الحساء. كما يطفو القارب الورقي بحوض استحمام الأطفال.كدت أدس إصبعي بفمي، جابرًا نفسي على تقيؤ ما تناولته للتو، لكني شاهدت ما استوقفني عن الفعل أو التفكير.

أبصرت الحاجة (آيات) وهي واقفة أمامي، تمد كفها المنبسط كاشفة عما بجعبتها من عصبة عين ذهبية اللون. ليس هذا ما لفت انتباهي، بل ما جذبَ يقظتي وأثار رعبي هي هيئتها العجيبة! حيث كان جلد وجهها رمادي اللون نحيلًا كالموتى، يزين وجهها تجويفان أسودان موضع العينين، ولتنزف منهما الدماء كالدموع.

تراجعت للخلف بفزع من هذا المشهد الذي جمد ناظري عليه، متناسيًا معالم الشقة الكامن بها من الخوف، فتعثرت أرضًا بالكرسي الذي هببت منه واقفًا منذ دقيقة، لأجد تلك المرأة بهيئتها الجديدة تقف خلفي تمامًا وهي تطل برأسها لتقتحم حيِّز أبصاري وأنا ساقط على ظهري أرضًا مرتعبًا.

كيف وصلت خلفي بهذه السرعة بعدما كانت تقبع

أمامي؟ ما هذا السؤال؟ ما أسخفني حقًا! أهنالك شيء منطقي واحد من بداية هذا اليوم ليكون لهذا تفسير؟

ثم بدأت تتحدث بصوتها الطبيعي بينما أنا لازلت محتضنًا سجاد الشقة بظهري:

- نسيت إخبارك أن (أبا لحسني) حاول قتلي بعد أن نجح في قتل ابني الصغير أمام عيني.. لقد كان مجنونًا متخطيا حدود الخرف ذاته، لدرجة قتله لزوجته وأبنائه بيديه بعد أن اقتلع عينه ذاتها.

ابتسمت في حسرة مكملة:

- لقد توهَّم أن ابني الصغير ذو السبعة أعوام، من لا يعلم شيئًا بحياته القصيرة سوى المرح بلعب الكرة أو مشاهدة التلفاز، هو مَن كان يراقبه ويخطط لقتله.. استطعت الهروب منه بعد أن انتشلت منه هذا التذكار.. لتتمكن الشرطة من القبض عليه، لكنه لم يأخذ جزاءه الكامل على ما فعله بطفلي الصغير حتى، كنت أتمنى تعذيبه بيدي أو تحطيم قصبته الهوائية بأظفاري، ولكن عوضًا عن هذا ظلَّ جزءٌ من كينونتي محتجزًا في ذات المكان الذي قتل به صغيري، حزنًا على قطعة فؤادي التي زهقت روحها هباء يومها. ولكن هذا الحقير لم يرحمني في حياته أو حتى مماته، كما لو أنه أقسَم على إذاقتي أقصى علامات إبليسيته لآخر الزمان.

فراح يستغلني للعبث بحالتك النفسية من الثقة للجبن وقتما يشتهي، فقط ليعدك لتلك الليلة الكبيرة، وبالمقابل يسمح لي برؤية صغيرى المقيدة روحه بهذا المكان بجانب كافة الأرواح البريئة التي يحتجزها.

صمتت لثوان كما لو أنها تستمع لشيء ما ثم عادت تقول بأسف:

- الآن هو يريدك لتكمل مسيرته بعد أن أضحيت مستعدًا في نظره.. فهل تظن أن الإقامة بشقته الخاصة ستكون مجانية بلا ثمنٍ؟.. مبارك عليك اللقب الجديد يا (أبا الحسني) الثاني.

ثم بدأت في الضحك بصوتٍ عالٍ كما لو أن الشيطان ذاته يشاركها تلك الضحكات الشريرة الصاخبة.. فهببت من مكاني راكضًا من تلك الشقة لداري بعد أن لمحت صبيًا صغيرًا يُكوّن من الفراغ وهو يتعلق بقبضتها، ولا يزال بأذني تردد تلك الضحكات التي بدأت بالتحول للخشونة الرجولية بالتدريج.

(21)
أنقذ نفسك

12/2/2005

الأقصر

العاشرة مساءً

ظلَّ يركض.. يركض كما لو أن الجحيم في أعقابه، يركض هاربًا من المجهول مستنجدًا بما هو غامض، يركض متعجبًا من حياته الحافلة بالمفاجآت.

كان (أسامة) يحمل ابنته على ظهره كما تفعل الغوريلات بصغارها، لم يكن هدفه فحسب أن يحمل ابنته ليسهِّل حركته، بل لترشده لبَر الأمان باعتبارها هي كشاف الأشعة فوق البنفسجية خاصته التي تفشي له عن موضع شبح خالته الثائر.

قادته قدماه للمطبخ لجلب الملح كما أمره (آدم)، لم يفهم كيف سيحميه ملح الطعام، لكن من يهتم للأسئلة وهناك شبحٌ ساخط من طعنه مرتين، في أعقابك؟.. ننجو بحياتنا أولاً ثم نستفسر لاحقًا.

قبل أن يدلف (أسامة) للمطبخ ببضع خطوات، انغلق بابه في عنفٍ من تلقاء نفسه ليصدر دويًا صاخبًا يحطم

في إثره بعض الزجاج والمرايا من حوله.

أيحاول فتح الباب وصولًا للملح أم يركض من هنا ما دام يستطيع؟ لم تُتح له الظروف أن يتمعن بالتفكير في قراره، حيث صاحت ابنته في جزع بأنها ترى (دينا) في نهاية الزقاق المجاور.. إذًا يجب أن نعاود الركض.

ركض من جديد وهو يرى الحيوانات المحنطة، تدب بها الحياة لتصدر أصواتًا متنوعة من الزئير المصحوب بالعويل أو النباح المشحون بالنعيق. كل شيء حي، كل شيء يطارده، كل شيء يريد أن يظفر براثنه بدمائه الخاصة. حتى الجماجم تحاول الحركة من رقدتها المتربة للركض خلفه بدورها بطريقة ما.

هل يجن الآن؟ بالطبع لا، فابنته معه. إنها الدافع الوحيد الذي يجبره على التمسك بخيوط التعقل حتى لو كانت هشة، إن لم ينقطع بعضها بالفعل. إنه لا يركض لحياته، بل لحياة ابنته التي تستحق أن تعيش، هو أيضًا يستحق الحياة. كلنا فعلَ الأخطاء في حياته، لكنه لم يرتكب الجرم الذي يحول حياته لشيء غير جديرٍ بامتلاكه. لكنه لا يبالي بحياته الآن، إنها ابنته التي أنجبها لهذه الحياة لتنعم بها حتى قضاء الله، ولن يسمح لتلك الروح البغيضة بالتعجيل به.

وصل لباب القصر الرئيسي، يحرك مقبضه في محاولة منه لفتحه. لا يستجيب! بالطبع لن ينتهي الأمر بهذه السهولة. أصوات الحيوانات تقترب وهو يحاول تذكير الباب بأن لديه مهمة أخرى غير الانغلاق هكذا، ببعض الركلات من ساقه. بالطبع ليس معه مفاتيح الباب، فلو كانت معه لكان الأمر أسهل، وهذا لا يحدث بالطبع في تلك المطاردات الشيطانية، حتى لو كانت في جيبه فهو لن يفتش جيوبه عنها، فعقله الآن في حاله صرع عن اتخاذ أي قرار عملي غير الركض والمعافرة.

انتهى وقت المعافرة.. إذًا حان وقت العدو من جديد. تطلع للخلف فوجد جميع الحيوانات في مكانها مثبتة على الأرفف والجدران، تتحرك وتتلوى في علامة للحياة التي دبت بها من مصدر مجهول، لكن دون أن تبارح مكانها! ابنته لم تعلق على الأمر، فهي بالتأكيد ستلاحظ تحرُّك حيوانٍ محنطٍ وتبدي دهشتها كتفاعل طبيعي مع المشهد، لكنها لم تفعل! إذًا فالأمر ليس سوى خدعة بصرية.. لم يكن يعلم أن خالته الميتة تحب تلك الألاعيب. عليه تجاوز الأمر والتفكير بمنطقية.

حاول أن يغمض عينيه للتركيز لكن ما أدراه أنه لن

يفاجأ بشيطان رجيم يتراقص أمام ناظريه بمجرد فَتْح عينيه؟ فتراجع عن هذه الفكرة محاولًا تخطي كل تلك الأصوات الحيوانية الثائرة المتداخلة، التي تشعره بأنه بأدغال الأمازون.

لن يفيد الركض للشرفة المفتوحة بالطبع، فستغلق بدورها كما حدث لباب المطبخ وهو على مشارف الوصول إليها. إذًا عليه الاستماع لنصيحة (آدم) وإحضار الملح، مهما كلفه الأمر من عناء.

أسرع ناحية باب المطبخ وظل يركله بساقه بقوة ممزوجة بالغل. هو يعلم نوعية أبواب هذا القصر ويعلم مستوى قوتها، وهي بالطبع لا يمكنها أن تتحمل كل هذه الضربات وتظل صامدة. لكنه لن يستسلم.. ما دام بالأمر نجاة ابنته، فهو لن يستسلم.

أنزل (إيمان) من فوق كتفيه لأول مرة، ثم حمل أحد الكراسي القريبة وراح يضرب به باب المطبخ كما يفعل الحطابون بالفؤوس مع قِطَع الخشب. حتى انفتح الباب أخيرًا كاشفًا عما بجعبته، بعد كثير من العروق المشدودة في رقبته، وقطرات العرق على جبهته، والضربات على الباب، وانكسار الكرسي بالطبع.

ليس هناك وقت للراحة أو الفرح بأتمام عملًا ما، فأقدم على حمل ابنته من جديد لكنه وجدها تسحل

من قدمها ناحية السلم بعدما سقطت أرضًا صارخة في خوف عظيم! ركض ناحيتها ثم وثب بالهواء ليتشبث بساعدها، حاول جذب ذراعها برفق ناحيته، فهو لا يضمن قوة هذا الشبح الذي يمكنه أن يفصل ذراعها عن باقي جسدها من الجذب فحسب، وبالتأكيد هو ليس في وضعٍ يسمح له بالتجربة. فأخرج من جيب بنطاله السكين الفضي الصغير، عازمًا على طعن ال...

ماذا سيطعن؟ وأين سيطعنه؟

ليس هناك وقتٌ لكل هذه الأسئلة الوجودية. فناول (أسامة) ابنته السكين، طلبًا منها أن تطعن (دنيا) لتتوقف عن جذبها. ترددت الفتاة في بداية الأمر، فهذا الأمر خطيرٌ على حياتها وثقيل على روحها. لكن وجب عليها أن تفعله، لقد شعرت بأهمية فعل هذا، وخطورة الأمر أن لم تقدم عليه. فهي تريد التخلص من هذا الجذب المؤلم، خاصة من طرف (دنيا) التي أفصحت عن رغبتها الشيطانية في قتلِ الجميع.. فاستجمعت قواها وهي تشهق قدر ما ساندتها ورأيتها آملة أن تستمد منها بعض الجرأة، لتضرب بالسكين يد (دينا) التي كانت تسحبها من ساقها.

ترى الفتاة (دينا) وهي تنتفض بعيدًا، بعدما رأى (أسامة) ابنته وهي تطعن الهواء بالسكين في منطقة

قريبة لكاحلها، فانجذبت الفتاة نحوه في قوة ليسقط كلاهما.

ليس هناك وقت للعناق من جديد، فهذا الشبح لا يكل ولا يمل.. لكن أين السكين؟ لقد تركت الفتاة السكين عالقة في كف (دينا) دون أن تسحبها من جديد. لا أحد يمكنه لومها فهي طفلة ساذجة. لكن في نفس الوقت، لا أحد يمكنه التغاضي عن الثغرة التي ارتكبتها.

أخرجت (دينا) السكين من كفها، لتمسكه براحتها الأخرى من مقبض السكين الخشبية وعلامات الانتصار ترتسم على ملامحها الشيطانية.

لم ينتظر (أسامة) لمعرفة كيف سينتهي هذا المشهد الذي تطفو به السكين بالهواء، ليسرع ناحية المطبخ بعدما فقد سلاحه الوحيد، حاملًا ابنته على ظهره، متمتمًا بكل ما يحفظة من آيات دينية.

أُغلق باب المطبخ من جديد في وجهه! بعد كل تلك المعاناة التي بذلها في فتحه، ها هو ينغلق من جديد كأن شيئًا لم يكن؟. لا يملك الآن شيئًا، للدفاع به عن ذاته، لا السكين ولا حتى يستطيع الوصول للملح!

هل يجن الآن؟ لا من جديد، إنه يشهد قدوم الموت ذاته وابنته تعلمه صارخة بأن (دينا) تتقدم ناحيتهما. فأنزل ابنته أرضًا خلفه ليحميها بجسده. هل يجن

الآن؟ ليس الآن ليمت أولًا لحماية ابنته ثم يجن لاحقًا.

فجأة وصل لمسامعه صوت يصرخ من الطابق الثاني للقصر باسم (دنـــيـــا!!!!!!!!)

إنه صوت (آدم)! وقع السكين أرضًا، لتؤكد الفتاة بدورها على اختفاء الشبح بقولها أنها لم تعد تراها.. لقد رحلت.

هل يجن الآن؟ ليس بعد، عليه إيصال ابنته لبر الأمان أولاً، فلا يزالون في أرض المعمعة، والهدنة لا تستمر أكثر من دقائق معدودة.

التقط (أسامة) السكين، ثم حمل ابنته لداخل باب المطبخ الذي فتح بسهولة هذه المرة، متمنيًا أن يكون (آدم) بخير أو يراه مرة أخرى على أقل تقدير.

***

ظلّ يركض.. يركض كما لو أن الجحيم في أعقابه، يركض هاربًا من المجهول مستنجدًا بما هو غامض، يركض متعجبًا من حياته الحافلة بالمفاجأة.

تحامَل (آدم) على نفسه الألم في ركضه، لا يعلم كيف تواصلت معه والدته في حلمه، لكنها نبهته لشيء مثير.

الأرواح تعلق بعالم الأحياء بسبب روابط متنوعة ذكرها من قبل على مسامع (أسامة)، لكن أهمها هو

العائلة. وما هو أقوى أنواع العلاقات الأسرية بجانب الأخت التوأم؟ أختها هي الرابط وهي من ستوقف هذا الشبح.

دلف (آدم) من باب غرفة (أسامة) الشخصية مترنحًا، قاصدًا الطرقة الصغيرة به المؤدية للحجرة الجانبية التي تقبع بها أمه القعيدة وسط كل أغراض السحر الأسود الشيطانية تلك.

سقط أرضًا على ركبتيه بجانب الكرسي المتحرك من فرط الألم، تلاقت عيناه بعيني المرأة العجوز التي تفهمت كل ما حدث وما يدور من أهوال بالخارج، ثم حركت فمها لتنطق بصعوبة بالغة كلمات متحشرجة مبهمة (..ذني.. رج) لم يفهم (آدم) تلك الأحرف المذبذبة، لكن ما وصل لذهنه (خذني إلى الخارج)، لم يتردد ولم يطل التفكير في استنتاجات مختلفة، فتلك الآلام التي تجتاح جسده كل ثانية كالموجات الكهربية، تجعله عاجزًا عن التعقل بتريث أو حتى الأقدام عليه.

نهض متثاقلًا ثم سقط من جديد أرضًا جارًّا معه جزءًا من سجاد الأرضية، لتكشف عما كانت تغطيه من أسرار.

مهلًا لحظة! ما هذا الذي سقطت عليه عيناه! إنها جزئية من تعاويذ حماية؟!

جذب (آدم) السجادة بنوعٍ من القوى، لتظهر أسفلها العديد والعديد من تعاويذ الحماية المتنوعة، مطلية بدماء الله وحدَه أعلم إن كانت حيوانية أم آدمية أم مزيجًا شيطانيًا بينهما، على أرضية الحجرة! تلك التعاويذ قوية المفعول، تتخطى فترة صلاحيتها القرن على أقل تقدير!

إنها المرة الأولى التي يلحظ بها أن أرضية الغرفة مغطاة بأكملها بالسجاد كما لو أنها تخفي شيئًا –وهذا حقًا ما تفعله- إن أعين الرجال عجيبة حقًا كما ذكرنا، فهذه اللمسة الأنثوية لا تلحظها أعين الرجال المشتتة بسهولة.

مسح الحجرة بعينه حتى عثر على ضالته المتمثلة في الباب. ليس باب الطرقة الذي يصل الحجرتين ببعض، بل باب تلك الحجرة الخاصة. فهذه الغرفة ليست بالسرداب السري أو القبو المخفي عن الأنظار. فحتمًا لها بابها الخاص قبل أن يحفر (أسامة) بالجدران ليصل بين الحجرتين بهذه الطرقة ليسهل الوصول لوالدته المريضة أن احتاجت العون.

تحامَل (آدم) من جديدٍ على نفسه للوقوف، وهو يشعر بمرارة الدماء تصل لحلقة من جديد، راح لفتح هذا الباب على مصرعه ثم عاود للإمساك بحامل

الجلوكوز بيدٍ وباليد الأخرى دفع الكرسي لخارج الحجرة تمامًا من بابها الرئيسي وصولًا لردهات الطابق.

أكثر من مرة تعثَّر وأكثر من حين كاد أن يسقط مع الكرسي المتحرك جانبًا رغم قصر المسافة، حتى وصل لغايته أخيرًا. ليترك العنان لجسده بالسقوط ليرتاح قليلًا، ساندًا ظهره إلى الحائط المجاور لباب الغرفة، ثم استجمع ما تبقى له من قوى ليصرخ باسم (دنـــــيـــــا!!!!!!!!!)

ثم يظهر شبح الفتاة في أقل من ثانية من اللا مكان لتطلع للمرأة العجوز بغِلٍّ صريح.

شعر وكأن الوقت قد تجمَّد من حوله، مع تلك البرودة التي أصابت جسده المنهك فجأة، لا يعلم إن كان سببها هو الألم الذي يعتريه أم هو بسبب حضور (دنيا) بعلامات حضور الأشباح خاصتها.. لكنها على جميع الأحوال لا تنبئ بالخير أبدًا!

(22)
دائمًا وأبدًا

منذ عدة سنوات

الأقصر

الثانية عشرة بمنتصف الليل

تدلف الخادمة الأفريقية الغرفة وعلى وجهها علامات القلق، تضغط قابس الإضاءة لتجد الفتاة وهي ترتجف أسفل بطانية فراشها فوق السرير النحاسي ليصر صوتًا موترًا للأعصاب، يزيد الفتاة ارتعاشًا.

- سيدة (دعاء)..هل أنتِ بخير؟

قالتها الخادمة بعربية مهشمة تصرخ بأنها ليست مصرية الأصل أو عربية على أي حالٍ. تقدمت الخادمة صوب الفراش، لتربت على جسد الفتاة المختبئ من المجهول أسفل بطانيتها الباهظة الثمن، اعتقادًا منها أنها ستحميها مما يخيفها. أزاحت (دعاء) البطانية عن رأسها بتردُّد لتسمح لعينها برؤية من يحادثها، آملة ألا تكون خدعةً من...

إنها خادمتها الشخصية (بولكا) الأفريقية السمراء. التي تعتني بـ (دعاء) كصديقة عزيزة، ليست كسيدتها

أو مصدر قوتها، التي تسهر الليالي بجانب (دعاء) في مرضها أو حزنها، التي نسيت أصلها وأهلها وجعلت من هذا القصر موطنها وهذه الفتاة أسرتها الوحيدة.

الإخلاص بالعمل لم يكن شائعًا هذه الفترة، بل لم يكن متواجدًا من الأساس بمصر بأي زمنٍ. لكن (بولكا) فعلتها، ليست لأنها أجنبية، فأغلب الخدم يتكاسلون بالعمل أيضًا ويسبون أسيادهم في جلسات السمر بينهم، بل.. بل...

في الواقع، (بولكا) نفسها لم تعلم لم أحبت هذه الفتاة هكذا! ربما لأنها جميلة، طيبة القلب، نقية الروح، أم بسبب انشغال والديها في جني المال وحضور حفلات الكبار، أم أنها ستتزوج على أي حالٍ من ابن عمها دون خيارٍ. فأنتم تعلمون عادات الأغنياء في زواج الأقارب حتى لا يتم تبديد ثروتهم على مَن لا يعلمون عنه أصلًا أو فصلًا. أم تلك الحادثة المأساوية التي مرت بها منذ ثلاث سنوات عندما ماتت أختها التوأم، أم ذلك المرض النفسي -الذي كانوا يطلقون عليه المس- الذي كانت تعاني منه في صغرها. لم تعرف رغم تعدُّد الأسباب،لكن ما أدركته جيدًا أن هذه الفتاة تحتاج لمن يعوضعها عما مرت به وكل هذا النقص، وأضحت (بولكا) خير هذا الشخص.

نهضت (دعاء) من أسفل غطائها لتحتضن (بولكا) بعدما رأتها بابتسامتها الهادئة لتستمد منها الأمان، جلست تلك الأخيرة على الفراش وشرعت في محادثتها عن علّتِها قبل أن تنفجر الفتاة في البكاء، فأجابت الفتاة وهي تنتحب ممهدة لدموع ستنفجر من عينها بأنها (دنيا) من جديد.

لم تكن هذه المرة الأولى التي ترى بها (دنيا) بأحلامها، خلف باب حجرتها، بالجهة المقابلة لها على مائدة الطعام، بالحمّام، فوق السرير النحاسي المقابل لها، بالحديقة..بكل موضع داخل القصر.

لم يكن هناك من يراها غيرها؛ فالكل يعاملها على أنها مجنونة على أي حال. لم تكن هناك مدرسة لتتحاشى التواجد بالقصر، فالفتيات لا تتعلمن بهذا الزمن إلا القليل عن القراءة والكتابة وبعض الحسابات الساذجة. لم يكن هناك منزل آخر تلجأ إليه، فهذا بيت العائلة بالنمط القديم الراسخ، وحتى زياراتها المتعددة بالقاهرة أثناء صباها للعلاج بالمستشفيات الكبرى هناك أو المتابعة مع الأطباء، لينتهي بها المطاف في بيت العائلة من جديد.. إذًا هي في محاربة هذا الكابوس وحيدة بلا معاونة أو تجلد.

أما بالنسبة إلى (دنيا) فلم تعرف مبتغاها أبدًا،

تطاردها في كل مكان كما لو أنها تتغذى على خوفها. لم تهاجمها أو تنبس ببنت شفة، لكن رؤية شقيقتك الميتة التي توفيت منذ ثلاثة أعوام لمدة سنتين كاملتين، عقب عام طبيعي كامل، هو أملٌ ثَقيلُ الحمل على كاهل تلك الفتاة الصغيرة.

أكثر من مرة فكرت بالانتحار للتخلص من هذا العذاب النفسي، لكنها تتراجع عن فعلها على آخر لحظة. ليست بالجرأة للإقدام على هذا الفعل الشنيع بالطبع، ثم إن الانتحار تفكيرٌ مراهقٌ لم يصل لسنها الصغير بعد.

فكم من مرة حملت السكين لطعن نفسها وتراجعت! كم من مرة وقفت على شُرفة غرفتها عازمة على القفز ثم أجّلت هذا للغد!كم من مرةٍ رأت شفرات الحلاقة (الأمواس) تبرق في عينها لكنها تجاهلتها!

بكت، حتى جفت الدموع بعينها. شكَت، حتى انتهت الكلمات من قاموسِها الصغير. أفصحت عما رأت، حتى تحاشاها الجميع. ارتجفت، حتى أجهدت جسدها الهش. تعوّد جسَدُها الأمر، لكن روحها لا تزال خائفة. تعلم الفارق بين الحياة والموت، وتعلم أن هذا ليس بالطبيعي.

لكن (بولكا) استمعت لها، صدقتها، تعاطفت معها،

شعرت بهمها وثقله، خافت مثلها لكن ليس من شبح الأخت، بل خافت على (دعاء) نفسها.

استمرت (بولكا) في الحديث، لتشغل الفتاة عن البكاء:

- ستختفي مع الوقت لا تقلقي.

- لن تفعل، ستظل هكذا حتى مماتي.. ليتني أنا من مِتُّ وعاشت هي، لكنت تخلصت من كل هذا العذاب.

لم تفعل (دنيا) أيَّ أمرٍ جَديدٍ. فقط وقفت بين الظلال ترمق أختها الناعمة بحياتها. لكن الأمر زاد عن حده، لن تستطيع (دعاء) الاعتياد أبدًا على الأمر أو تجاهله، إنها تفقد صوابها بالتدريج حتى انهارت تمامًا اليوم. لقد سَئِمت روحُها التماسك وحان وقتُ فقدان الأعصاب.. فهي لم تنهَرْ لما رأته اليوم فحسب، بل لكل ما مر بها، فضربة الحطاب رقم ثلاثون ليست من أسقطت الشجرة، بل الثلاثون ضربة بأكمله هي المسؤولة.

رأت (بولكا) هذا الإصرار على الموت في عين الفتاة، وكان عليها التدخل، إما الآن وإلا أبدًا، لتصرح بأن لديها حلًا لمشكلاتها. فانتبهت (دعاء) لكلماتها بكُلِّ حواسها وهي تقول بلهفة الظمآن إلى الماء:

- انجديني به أرجوكِ.

- لكنه سيكلفك الكثير.

- لَدى أبي من المال الكثيرُ.

ترددت الخادمة وهي تجيب أن المال ليس كل شيء بهذه المواقف، فما ستفعله سيكلفها شيئًا آخر أكثر قيمة. فأجابت الفتاة بدون تلجلج أنها مستعدة لأي شيء.. المهم هو التخلص من هذا الكابوس اللعين.

ضمتها (بولكا) لصدرها وهي تقول بحنان أموي لن تنعم به (دعاء) من والدتها الحقيقية من قبل:

- ما دمتِ مستعدة، إذًا كل شيء سيكون بخير، ستتحررين منها للمرة الثانية.. وهذه المرة للأبد.

وراحت تغني لها مطمئنة، وهي لا تعلم إن كان قرارها بالتدخل هذا صحيحًا أم سيعود على الفتاة بالكثير من الأذى. لكن دعنا ننقذها الآن، وليحلها الله بمشيئه بالغد.. دون أن تعي (دعاء) أن ما تسمعه الآن من دندنة (بولكا) ما هو سوى أحد الألحان الأفريقة التي تستخدم في تعاويذ الحماية بالفودو.

***

نظرات بين الأختين استمرت لما يماثل العقود، تحمل مائة عتاب مصاحب لألف ضغينة مكتومة. بهذه النظرات كانت الأختان تتذكران ما حدث بينهما في حياتهما وممات (دنيا)، نظرات تحمل الملايين من

المشاعر التي لا يفهمها (آدم) الساقط أرضًا ساندًا ظهره إلى الجدار في وضعية الجلوس. تدرك أصله الأختان فحسب.

يريد أن يرحل عن هذا المكان، يبغى أن يهرب، ليس متحمسًا لهذه الملحمة الأفريقية التي ستحدث الآن بين الأختين، ليس في نيته التواجد هنا.. والآن حتى لا يناله بعض من غضب (دنيا) البطاش من جديد. لكن ما بيده حيلة. هو يتنفس لكنه الشيء الوحيد الذي يفعله دون القدرة على غيره، فقد وصل به الألم ذروته، وهو مُجبَر على المشاهدة دون اعتراض.

بدأت كلا الأختين تتغيَّر ملامحها! ازدادت (دنيا) طولًا بعض الشيء وعمرًا، لكن ملامحها تغيرت تمامًا، كانت ذات جمجمة عجيبة، وأنف معقوف، غير فكّها البارز من بين شفتيها والشعر الخفيف الذي يغطي جانبي وجهها، فأضحت شبيهة بأي طفل لديه إعاقة ذهنية. أما السيدة (دعاء) فقد صغرت طولًا وسنًا، حتى إن الكرسي المتحرك خاصتها قد اختفى مع الهواء، لتتحول بالنهاية إلى فتاة جميلة في كل شيء، حور ملائكي خلاب، لا يمكن أن تتوقف عن التحديق بملاحتها القدسية.

كلتاهما في العاشرة من العمر تقريبًا، كلتاهما

ترتديان نفس الفستان الأزرق، كلتاهما تختلف في كل شيء عن الأخرى.

قبضت (دنيا) كفها وهي تقول بنوع من الغِل لأختها:

- هل تتذكرين هذا الوجه أيتها الحقيرة؟.. هذا وجه أُختك الحبيبة التي كانت تدافع عنك بالصغر وتتكلم بالنيابة عنك وتتحرك بالنيابة عنك..حتى ماتت بالنيابة عنك مكملة سريان سيول تنازلاتها.. وما جزائي على هذا؟ لا شيء.. ليتها وصلت إلى (لا شيء). لقد قام والداي بتهميش اسمي، خوفًا من أن يعلم الناس أن لهما فتاة مختلة عقليًا، قبيحة كصرصور. لا أعاتبهم، فهما أوغاد منذ ولادتي، حيث كانا يبعدانني عن المشاركة بجميع الصور العائلية عمدًا.

أشارت بسبابتها لأختها في حدة وهي تقول:

- لكني ألومك أنتِ، أيتها الوغدة المدللة.. فرغم خرسك طوال حياتي وحركتك التي كادت أن تنعدم، كنتِ المفضلة لدى الجميع بسبب جمالك.. وكأن ليَدي سببًا في القبح الذي اعترى وجهي. وحتى بعد مماتي، نسي الجميع باليوم التالي أن كان لهم فرد بالعائلة اسمه (دنيا). حتى أمي لم تترقرق الدموع أبدًا بعينها وقتها. وما زاد تجاهلهم لي، أنك أصبحت حرة من رابطنا.. تتحدثين بطبيعية، وتتحركين بأريحية دوني،

ونسيتِ أنت الأخرى أن كان لكِ يومًا ما أخت تعشقك رغم اختلافكما.

كان صوت (دنيا) مزعجًا كاحتكاك الرخام أو زقزقة المطاط، فغير أنها ثرثارة كما لو أنها تحتشد تلك الكلمات في صدرها منذ سنوات، لكن (دعاء) لم ترد، لا أعلم إن كان خجلًا أم انتظارًا حتى تنهي أختها ما بجعبتها من اعترافات أم لأنها كانت صامتة في صغرها كذلك، لكن (دنيا) لم تتوقف عن الحديث كما لو أنها ساعة الحساب وإغلاق الدفاتر.

- شرعت أزورك بكل مكانٍ لأذكرك أن لديك أختًا ماتت منذ عام من أجل حريتك من ذلك الرابط اللعين، كنت أريدك أن تعطيني بعض التقدير أو الثناء بالترحم علي أو جلب سيرتي بالحسنة على لسانك، حتى لا تنسيني بدورك مثل أغلب عائلتنا. لكنك كنت تركضين على أمك الشمطاء شاكية لها من طيف أختك الحبيبة.. ماذا كنتِ تريدينها أن تفعل؟ تجلب عصا المقشة وتطيح بي بعيدًا كالفأر؟ حتى لو كان بمقدورها هذا، فهي لن تفعل، لتتركك تتعذبين وحيدة.. لا تستبعدي هذا عن أمي التي رفضت إرضاعي في سنواتي الأولى بعدما بدأت علامات القبح تطغو على فطنتي.

هزت كتفيها مكملة:

- غير أنك قابلتِ نفس المعاملة من أقاربنا الصغار من التجاهل والتحاشي عندما بدأتِ في البكاء والشكوى مني.. لم تكن بنيتي إخافتك، فأنا لم أظهر لكِ فوق الدولاب أو أخرج رأسي من طبق طعامك.. بل كان مبتغاي هو تذكيرك بي.

ترقرقت الدموع بعينيها وهي تصرخ في حرقة:

- وما كان جزائي بالنهاية؟ ولولتي لخادمتك المشعوذة لتحولك بدورها لساحرة. تستحمين بدماء القطط وتقتلين الفئران التي تخافينها بيدك كقربان أو شيء من هذا القبيل.. لقد استخدمتِ السحر لحمايتك مني وطردي عن القصر.. طردي من منزلي، من حجرة نومي، من ألعابي، من كل شيء لتنعمي أنتِ بكل شيء وحدك.

ضمت قبضتها في حدة أكثر والشرر يتصاعد من عينها:

- أعتقدتِ أنك هكذا تخلصتِ مني. ظننتي أنني سأمل من مطاردتك، لكنك وخادمتك الزنجية لا تفطنان شيئًا عن الأرواح.. نحن لا نمل ولا يمكن التخلص منا.. وقد حان وقت أن تدفعي ثمن تجنُّبي لكل تلك السنوات.

كان الموقف على أشده، فلو اقتربت من (دنيا) الآن

لحولتك لرماد فوري. تلك الفتاة تحمل الكثير من الحقد في قلبها، العديد من الغل بكلماتها، وفرة من الحنق على روحها.

نطقت (دعاء) أخيرًا وهي تفتح ذراعيها بشكل مسرحي، بكلمة (تفضلي) باختصار بدون أي تعابير وجه. إن (دنيا) ليست في حاجة لدعوة، ستفتك بها حالًا. إن مرت ذبابة بجانبها سوف تشتعل من أثر الكره الذي تغرق به روحها.. لكن لمَ هذا التأخير! أهي حقًا مترددة؟ فبعد كلماتها الأخيرة، أقل ما يمكن توقعه هو حرقها أو جلدها حية! لكن لماذا لم تفعل! لقد أراحت قبضتها وهبط كتفاها علامة الاستسلام، مؤكدة على أنها لن تقدم على أي شيء.

أتراجعت (دنيا) عن فعلها بسبب رهبة الأخت الكبرى؟ بالطبع لا، أي خمس دقائق تلك بفارق العمر التي تمثل رهبة الكبر! إنها رهبة العائلة، فالعائلة هي التي تدفعك بنفس رحبة على الجنون أو الموت ذاته إن أرغمتك الظروف، ثم تتراجع عنهما بسبب العائلة كذلك.

لقد كرهت (دنيا) أختها بحق بسبب تهميشها لها، لكنها لن تقتلها أو تؤذيها، إنها الوحيدة من شعرت في كنفها بالمعنى الحقيقي للأسرة، للحب، للتفاهم،

للتضحية، لكل شيء جميل حرمت منه على يد باقية أهلها الذين لا تجمع بينهما بصلة غير الأوراق الحكومية. فلولا الملامة، لرمي والداها بها في ملجأ للأيتام أو دار للرعاية، ليُرحما من صوتها وشكلها المريع، لكنهما تحننوا عليها بمبدأ (دعها نأخذ بها ثواب عند الله) متناسين أن هذا دورهم الحقيقي الذي يقصرون به منذ البداية.

لم يكن الغضب ما ربط (دنيا) بعالم الأحياء.. بل العائلة.

تقدمت (دعاء) ناحية (دنيا) لتضمها في شوقٍ وهي تقول بلسان ثقيل وصوت حالم رقيق:

- أقدِّر معاناتك يا أختاه..كل ذلك بسبب الرابط الذي تحكّم في حياة كلينا، جعلنا غريبتين، منبوذتين من الجميع.. لم أكن مدللة كما قلتِ، أنتِ أكثر من علم صعوبة حياتي الصامتة الساكنة، لقد كنت حبيسة جسد ساكن، لا يتحرك إلا قليلًا ولا ينطق أبدًا.. لقد كنت هامدة وأنتِ من تحفظين لي حياتي، لقد كنت ميتة وأنت من وهبتِ لي حياتك.. لقد توفيتِ بقضاء الله وقدره، لكني متأكدة من أنه إذا كنتِ تعلمين بأن لعنتنا ستنحل بموت واحدة منا، لكنت انتحرت قبل أن نتم الرابعة حتى.. لقد أحببتني أكثر من أمي ذاتها، وأنا لم

أكرهك يومًا.

بدأت (دعاء) تبكي، وهي مستمرة في الكلام بهدوء:

- لم أفهم ما تحاولين إرساله لي، كنت خائفة كفأر محاط بقطط جائعة، كنت أنانية، أعلم.. كنت غاضبة.. كان بيدي التوقف، لكني لم أفعل بعدما نضج فكري.. تفهمت أنك لست غيورة من حياتي كما خيل لي في صغري، ولم أبارح مكاني، أعلم.. كان سخطك يزيدك قوى وإصرارًا على التمسك بعالم الأحياء، أعلم كل هذا. لكني كنت خائفة من ردة فعلك، لم أتوقع أن تتفهمي أني كنت أحمي عائلتي.. أحصن ابني وحفيدتي من بطشك. لكني لم أترك القصر أبدًا، لأظل بجانبك، حتى لو أمسيت ألقي التعاويذ لحماية نفسي والقصر منك، لكني كنت أستشعر وجود روحك في القصر ليس بقبرك.

زادت ضم أختها لحضنها قائلة بين الدموع:

- هذه التعاويذ كانت لحمايتنا من بطشك وليس من وجودك، كان بمقدوري حبس روحك في قبرك أو إعادتك لعالم الموتى للأبد، لكني لم أفعل، لأني كنت أستشعر وجودك الذي يمنحني الدفء الأسَري المحبب الذي لم أعهده بهذه القوة إلا بحضورك.. عندما أصبت بالشلل، توقفت التعاويذ عن العمل، حاولتِ أن تصلّي

لي لكن غرفتي كانت مطلسمة بما هو أقوى من حمايات المنزل بأسره ولم أبارحها ولو لثوانٍ، فحتى الأطباء كانوا يأتون للكشف على حالتي بغرفتي دون الخروج منها.. فلم تتعثري سوى بحفيدتي للتقرب منها لعلها تعوضك عن حنان الأخت الذي فقدتِه مني.. لكني ها أنا أؤكد لكِ أني لم أكرهك يومًا ولم أنسكِ للحظة.. كل شيء سيتعوض، سأعوضك روح العائلة الذي افتقدتِه كل هذه المدة، سنظل معًا للأبد..

ضمتها (دنيا) أخيرًا وراحت كلتاهما في بكاء تختلط دمعاته في شوق أسري دام لعقود.

كان المشهد مسرحيًا جميلًا، تغلق بعده الستائر، وهكذا قرر أن يفعل (آدم) بدوره. أغلق عينيه، سامحًا للألم أن يقضي على ما تبقى من وعيه. أغمض عينيه بعدما تمنى أن يصفّق لهذا المشهد المسرحي الذي يجهل إن كان حقيقيًا أم هي مجرد هلاوس ما قبل الإغماء لكن طاقته قد استنفدت عن آخرها؟

ربما سيعلم.. لكن ليس الآن..

(23)
موت محتم على العشاء

5/12/2015

الوادي الجديد

التاسعة والنصف مساءً

دلفت لشقتي مهرولًا وأنا أغلق بابها بعنف، ضاغطًا قابس إضاءة الصالة. استندت بظهري على باب الشقة كما لو كنت أصنع من جسدي حاجزًا إضافيًا لمنع اقتحامه. لكن من هذا الذي سيقتحمه؟ لا يهم.. عليّ لملمة حاجياتي والهروب من هذا المكان الآن. لكن مهلاً.. ما هذا الشعور؟

هناك من يراقبني، ليس بواحدٍ أو اثنين أو حتى مائة.. إنهم بالآلاف، إنهم يقفون خلفي مباشرة رغم التصاق ظهري بالحائط.. لقد عاد لي مرضي، بل عاود مضاعفًا، لكن هذه ليست المرة الأولى التي يتضاعف فيها المرض على عاتقي هكذا، لقد صادفت هذا الشعور المتطرف من قبل، لكن متى وأين؟؟ نعم تذكرت.. بالمقابر..

ليس لدي الوقت لأشل عن الحركة لثمان أو تسع

ساعات كما حدث بالمرة السابقة في المقابر، عليّ أن أتحرك وأظل يقظًا. فتوجهت في بداية الأمر بتثاقُل مقاومًا رغبة عنيدة تجتاح جسدي بالجمود عن الحركة، لحمّام منزلي لرمي وجهي ببعض المياه، التي آمل أن تساعدني على اليقظة.

نظرت لانعاكاسي بمرآة الحمّام لأبصر وجهي جافًا لا تتخلله قطرة مياه واحدة، كما لو أن انعكاسي قد امتنع عن محاكاة حركتي لتلك المرة، رغم أني لا أزال أشعر بخصلات شعري المبتلة وقطرات المياه المنسدلة على وجنتي. فرُحتُ أمعن النظر بانعكاسي راميًا خداع عيني على إضاءة الحمام الضعيفة أو ارتجافتي المنفعلة، لكني لاحظت شيئًا آخر لم يكن بحسباني.. حيث كان انعكاسي يبدو أطول مني قامة بسنتيميتر أو أكثر.

***

فأجابني الشيخ بصوته الجهوري مصحوبًا بصوت السبح تئن من اصطدامها ببعضٍ على ذراعه الذي لا يستقر عن الحركة:

- الأمر وما برمته يكمن في قرينك، فهو في حالة ثورة عليك

أنا أرااااه وأرى الخبث في عينيه، وبمقدورررري

إهماد هياجه

لكن كبت بطش القرين سيكون مكلفًا بعض الشيء

***

هذه الكلمات خرجت من الدجال الذي زرته بالمطرية بعد أن استمعت لكلمات الجارات بأن الحل سيكمن عنده وقد أراني حينها كابوسًا لعينًا تزورني الرجفة كلما تذكرته. وهنا بدأ عقلي المرتعب يفكر ويتذكر ما يعرفه عن هذا الكائن بمعلومات عامة.

القرين يلازمك كظلك حتى يوم مماتك، القرين لا يموت، من المستحيل ترويض القرين، القرين دائمًا يحثني على الشر، القرين يكون اسمه هو انعكاس حروف اسمي، القرين أطول من صاحبه بعدة سنتيمترات قلائل!!

هذه المعلومات يعرف بها أي أحمق أو أي قارئ لحكايات الرعب، ولكن هذه ليست بقصص رعب طفولية، هذه حياتي ولن أسمح لقرين أو غيره بالسيطرة عليها.

لم أعثر برأسي المشتت من حلول سوى فتح صنبور المياه معيدًا نفس الخطوات السابقة من أستقبل قطراته الباردة على كفي، قبل رميي بها لوجهي، سامحًا لصقيع الماء بملامسة جبهتي وإيقاظها قبل أن تغفو.

رفعت عيني للمرآة مرة أخرى، لأراه هذه المرة بشكلٍ واضحٍ! كان (أبا الحسني) محتلًا لمرآتي بعد أن طرد منها انعكاسي، كما رأيته بكابوسي في هيئة الجثة وملابس العمال المتربة، ساترًا تجويف عينه الغائر بعصبة عين ذهبية! ثم فجأة صرخ بنفس الصوت الذي سمعته بالحلم بنفس العبارة الشنيعة: (تـوقـفـوا عـن مـراقـبـتـي).

ركضت خارج الحمَّام وشعور الخوف والتصلب يزداد بجسدي، لطمت خدي وأنا أصرخ بذاتي بصوتٍ عالٍ، لأجبر نفسي على اليقظة "ليس هذا وقت البكاء من الخوف، عليّ أن أتصرف كالرجال ولا أسلم روحي للرعب بهواجسه.. عليّ تذكُّر كلمات الأطباء السخيفة التي لم تكن تفيدني إلا بالقليل. كانوا يقولون: عندما أشعر بأني مُراقب، أغمض عيني وأتقدم عشر خطوات للأمام لأتأكد أنه ليس هنالك غيري يملأ الفراغ المحيط بي.. ها نحن ذا."

أغمضت عيني، بعد أن مسحت صالة منزلي بطرف عيني لأتأكد من خلوّ المكان من أي شيءٍ قد يعثِّر خطواتي أو يعرقل استقامة سيري، ثم بدأت بالترجل للأمام.. واحد.. اثنان.. ثلاثة.. أربـ...

خرجت مني آهةُ ألم مكتومة بعدما اصطدمت

جبهتي بشيء ما، فتحت عيني لأستبين ما هو، لأجد أن المكان غارقٌ في ظلامٍ مخيفٍ. مَن أغلق المصابيح؟ أنا متأكد من أن أضواء الصالة كانت عاملة قبل إغلاق عيني، أيعقل انقطاع التيار الكهربائي بهذه الثواني؟ فمنذ أن ولجت لهذه الشقة والتيار الكهربي لم ينقطع بها ولو لمرة، وحين يهوى عليه تجربة الأمر، يفعلها الآن!

تحسست ما صدمته بالظلام، لأستبين أنه جدارٌ.. أهذا مقبضٌ؟ إذًا فهذا بابٌ وليس بحائط. حاولت فتح الباب لكنه كالعادة لم يستجِب، فهذه الأشياء كالأبواب والسيارات والمصابيح، تنسى كيفية إتمام دورها الذي صُنِعَت لأجله عند الحاجة إليها. فأخرجت هاتفي المحمول من جيبي لأضيء به سبيلي عسى ألا تضحى بطاريته قد نفدت بدورها كتوابع من ذلك الحظ العاثر. شكرت الله عدة مرات عندما لمعت شاشة هاتفي المحمول بل وكان الكشاف الصغير به عاملًا بكفاءة بدورِه، سامحًا لي بإدراك الموجودات من حولي.

كان الباب غارقًا بكمٍّ هائلٍ من الأتربة. أعلم ذلك الباب ذا المقبض الدائري المميز، إنه باب الحجرة المغلة بشقتي!! لقد نسيت أمر تلك الحجرة تمامًا ولم أُطالِب السمسار بمفتاحها قط، حتى عندما كان يتردد عليّ

لتناول الإيجار لم أجلب له سيرة عنهما كما كنت أزعم، لأنها لم تكن تهمني بشيء. ليس هذا بمهم الآن.. المهم أني دلفت تلك الحجرة المغلقة من يوم استئجاري للمنزل ومن قبل هذا بعقود! كيف وصلت لهنا؟

راح هاتفي في الرنين معلنًا عن مكالمة واردة، فأجبت سريعًا غير عابئ إذا كان المتصل اسمًا مسجلًا أم رقمًا حديثًا، بغضبٍ صارخٍ:

- إذا كنت (أبا الحسني) فاذهب لتنتقم ممن قتلوك ولا تدخلني في شؤونك.. سأرحل من الشقة تاركًا إياها لك لتشبع بها.

جاءني الصَّوتُ بلكنة صعيدية مستنكرًا من لهجتي سائلًا:

- (أبا الحسني) مَنْ يا أفندي؟ أنا (شعبان) التربي يا أستاذ (حسام).. ألا تتذكرني؟

نعم إنه ذلك الرجل الذي نجاني من موت محتَّم بالضغط، لكن لمَ يحادثني الآن؟ أعتقد أنه ليس بالوقت المناسب لتبادُل الثرثرة أو قصدي في خدمة مالية. فأجبته سريعًا أنني أتذكره، ولكن ماذا يريد في مثل هذه الساعة وعقب كل تلك الأشهر. فجاءني الصوت المعدني المتقطع بسبب ضعف الشبكة بهذه المحافظة:

- عندما قصصت على زوجتي قصتك بعد رحيلك،

أخبرتني أنك لم تكن في حالة شلل بجانب باب المقابر كما ادعيت.. بل إنك رحلت من المكان ثم عدت بعدها ببضع ساعات ثم اختفيت بين المقابر قليلًا قبل أن تعاود الظهور، عائدًا لنفس الموضوع لتتجمد هناك بضع دقائق قبل أن آتيك.

- ماذا؟ ولمَ لَم تخبرني هذا منذ أشهر؟

- أنت يا أفندي لم تترك لي رقم هاتفك أو أي شيء عنك، كل ما استطعت فعله هو الانتظار حتى يأتي أحد الزوار لقبر صديقك الذي تم دفنه ذلك اليوم لأستفسر منه عن مكان عملك وبالتالي أتوصل لرقم هاتفك أو عنوان منزلك.. وها أنا أتصل بك قبل أن يمر يومٌ على تسجيل نمرة هاتفك بجوالي الخاص.

يمر يومٌ! ألم تستطِع الإسباق بهذا الخبر بيوم واحد على الأقل، أم أن المصائب لا تأتي إلا مجمعة. لا أعلم علاقة هذا الأمر بحالي الآن أو مدى خطورة الموقف لكني على يقين تام أن هذا ليس بالتوقيت المناسب لمناقشته أو التفكير في كنهه. فرغبت بإنهاء حواري معه للاتصال بالشرطة أو المطافئ ليأتوا لإنقاذي من هذه الحجرة المغلقة القابعة بالدور الرابع.. أي لا تفكر أبدًا بالنوافذ -إن كانت تسمح بانبثاق جسدي الضخم منها-

- حسنًا سأتصرف بهذا الأمر.. أغلق الآن وسأعاود الاتصال بك لاحقًا.

فبدأت نبرة الصوت بالتحول لهجيًا وصوتيًا ويزداد وضوحًا، بعد أن صدرت بالهاتف بعض الضوضاء الأستاتيكية التي تنم عن تغيُّر الاتصال:

- لمَ أغلق يا (حسام)؟

فرحت سريعًا بعدما لاحظت هذا التغيير، أسأل عن المتصل، ليأتيني الرد:

- أحقًا لا تعرفني؟. إنه أنا.. أنا والدك الروحي، أما أنت فخليفتي على الأرض الذي سيكمل بها الفساد الذي بدأته وتوقف منذ أربعة عشر عامًا.. أنت ابني المجنون.

- أنت شيطان وأنا لست بابنٍ لك.

- لا لست بشيطان.. أنا مجرد رجلٍ مريضٍ زادت علته في غفوة منه بسبب حادث أليم أصابني..

كانت عبارته تحمل نبرة ساخرة لحقتها بضحكة مستنكرة مؤكدة على اعتقادي، ليكمل هو:

- أليس هذا حديث الأطباء لك، ألم يخبروك كما أخبروني من قبلك أن المرض كان مجرد أعراضٍ خفيفة، زادت مع حادث أثر بشخصيتك؟ أنا لم أختَر أن أمسى مريضًا ولم يكن بيدي اختيار ما سبّب لي هذا التدهور بحالتي، كما لم تختَره أنت.. هل ستحاكمني

على مشيئة الله؟

أجبته بغضبٍ معترض على هذا الحوار، عن كيفية تعلّمه بالله بعد جل من قتلهم. ليجيبني (أبا الحسني) عائدًا لنبرة السخرية تلك:

- انظروا من يتحدث الآن.. إنه الملاك (حسام) بشحمه ولحمه في حضرتي! كلنا فاسدون يا بني.. كلنا قتلة.

فأجبته سريعًا بنفس النزعة أني لست مثله.. لست قاتلًا مثله. ليجيب في سرعة:

- و من أكد أنك لست كذلك؟ ألم تسأل نفسك من قبل، كيف كانت تمر عليك الليالي سريعة رغم إصابتك بالأرق؟ لمَ يموت الكثير من زملائك بالمناجم بطرق شبيهة بالحوادث؟ لمَ اختفى طبيبك النفسي بعد آخر جلسة شب بينكما بها شِبهُ شجارٍ؟ لمَ كان وقت وفاة (عزت) مضبوطًا بإحكام قبل ذكرى وفاتي ببضعة أيام؟ لمَ (عزت) بالذات الذي مات بحادث المنجَم لا أنت؟ أليس ليجبر الجميع على السفر من العمل لثلاثة أيام ناهين إجازاتهم لدفنه ببلده البعيد، ليضطروا للحضور بيوم الخامس من ديسمبر بالنهاية، رغم كثرة العمال من أصل هذا البلد أو من محافظات قريبة لا تدفعكم للسفر كل هذه المدة؟ ألم تلاحظ مدى دقة موت

(عزت) الطبيب صاحب الجمائل العديدة التي دفعت زملاءه بالعمل أجمع لحضور دفنته مخاطرين بأيام إجازتهم المحدودة؟ ألم تشك ولو للحظة في استحالة أمر انهيار المنجم هذا وأنه بفعل أحدهم وأنك كنت المحظوظ الذي دعت له والدته لينجو بحياته أسفل الأعمدة الخشبية القوية عوضًا عن زميله تعس الحظ الذي هوت عليه الكمرات الهشة؟ ألم تسأل كيف انهار المنجم بهذا الشكل الاحترافي كما لو أنه يتعمد قتل (عزت) في حين يكتفي بغمرك بالتراب مدعيًا البراءة وأنك لا تقل عنه في حمل مصطلح (ضحية)؟ ألم تلحظ بديهية أن الحادث مدبّر؟.. كيف مات والداك من الأساس؟

التفتت حول نفسي بعنفٍ وأنا أصيح بأني لن أستمر في الإصغاء لأكاذيبه الخبيثة، ليرد هو بكل هدوء:

- يا لها من لحظة صادمة عندما رأتك والدتك وأنت تنهض من نومك بالمقعد الخلفي للسيارة أثناء سفركما الأسري بالسيارة، كالرجل الآلي بلا كلام أو التفاتات أو حتى رمش من عينيك في لحظات نادرة تمكّن فيها مرضك الأصلي المتعطش للدماء منك وليس هذا المشخص من قبل الأطباء، ثم تقبض على عجلة القيادة من بين كفّيَ والدك القائد للسيارة منحرفًا بهما

عن الطريق لتصدم تلك الحافلة.. ليتك كنت هناك لتسمع كل تلك الصرخات وتبصر كل تلك الدماء التي طلت الطريق بالأحمر القاني وتعد تلك الانقلابات التي قامت بها كلتا العربتان حتى يستقرا بعد إزهاق الكثير من الأرواح، ليتك كنت هناك حقًا.. مهلاً، لقد كنت هناك بالفعل، فلا جريمة قتل بلا سفاحها.

أزلت الهاتف عن أذني وأنا أهزه بعنفٍ في حركة عنفوانية متخيلاً أني أرج (أبا الحسني) ذاته بين يدي:

- أنت كاذب.. كاذب.. وقت الحادث لم يكن المرض وصل ذروته بعد بي، هذا الحادث الذي جعل الأعراض عندي تتضاعـ...

توقفت عن الكلام، لقد تحشرجت العبارات في حنجرتي من هول ما سقطت عيني عليه بفعل إضاءه الهاتف التي برزت بمجرد أن أزحته عن أذني.

فجاء الصوت من الهاتف ضاحكًا بخبث:

- العجيب في الأمر أن رغم ذكائك في تدبير الميتات لضحاياك دون ترك دليلٍ ولو واحد عليك كأحرف القتلة بالعالم، بل جعلها تبدو كحادث عرضي، قد يتعرض له المئات.. بل أنك لم تلاحظ حضوري بزيارتك للدجال الذي كان بمثابة الشظية التي مهدت الطريق للهيبي بالتوغل لعقلك المضطرب.

***

كانت هناك كتلة مادية سوداء تجلس أمامي على المقعد المقابل لا أتذكر وجودها في بداية جلستي مع الدجال، لكن تلك العين المضيئة المتخطية سواد العباءة لتضيء كالمصباح بلون أصفر، معلنة عن تخطيها للمنطق في فجور.. لمَ عين صفراء؟ بل لمَ عين واحدة من الأساس؟ لا أعلم.

***

الآن فحسب تذكرت أنه كان يطاردني بكل صوب بالقاهرة محرضًا إياي على السفر إليه أو الجنون أو كليهما، خاصة في الأماكن الروحانية الهشة.

***

لينبثق منها كمٌّ مهولٌ من الفئران السوداء بشعة القسمات منقضة على وجهي بلا هوادة.

***

كان الفأر هو التجسيد الذي اتخذه (أبا الحسني) مطاردًا إياي بكافة الأماكن ابتداءً من الدجال انتهاءً بالمقابر.

ثم أكمل الصوت مؤكدًا على أفكاري:

- ألم تسأل نفسك ولو لمرة لما بدأت فكرة هجرة القاهرة برمتها تنبت بعقلك عقب تلك الليلة حتى

تمكنت منك بالمقابر.. تلك الأفكار لم تكن بالعبثية أو العشوائية يا بني، فقد كنت أتربص لك مستغلًا كافة المواضع التي تدب بها ساقك، للعبث بعقلك لدلوف مخزني العزيز منذ سنوات.. وها قد حضرت اللحظة أخيرًا، فما رأيك به؟

أجبته وأنا عاجز عن تصديق الهول الذي أراه:

- ما هذا الجحيم الذي أراه؟

- لا لا إنه منجم الذهب خاصتي.. عامله بأحترام أكثر من هذا.

- أنت مخبول متوحش.

- بعد قتلك للكثيرين بالقاهرة والوادي الجديد انتهاءً بصديقنا (عزت) الذي أسقطت المنجم على رأسه بتحطيمك للكمرات الخشبية في حين تختبئ أنت أسفل العمود الخشبي الأقوى في حمل انهيار المنجم في حنكة.. ودعني أؤكد لك أنك مثلي ومن قبل الحادث عكس ما تتصور، الحادث لم يكن سوى الوسيلة التي كشفت الغطاء عن الأعراض لتظهر للنور.. لكن علامات عشق القتل كانت دائمًا وأبدًا تحتل كيانك.. أنت دائمًا قاتل. في بدايتي كنت أقتل معتقدًا أن مرضي هو من يدفعني، حتى وجدت أن لذتي الخاصة أضحت كامنة في سفك الدماء. فأمسيت

أنصب الكمائن لإزهاق أرواح كل من أتعثر بهم في حياتي لأني أريد هذا. وأنت هنا لتكمل عملي الذي لم أتمه بعد.

إنهم ينظرون لي! إنهم يتحركون أنا أقسم على هذا! إنهم يراقبونني!

استدرت لباب الغرفة وأنا أنهال عليها بكل ما أوتيت من قوة من ركلات أو صفعات أو حتى دفعات بكتفي. لكنه أبى التزحزح عن موضعه، وكل ما كان يتحرك هي حبات التراب التي تتساقط عن مكنفها بين طيات الباب.

هنا اعتصرت قميصي عند منطقة الصدر بحركة انفعالية بعدما باغتني ألمٌ جحيمي برئتي، كما لو أن بقبضتي الأمل في تخفيف تلك الأوجاع! إنها رئتي تحترق، تنهار مقدرتها على شهق الأكسجين أو زفره، تكدس ما تعلق بها من هواء بصدري حتى قارب على الانفجار.. إنها حالة الاختناق التي حذرني منها الطبيب.

أسرعت بيمناي ملتقطًا البخاخة من جيب بنطالي لفض تكدُّس الهواء ذلك بحنجرتي، لكني تراجعت عن هذا القرار بآخِر ثانية!

ستمدني تلك البخاخة بالحياة، لكن لمَ؟ لأستمر في

مسيرة (أبا الحسني) الوحشية تلك في سفك الدماء وإزهاق الأرواح؟ لأحيا بذنب تلك الدماء الملطخة لأناملي وفوقهم إثمي بحق والدي -إن صدق في كلماته-؟ لقضاء ما بقي من حياتي بين تدبيري للقتل والهروب بفعلتي؟

لقد قادني مرضي إلى قتل الكثيرين دون إدراكي، ليدعني إذًا أمارس تلك الهواية ولو لمرة، لزيادة سجلي الإجرامي الحافل.. حتى لو أمسيت أنا الضحية.

فألقيت بالبخاخة أرضًا بين سعالي المتواصل بكل ما أوتيت من قوة. لم ألحظ إن كانت قد انكسرت أم لا ولم أترك لنفسي فرصة استبيان هذا، حيث انهلت عليها بساقي ساحقًا إياها ليتبعها صوت مؤكدًا على نجاح حذائي في إحالة البخاخة لأشلاء.

هويت بجسدي خائر القوى ملاصقًا لأرضية الحجرة المتربة مع انفلات هاتفي من أناملي المرتعشة، بعد أن أضحى جسمي ثقيلًا من قلة الأكسجين المنسال بين شرايينه.. يبدو أني متشابه مع (أبا الحسني) بالفعل كما زعم، فكلانا اختار نهايته على أن ينساق وراء أحكام أو قرارات الآخرين

فانتويت مقابلة الموت مبتسمًا تلك المرة بين صرخات (أبا الحسني) المستنكرة عن فعلي، وأنا مُقدِمٌ

على أكثر الأعمال صلاحًا بحياتي الفاسدة الطويلة، المتمثل في تخليص الأبرياء من سفاحٍ مثلي، وإخفاق مخطط قاتلٍ آخر. فغمغمت من بين سعالي المحمَّل بالشهقات الفاشلة:

- لن تتمكن من مراقبتي.

فصرخ الصوت من الهاتف بغضب جامح:

- ما الذي تفعله يا هذا؟ ليس بعد كل ما عانيته لإحضارك هنا وعبثي بثباتك الشخصي، لتفسد أنت الأمر بضعفك هذا لمواجهة الحقيقة.. انظر لإرثي في تعظيم واسمح له بتجنيدك لإتمامه.

بغيت أن أبتسم في سعادة المنتصر، لكن ارتجاف عضلاتي حال بيني وبين ذلك.. إنه شعور الموت من جديد! يبدو أنه سيتم مهمته المعلّقة هذه المرة، عن دون رجعة.

(24)
مزحة الموسم

16/2/2005

الأقصر

العاشرة صباحًا

- أستودعك الله يا صديقي، كانت زيارتك سوداء على رؤوسنا أجمعين.

قالها (أسامة) إلى (آدم) وهو يصافحه عند بوابة القصر المعدنية. في ظروف أخرى، كان سيعتقد (آدم) أن هذه مزحة، فيقهقه قليلًا ثم يبادله بواحدة أخرى مشابهة، لكنها كانت حقيقية تمامًا بلا أي نوعٍ من السخرية، ليرد بالنهاية متفهمًا إن كان بوده الحضور فيما هو أقل مشاحنة من هذا.

نظر (أسامة) صوب (إيمان) بطرف عينه ثم قال:

- شكرًا على ما فعلت لأجلنا جميعًا.

- أنا لم أفعل شيئًا، إذا كان هناك من يجب شكره فهو والدتك.

شعر (أسامة) بمرارة في حلقه، فأردف (آدم) سريعًا واضعًا يده على كتف صاحبه مواسيًا، أن والدة

(أسامة) لهي بطلة بصدق.. قررت أن تضحي بحياتها لتحميهم من بطش أختها التوأم، مرافقة إياها لعالم الأرواح بسلام.

فترحم على كلتيهما قبل أن يغمغم (آدم) بنظرة المحقق:

- لقد أخبرتني أن أزمة أسرتك المالية أو القضائية – لا أتذكر- بدأت مع إصابة أختك بفقدان بصرها.. لو تعمقت النظر بالأمر ستجد أن الفترة واحدة. مرض أختك المصاحب للمشكلات المالية، مع ظهور (دنيا) بحياة (إيمان) على هيئة (دينا). كل هذا حدث معًا منذ ثلاثة أشهر مع إصابة والدتك بالشلل.. لقد كانت (دنيا) تكره مال أسرتك الذي شغلهم عنها طوال حياتها؛ لذلك أعتقد أنها المسؤولة بطريقة أو بأخرى عن أفلاسكم وإصابة أسرتك بالنحس. لذلك فاطمئن، أسبوع على الأكثر وستنتهي المشكلة نهائيًا.

ابتسم (أسامة) بسره وهو يلاحظ صديقه يعود لدور المحقق الخارق العالم بكل خبايا الدنيا وأسرارها من جديد، بل وينجم بالمستقبل هذه المرة؛ فسأل ساخرًا:

- وماذا عن القضية يا أبا الغُرَيف؟

- أتقصد مقتل مدير أعمال (المسعودي)؟ وما أدراني بالأمر، أنا لست بمحامٍ لأعلم بموقفك.. لكن لا تقلق

فالأطياف لا تترك خلفها أدلة، وستخرج من القضية سالمًا، غير عاثرين على متهم غير الانتحار ليتم تلفيق التهمة على عاتقه.

هز (أسامة) رأسه علامة النفي، قائلًا:

- ليس هذا ما أقصده أيها المتحذلق. أقصد لماذا قتلته؟

- لقد كانت تنوي بيع المنزل الذي تربت به وجزء من فؤادها يكمن به -وهو والدتك.. كان القصر هو الرابط الوحيد لها بأختها، ولن تسمح بالتضحية بأي منهما أبدًا ولو على حساب سفك الدماء في طريقها.

تذكر (أسامة) سبب مقتل الضحايا الآخرين ثم قال:

- لقد قتلت الخادمة وموظف الأمن والقطط لأنهم كادوا يفضحون أمرها، لكن لماذا لم تفعل هذا معك؟ لقد كشفت سرها وطعنتها مرتين.

- يبدو أنك تشتهي موتي يا صديقي.. لكنها حاولت بالفعل.

فرد (أسامة) متفاجئًا:

- حاولت قتلك؟

- نعم، ألا تتذكر صوت الطنين بغرفتي عندما كانت الخيوط تتضح أمامنا؟ لقد كانت هي، كان هذا الصوت هو نتاج محاولاتها الفاشلة.

- ولكن لماذا لم...؟

أخرج (آدم) من حقيبة سفره، زجاجة مياة صغيرة مقاطعًا:

- بسبب تلك.

- أرجوك لا تخبرني أن تلك الزجاجة مطلسمة على يد مشعوذ فرعوني، أو أن هذه مياه ينبوع الحياة الأسطورية.

- لا أيها السخيف، إنها مياه بحر عادية.

الملح والفضة هي أكثر الأشياء طهارة على الأرض على حسب أقاويل الكتب السماوية، لذلك هي قادرة على التصدي للأشباح أو أي كائن جحيمي آخر.

عوّدته أمه منذ الصغر أن ينثر ماء البحر على عتبة باب الحجرة والنوافذ المغلقة قبل النوم، لتبعد عنه كل ضرر وأي سوء. ليس من السهل أن تنثر الملح مجردًا، فيمكن بعثرته مع هفهفة الريح أو بفعل غير مقصود من الآخرين، ناهيك بالطبع عن جلب الأمر للتساؤلات في أعقابه. لكن ماء البحر المملح أو خليط الملح بالماء الذي يلتحم بالأرض، أكثر أمنًا وتأديةً لغرضه.

أما عن صوت الطنين هذا، هو علامة على محاولة اختراق درع الماء المالح، فقد باتت (دنيا) تحاول بكل قوتها اقتحام الحجرة لكن محاولاتها باءت بالفشل.

فلولا تنفيذه لعادات أمه العتيقة، لكانا قد تحولا للحم مفروم مع بداية الجلسة.

تعجب (أسامة) عندما أخبره (آدم) بتحصنه الدائم بأي مكان وبأي ظرف. فمتى تصادف شبح هائج يهوى قتل الفاضحين لسره؟ إنه أحتمال واحدًا بالمليون. لكن (آدم) ظل على وصايا أمه مهما طالت السنين ومهما ضعفت النسبة أن يقابل أحدهم.. يظل متأهبًا دائمًا.

- هيا يا (أسامة)، لن نبيت هنا اليوم بأكمله.

قال هذه العبارة رجل قصير، ثمين بعض الشيء، مرتديًا حلة داكنة لا تختلف عن باقية البذلات السوداء التي يرتديها الجميع معلنين الحداد. فأردف (أسامة) منهيًا للحديث مع (آدم):

- يجب أن نرحل الآن، إنه عمي يتعجلني.

لقد أقامت عائلة (أسامة) العزاء لوالدته بالقصر، قبل أن تقرر بيعه لتلك المرة وإلى الأبد، وها هو العم يتعجل (أسامة)على الرحيل بعدما أفرغوا كل محتويات القصر العائلية، منه والأقصر برمتها ليستقروا بالقاهرة، تاركين الماضي بأحزانه البغيضة خلف ظهورهم.

فقال (آدم) متذكرًا:

- ألازلتم مصرين على بيع القصر؟

- نعم إنه قرار نهائي للعائلة.

- لقد أخبرتك أن اللعنة ستحل عنكم في القريب العاجل ولستم بحاجة للمال الذي سيعود عليكم منه.. على أي حال، أريدك أن تحرق كل الجماجم والحيوانات المحنطة وكل ما بحجرة والدتك، لا تخلف وراءك إلا الرماد.

أومأ برأسه متفهمًا، أنه سيتم هذا الأمر حين عودته للأقصر من جديد لإنهاء إجراءات البيع، ليقول خاتمًا:

- هل ستظل بالأقصر؟

- نعم فلدي عمل لم ينتهِ بعد، ثم إن رقدتي بالمشفى طوال تلك الفترة ستجعلني أمكث أكثر بهذه المدينة.

قالها (آدم) ضاحكًا على حاله في سخرية. فها هي خطته الانتقامية الموفِّرة للمال من الجريدة قد انقلبت على رأسه تمامًا. جعلته يسقط في قصرٍ تمتلكه ساحرة عجوز ويحارب روحًا ثائرة، ثم يهوي من الطابق الثاني للقصر مخلفًا في جسدة كل تلك الإصابات والكسور التي ستجبره على الاستناد على عكازٍ معدني لمساعدته بالسير لفترة لا بأس بها. ربما حان الوقت ليدعي نسيان خلافاته مع الجريدة ويعود لعمله بدون لؤم ساذج.

ودع الصديقان بعضهما، لينطلق (أسامة) بسيارته

الخاصة مع ابنته خلف سيارات بقية العائلة التي حضرت لنقل جثمان والدته صوب القاهرة، تاركين خلفهم جرح الماضي العميق، ربما هذا الجرح لا يزال نازفًا، لكنه سيلتئم يومًا ما.

على جميعهم المضي في حياتهم ونسيان الماضي. ما النسيان سوى قلب صفحةٍ من كتاب العمر! قد يبدو الأمر هينًا، لكن ما دُمتَ لا تستطيع اقتلاعها نهائيًا ستتعثر بها بكل مرة تلقي بنظرتك المتأملة على هذا الكتاب.. لكن عليهم اعتياد الأمر.

قد تصاب (إيمان) بارتياب من البشر أو تعتزلهم، بعدما اكتشفت أن صديقتها التي تبيت معها في غرفتها وتتناول معها فطورهما، مطالبة (نرجس) بإعداد صحنين مخصوص لها، هي شبح غاضب من ظلم الحياة له فحاول تكوين عائلة مع نسلة لتعوضه عن جفاف السنوات القلائل التي عاشها. أو يصاب (أسامة) بعقدة في تصديق الناس وتأمينهم، في أتفه الأمور، بعدما اكتشف أن والدته ساحرة فودو تم تجنيدها على يدِ خادمتها المتمكنة من الشعوذة. لكنَّ كليهما وجبَ عليهما اعتياد الأمر. اعتياد الواقع بشذوذه عن قواعده التي تفوق قدرة العقل.

قد يعثرون على الخادمة (نرجس) هنا أو هناك بعدما

اختفت بطريقة غامضة عن القصر وعدم عودتها لأسرتها أو أيٍّ من أولادها، آملين ألا يكون قد أصابها نَفش المكروه الذي اعترى الأسبقين. قد يتزوج (أسامة) أو يدمن المخدرات وبائعات الهوى، لكن لديه أسرته التي ستمنعه من هذا وذاك وتحثه على التشبث بالتعقل. قد تبلى ابنته باكتئاب مزمن أو أي مرض نفسي آخر، لكن لديها عائلتها التي سترشدها للاستمرار بالحياة.. لديهما العائلة التي لم تنعم بها (دنيا) إلا مع أختها، التي ستدفعهم على تخطي الأمر.

تذكر (آدم) عندما فتش في حاجيات السيدة (دعاء) ليستبين أنها أجمعين تستخدم في سحر الفودو الأبيض وليس الأسود كما خطر بباله. لم يتعثر بحقيبة من عظام الرضع مكتنزة بالدولاب، أو كتيب قديم للسحر الأسود مختبئًا أسفل الفراش، أو عظام موتى مسحوقة بأحد أدراج الكومود. فسرعان ما علم (أسامة) أن الخادمة الأفريقية كانت بدورها من ساحرات الفودو الأبيض. وتنص تعويذة الهبة التي من خلالها تمنح الساحرة التابعة لنسل السحرة -الخادمة (بولكا)- لامرأة سمراء أجنبية النسل -السيدة (دعاء)- تعويذة واحدة لا غيرها من أصل أربع تعاويذ متمثلة في (التتبع - الحماية - التواصل مع الأرواح -

المداواة). وكان اختيارها سهل الاستنتاج علينا الآن. فليتها اختارت التواصل مع الأرواح لما كان كل هذا الخراب قد حل بهم، كما يبدو أن الرابطة التي جمعت بين الأختين أقوى من أن تتواصل معها غريبة حتى لو كانت من نسل السحرة الأفارقة على غرار (بولكا).

تحركت السيارة نافثة خلفها عوادم الماضي سعيًا للحياة الجديدة، و (آدم) يتبعهم بنظره من بعيد. هذه النهاية سعيدة أكثر من اللازم! مثالية أكثر من المعتاد! أن يقضي البطل على الوحش ليحيا الآخرون بسعادة حتى مماتهم، لا تحدث إلا بالأفلام، أما الواقع...

هنا جحظت عينا (آدم) على اتساعهما، عندما تذكَّر شيئًا..

***

ضمت (دنيا) قبضتها في حدة والشرر يتصاعد من عينها:

- اعتقدتِ أنك هكذا تخلصتِ مني. ظننتِ أنني سأمل من مطاردتك..

لكنكِ وخادمتك الزنجية لا تعلمان شيئًا عن الأرواح.. نحن لا نمل ولا يمكن التخلص منا. وقد حان وقت أن تدفعي ثمن تجنبي لكل تلك السنوات..

***

الأشباح لا يمكن التخلص منهم على قول (دنيا) ذاتها!

لم يكد (آدم) يستوعب الموقف حتى وصلت لمسامعه صوت زمجرة سيارة (أسامة) وهي تنحرف متقلبة على الطريق، مخلفة الكثير من الدماء في عقبها!

(25)
احترق معي

12/2/2016

القاهرة

الثانية صباحًا

"بعد التعاون مع قوات الشرطة والاطلاع على الأدلة التي صرَّح بها المعمل الجنائي، بجانب تقرير الطب الشرعي النهائي من تشريح للجثة، اتضح بعد شهرين من التحقيقات في قضية سفاح الوادي الجديد التي شغلت الرأي العام لفترة ليست بالهينة، التالي:

1. *تم التعرف على صاحب الجثة التي تم العثور عليها بأحد العقارات بمنطقة نائية بمحافظة الوادي الجديد، قريبة من المناجم، بشقة بالطابق الرابع من العمارة، بالأخص في غرفة مغلقة بها وهو المدعو (حسام علاء الدين) محاسب سابق بإحدى الشركات الخاصة.*
2. *تم العثور على الجثة في حالة تحلل أو شبه تالفة بعد أن مكثت في هذه الحالة لمدة أسبوعين كاملين دون أن يلاحظ أحدهم الرائحة؛ فالبناية*

بلا شقق مأهولة بالسكان وحتى العمارات الأخرى بعيدة المدى عنها، بالإضافة إلى أن الغرفة التي تم العثور بها على الجثة كانت شديدة الإغلاق ومنعدمة التهوية.

3. تم الإبلاغ عن اختفاء (حسام علاء الدين) من قِبَل أحد أصدقائه بالعمل المدعو (صبري رضوان)، بعد أسبوعين من اختفائه.

4. عندما تم الاستفسار من مقدِّم البلاغ عن تأخُّره في الجهر عن اختفائه، أجاب بأن (حسام) ليس من الوادي الجديد بالأصل وأعتقد أنه قد سافر لأحد معارفه بالقاهرة أو تركها بلا رجعة، لكنه آثر أن يقدِّم بلاغه للشرطة بعدما عجز تمامًا عن التواصل معه أو الاطمئنان على مصابه. ومن هنا تم تحويل التحقيقات لمباحث القاهرة.

5. و قد أودى رئيس مباحث قسم شرطة وسط البلد بأن المدعو (حسام علاء الدين) كان أحد الأسماء المسجَلة بقضية قتل بالقاهرة.

6. كانت القضية هي مقتل الطبيب النفسي (سراج فريد) بحمامه الشخصي بإلقاء مجفف شعر زوجته بحوض الاستحمام، مما شرع بتوليد ماسٍ كهربيٍّ أودى بحياته في خضم توانٍ، أثناء تغيُّب

كل أفراد عائلته عن المنزل، وقت وقوع الحادث لزيارة عائلية ما .

7. لكن التحليل النهائي للمعمل الجنائي أكّد أن المدعى عليه –الطبيب النفسي- قد تعرّض لمخدر قوي أفقده الوعي عند الحادث مما يؤدي للاشتباه بوجود شبهة جنائية بالأمر. خاصة مع تأكيد الزوجة على أن رغبة زوجها للمكوث بالمنزل تمثلت في الاطلاع على بعض تقارير مرضاه بدون نية للاستحمام ذلك اليوم، كما أن لديه عادة قديمة تحيله عن الاستحمام ليلًا حتى لا يعتريه البرد .

8. وحين تحليل هذا المخدر والتعرف على نوعه، وجد أنه أحد أنواع الرزاز التي تستخدم في الدفاع عن النفس، كما وجد أن الطبيب يملك ما يماثل ذلك الرزاز بشقته. لتؤكد الزوجة على حرص الطبيب على الاحتفاظ بهذا الرزاز كضمان لسلامته الشخصية أثناء تعامُله مع المضطربين ذهنيًا الذين قد يهجمون عليه بانفعالات مثارة بأي لحظة .. أي يمكن أن يكون تعرّض له عن طريق الخطأ، خاصة مع وجود أنبوب الرزاز هاويًا جانب حوض الاستحمام بمسرح الجريمة .

9. وعندما تم وضع قائمة للمشتبه بهم. وجد أنها تحمل الكثير من الأسماء بحُكم عمله مع المرضى النفسيين وخاصة الذين يأتون لجلساته وينقطعون عنها تلقائيًا بدون سبب كما فعل (حسام) وغيره.. لذلك تم تسجيل القضية ضد مجهول لعدم توافر الكم الكافي من الأدلة لاتهام أحدهم صراحة.

10. بجانب رأي الطبيبة النفسية (مريم محروس) التي تم توكيل هذه القضية لها لتحليل شخصية القتيل وطريقة الموت، أوفدت بأن الطبيب النفسي هو أكثر الأشخاص تعرضًا للانتحار من مريض الاكتئاب ذاته، بسبب ما يلقاه يوميًا من أنواعٍ مختلفة من الأمراض النفسية قد تترك به بصمةً ما. مما أدى لتعطيل مجرى التحقيقات لتعارض التحليل النفسي مع شهادة الزوجة والأدلة القليلة. فقامت الزوجة بعدها بتأجير عيادة الطبيب الخاصة لإحدى الشركات الحديثة.

11. لتختتم القضية على أن رغبة الطبيب المفاجئة للاستحمام واستخدامه لرزاز التخدير عوضًا عن صابون الشعر عن دون قصد، ليهوي بجسده في حوض الاستحمام الممتلئ حتى نصفه بالماء،

مسقطًا في عقبه أي شيء حاول التمسك به مانعًا جسده عن الخمول، ومن ضمنها مجقف الشعر.

12. عندما اقتحمت الشرطة الغرفة التي وجد بها (حسام)، وجدت بها كمًا هائل من البرطمانات المخزّن بها عددٌ ضخمٌ من أزواج الأعين. واستنادًا لتقرير المعمل الجنائي بصورة أدق. أكد أنه كان هناك ثمانية وثلاثون برطمانًا محمّلين بمادة الفورمالين لحفظ أزواج الأعين التي اتضح أنها آدمية وتخص أشخاصًا أفيد أنهم فُقِدوا أو قُتِلوا منذ خمسة عشر عامًا أو أكثر في ظروف غامضة. حيث كانت الأعين تخص مختلف الأنواع من البشر، رجالًا ونساء أو أطفال وراشدين.

13. وبعد تقرير الطب الشرعي اتضح أن المدعو (حسام علاء الدين)، قد لقي مصرعه بتلف بعضلة الرئة نتيجة انسداد شعبته الهوائية. والتي قيدت على هيئة انتحار لعثور الشرطة على بخاخة التنفس بمسرح الجريمة مهشمة.

14. بعد التحريات اتضح أن (حسام) ليس بالمسؤول عن مقتل هؤلاء الأشخاص أصحاب العيون بالبرطمانات، حيث تم قتلهم قبل أن

مسقطًا في عقبه أي شيء حاول التمسك به مانعًا جسده عن الخمول، ومن ضمنها مجفف الشعر.

12. عندما اقتحمت الشرطة الغرفة التي وجد بها (حسام)، وجدت بها كمًا هائل من البرطمانات المخزّن بها عددٌ ضخمٌ من أزواج الأعين. واستنادًا لتقرير المعمل الجنائي بصورة أدق. أكد أنه كان هناك ثمانية وثلاثون برطمانًا محمّلين بمادة الفورمالين لحفظ أزواج الأعين التي اتضح أنها آدمية وتخص أشخاصًا أُفيد أنهم فُقِدوا أو قُتِلوا منذ خمسة عشر عامًا أو أكثر في ظروف غامضة. حيث كانت الأعين تخص مختلف الأنواع من البشر، رجالًا ونساء أو أطفال وراشدين.

13. وبعد تقرير الطب الشرعي اتضح أن المدعو (حسام علاء الدين)، قد لقي مصرعه بتلف بعضلة الرئة نتيجة انسداد شعبته الهوائية. والتي قيدت على هيئة انتحار لعثور الشرطة على بخاخة التنفس بمسرح الجريمة مهشمة.

14. بعد التحريات اتضح أن (حسام) ليس بالمسؤول عن مقتل هؤلاء الأشخاص أصحاب العيون بالبرطمانات، حيث تم قتلهم قبل أن

يسافر للوادي الجديد من الأساس، بل قُتِلوا على يد رجل الأعمال السابق وكبير أعيان الوادي الجديد، (حازم الحسني المنوفي) الشهير بلقب (أبا الحسني) الذي لم تستطع الشرطة حينها تقدير عدد ضحاياه. حيث هربت إحدى ضحاياه من شقتها بعد محاولته لقتلها، تدعى (آيات السيد)لتحتمي بالشرطة. فانتحر (أبا الحسني) على عتبة منجمه القريب من المنطقة، بعد أن خضع مع الشرطة في البداية قبل أن يندفع ويسرق مسدس أحد الضباط منهيًا حياته الوحشية بيده حتى لا يقع ببراثن الشرطة هاربًا من الحساب على أفعاله.

15. كان لدى (أبا الحسني) الكثير من الأملاك التي تم تحويل بعضها للقطاع العام والبعض الآخر أمِر بإغلاقه حتى إشعار آخر. وكانت الشقة التي تم العثور فيها على جثة (حسام) هي من إحدى الشقق التي أصدر قرار إيقاف التملك بشأنها، لكن يبدو أن أحد السماسرة قد فتحها ليؤجرها بحسابه بعد أن تيقن أن الحكومة قد نسيت أمرها.

16. فتوصلت التحريات إلى أن (أبا الحسني) كان

يقوم بجرائمه في أماكن مختلفة ثم يعود لوضع تذكار قتلاه المتمثلة في زوج الأعين بمنطقة سرية بأحد المناجم خاصته، لكن بعد هروب (آيات) منه، حرص على تخبئة برطمانات الأعين بذات العقار الذي حاول قتلها به بصفته أحد ممتلكاته العادية التي لا يتردد عليها كثيرًا فيبعد عنها شُبهات أنه يقبع بداخلها رفات موتى عظيم، ولأن ذلك العقار هو أقرب ممتلكاته من المنجم ليحيله مخزنًا لآثار جرائمه البشعة.

17. وبعد التمحيص بتاريخ (حسام علاء الدين) والتحقيق مع التربي (شعبان عبدالحميد) باعتباره آخر من هاتف (حسام) على جواله المحمول، استبين الآتي بعد ثبوت الأدلة:

a. سندت له جرائم قتل ثلاثة من عمال المنجم -زملائه بالعمل-

b. سندت له تهمة مقتل اثنين من زملائه بالعمل القديم بالقاهرة.

c. سندت له جريمة مقتل الطبيب النفسي.

بعد أن تم فتح كل تلك القضايا من جديد وإبعاد نظرية الحوادث عنها. حيث أمست جرائمه الثلاث الأولى تحمل طابع الحوادث بدورها لكنها ليست كذلك

بالوادي الجديد التي ازدادت بها الحرفية والمهارة كما
لو أن مهاراته بالقتل قد تطورت مع تلك المنطقة
الجديدة.

وهكذا تنتهي قضية (أبا الحسني) للمرة الثانية وقضية (حسام علاء الدين) لمرة واحدة.. وإلى الأبد. لكن سيظل سر وجود (حسام) بتلك الغرفة المغلقة من الخارج لغزًا لم يتم استبيانه.

ادعت الشرطة بأن (حسام) كان لديه شريك بكل تلك الجرائم، وانقلب عليه كأمور الأفلام تلك لاختلافهما على أمرٍ ما، رغم أن القتل كان لسببٍ مَرضيٍّ تم تصنيفه على أنه فصام حاد بالشخصية لم يدرك (حسام) ذاته به، دون الدافع للسرقة أو الانتقام على سبيل المثال. أو أن ضحيته الأخيرة قد حبسته بتلك الغرفة بعد أن تمكنت من الهرب مثلما حدث مع (أبا الحسني) رغم عدم وجود أيِّ علامات شجارٍ بالشقة او عنف على جسد (حسام).. سيمسى هذا اللغز الذي لم يحل بعد في القضية، وحتى بعد إغلاقها وتسليمها للصحافة.

والسؤال هنا: هل تصريحات رجال الشرطة عن تلك القضية حقيقية، أم هي محاولة لإهماد حماس الصحفيين وثرثرة الرأي العام كما يفعلون في الكثير

من الأمور؟ .. لكن مَن يعرف الصدق عن المراوغة هنا؟ فيبدو أنه لدينا لغز آخر لن يُحل ولو بعد آخِر الزمان."

شكرًا

الصحفي/ آدم سمير

***

القدر ليس بلعبة بل هو اللاعب وأنت اللعبة بين راحتيه الخبيثتين، ولا وجود للعبة تتمرد على لاعبها المتمكن. فالقدر كان ساخرًا أيضًا عندما أوقع هذا المقال بين كفي (كريم زينهم) لم يكن ساخرًا فحسب، بل كان فنانًا لئيمًا. لماذا؟ هناك العديد والعديد من الأسباب.

(كريم) هذا شخص مخفي، ليس مخفيًا بالمعنى الحرفي أن لا أحد يراه، بل مخفي عن الدولة. هو بكل بساطة معلم بالصف الابتدائي بإحدى المدارس الحكومية، أي أن وظيفته ليست مؤثرة بشكل ملحوظ، ليس لديه أي سابقة أو أي نشاط سياسي أو حتى أملاك غير شقته الصغيرة وسيارته الأكثر صغرًا.. إنسان أكثر من طبيعي وأكثر من ممل، لا يواظب على أي هواية من قراءة الصحف الإلكترونية أو حتى الورقية.

فتخيل أنت عندما تضحى شخصًا بهذه المواصفات، ويتآمر قدرك مع حظك العاسر لتتلف سيارتك قبل أحد

مشاويرك المهمة التي لا يمكن تأجيلُها، لتستقل إحدى سيارات الأجرة كحلٍّ أخيرٍ. ثم تعثر بالمقعد الخلفي على هذه الصحيفة الورقية كهدية من الراكب السابق، فتنتوي قراءتها كنوعٍ من التسلية لإضاعة الوقت الذي يمر برتابته بين شوارع القاهرة المكدَّسة بالسيارات. لتمسى تلك المقالة المصحوبة بصورتي (حسام) و (أبا الحسني) بعصبة عينه الذهبية، هي الأولى التي تسقط عينك عليها.

أين المشكلة في هذا! بالطبع لم تلحظها فأنت لست (كريم).. علة الأمر تكمن أن (كريم) هو ابن الحاجة (آيات السيد) الذي هاجر للقاهرة منذ ثماني سنوات، وها هو يرى اسم والدته والحادث الذي تعرضت له منذ أربعة عشر عامًا أو أكثر، مؤكدين على دورها في القبض على (أبا الحسني).

هنا علينا جميعًا الانحناء للقدر رافعين له القبعات باحترامٍ. فالقدرُ هنا يُثبت..كم أن الدنيا صغيرة ومتشابكة! كم أن الماضي حاضرٌ بشبحه مهما حاولت نسيانه! كم أن كل تلك المصادفات لا تَحدُث إلا ولها دلالة ما! كم أنَّ القدر خبيث ويقهقه على سذاجتنا بنشوة ماكرة!

لكنّ المقال لم يَذكُر حكاية أمه بشكل كامل وصريح،

غير محدد مصيرها بعد هروبها من (أبا الحسني).. فقد تم إنقاذ (آيات) بواسطتة طبيب الصيدلية الدؤوب الذي ركضت إليها رغم وهنها، فهو من قدَّم البلاغ للشرطة عندما أفاقت المرأة بعد إغماءة لم تدم طويلًا، اعترفت باسم المعتدي عليها وقاتل ابنها، في حين أن رقعة العين الذهبية التي لم تبارح قبضتها قط كتشبثها بالحياة كانت مصدِّقة على اتهامها قبل أن تتفوة به.

تذكَّر حينها كيف وصف الأهالي انتظار (أبا الحسني) لقوات الشرطة في منجمه كما لو أنه يترقب الموت ذاته، لكنه عزم على تحقيق مبتغى الموت بطريقته المفتقدة للتعقل ختامًا لحياته المدونة أسفل عنوان الجنون. كان بمقدوره أن يرشي الشرطة أو يدعي البلاهة ككل مرة تقرب بها الأدلة والشهود للإيقاع به، لكنه أثر هذه المرة على الاستسلام، كما لو أنه يفضل أن يختتم حياته بعد هذا العار الذي لحق بمسيرته العظيمة من سفك الأرواح -من وجهة نظره- بعدما تمكنت إحدى ضحاياه من الهروب من قبضته بل زادت على الأمر بطعنها لساقه.. اكتنفته الإهانة التي لا يتم مداواتها إلا بالموت.

ففر بعدها (كريم) ووالدته للقاهرة ليبدآ منها حياة جديدة تاركين في أعقابهما ذكريات لا تحمل إلا الشقاء

والموت، آملين في مستقبل أفضل وأكثر استقرارًا.

وها هو الآن في طريقه لزيارته الأسبوعية لأمه بالمشفى التي تتعالج بها من دمور بالجهاز الحسي أفقدها بعضًا من حواسها بفعل تقدُّمها بالسن. وبسبب أمر السيارة المعطلة تلك، فهو بطريقه لهناك وحده دون زوجته.

وصل (كريم) المشفى بعد أن سرق هذا المقال الوقت معه أثناء مطالعته، وحمل عقله بالكثير من التساؤلات. وأثناء تلك الأحداث المملة من نزول (كريم) من السيارة ثم دفع أجرتها ثم توجهه لاستقبال المشفى وطلب زيارة والدته والتوقيع على زيارتها، ثم ترجله للغرفة التي يتردد عليها مرة أسبوعيًا منذ ثلاثة أشهر.

حتى بدأ ذهنه يفكر في أمر سخرية القدر تلك! لمَ ظهرت سيرة (أبا الحسني) هذا من جديد؟ فما فعله هذا اللعين بأمه وأخيه الأصغر نقش بشخصيته بصمة واضحة، لم يزِلها إلا الزمن بعد عناء.. فرغم أنه لم يكن بالمنزل وقت الحادث لانشغاله بالعمل رغم صباه، فإن مشهد بقعة الدماء الجافة بصالة المنزل ومنظر جثمان أخيه المقتول وهو مغلَّف بكفنه الصغير، ظل ينتابه بكوابيسه لأيام عديدة.

لن ينسى أبدًا وجه (أبا الحسني) الوسيم بعصبة عينه الذهبية المميزة، الذي يخفي بين طياته الجنون ذاته،حيث يبعث في قلبك الثقة ببداية الأمر، لكن مع رؤية ابتسامته الواسعة التي لا تمت للتعقل بصلة، وعينه الغائرة بجبهته التي تصيبك بعدم الراحة من مشهدها العجيب، تدرك بعد فوات الأوان أن تلك الثقة التي كانت بقلبك ما هي إلا مشاعر مزيفة ليحل محلها الخوف والاضطراب.

أما والدته فقد عانت كثيرًا طوال تلك السنوات بما تعتبر معاناة (كريم) دغدغات خفيفة مقارنة بما صابها. ظلت من بعد الحادث صامتة لفترة ليست بالهينة، تبكي دون مقدماتٍ لأشهر عدة طالت لسنواتٍ، لا تشارك الآخرين بأفعالهم الطبيعية إلا نادرًا حين تخرج من شقة ابنها أو حين تُحادث الأغراب. كما لو أن جزءًا من روحها محتجزٌ في موقع الحادث –شقتها بالوادي الجديد-، وذلك الجسد لم يعد إلا وعاءً خاليًا من أيِّ أنماطِ الحياة، إلا بالقليل الذي يبقيها تتنفس.

عدا في الفترة الأخيرة التي دبت فيها الحياة بنمط غير معهود، كما لو أنها بعثت فيها للعالم من جديد كنهج الفراعنة، أو أن روحها المقيدة قد تحررت أو نالت على الأقل جزءًا من مبتغاها. ولكن تلك الفرحة

بعودة والدته للحياة لم تَدُم إلا لأشهر قلائل حتى اعتراها المرض في الرابع من ديسمبر عندما ضعف بصرها وسَمعُها دفعة واحدة بطريقة مفاجئة، وهو نفس يوم الحادث المشؤوم، كما لو أن حالة اعتكاف الحياة تلك قد عادت لها مضاعفة.. لمَ كل شيء مترابط بطريقة مخيفة؟ المصادفات تحدث لكن ليس بهذه الدقة المثيرة للغيظ.

لكن مهما ضرب الخيال بعقل (كريم)، لم يخيل له يومًا أن روح أمه المحتجزة مع ابنها بموقع الحادث، كانت تُعذَّب كل تلك الفترة على يد شيطان (أبا الحسني) بإجبارها على معاصرة يوم الحادث برمته بشكل يومي، كما لو أنه جحيم أزلي لا خلاص منه.. ولم يكن هذا إلا ثأرًا منه على تشويهها لمسيرته الفنية في القتل، كما لو أنه لم ينتظر موتها حتى يعذبها كما يشتهي بل عقد العزم على إذاقتها الأمرين في حياتها قبل مماتها.. وتلك الأيام الأشهر التي عادت فيها لعافيتها كانت توافق الفترة التي انتقل بها (حسام) حيث وعدها (أبا الحسني) برحمها من جهنمه الخاص بل وملاقاة روح صغيرها المحتجزة في منجمه الخاص بالغرفة المغلقة، بمقابل عونه في تهشيم ثبات (حسام) النفسي لتأهيله ليضحى خليفة له.. أي خيال جنوني

يمكنه تصور هذا الهول؟

دلف إلى أمه الغرفة بعد أن طرق عليها، ليجدها جالسة على أحد المقاعد تتأمل السيارات والمارة من النافذة، فعندما اقترب منها (كريم) ليطمئن على صحتها ثم يقص عليها ما قرأه في الجريدة اليوم، توقف مذهولًا! تراكمت الكلمات على طرف لسانه كما تجمد عن التقدم عندما لاحظ ما يقبع بين قبضة والدته، أغمض عينيه بقوة ثم عاود يفتحهما بسرعة مباغتة ليتأكد أنه لا يحلم، لكن المشهد الذي لم يتغير أثبت أنه لا يتوهم وأنه ضرب من الواقع وليس همسًا من خيال.

اقترب منها أكثر مدققًا حدقتيه ليحثها على التمعن بالنظر، فقد تضحى عدوى ضعف البصر قد اعترته منها بطريقة ما أو أن تعليمه لهؤلاء الشياطين المتنكرين في هيئة أطفال بالمدرسة قد أفقدوا له بصره قبل عقله بفعل الإرهاق.. لكن ما رآه كان حقيقيًا! لقد كانت الأم تقبض على عصبة عين ذهبية مميزة! يتذكر جيدًا أن الشرطة قد تحفظت عليها منذ سنوات لعدم وجود ورثة لتسلمها!

هل سرقتها؟ هل صنعت نسخة منها لتحتفظ بها وما قدمتها للشرطة لم تكن سوى نسخة مقلدة في حين

أنها أثرت الاحتفاظ بتذكار (أبا الحسني) دونًا عن غيرها؟ هل كانت بحوزتها كل تلك الفترة مذكرة إياها بكل هذا العذاب؟.. يبدو أن عليه تدبير مقابلة بينه وبين كاتب المقال، ذلك الصحفي المدعو باسم (آدم سمير).. فلا يزال للحديث بقية.

الختام

5/12/2005

الأقصر

التاسعة صباحًا

- "ألا أونا"، تم الحجز للسيد... "ألا دوي"، ألن يزايد أحدهم؟.. "ألا تري"، تم البيع.

نطق المحامي الشاب بهذه الكلمات الإيطالية بحماس معلنًا بها انتهاء المزاد وإتمام صفقة يرضى عنها البائع والشاري.

كان المزاد ضخمًا حضره كبار رجال أعمال مصر كاملةً، فرغم أن مكان إقامة المزاد بعيدٌ عن قصورهم الفخمة وسياراتهم الفارهة، إلا أنهم قطعوا كل تلك المسافة للمشاركة بالمزاد آملين بالفوز.. فهذا القصر، فرصة لا تعوّض لأيٍّ منهم.

قديم لدرجة أثرية، ضخم لدرجة تغطيته على ما حوله، فخم لدرجة توحي أنه يعود لملك ما، غريب لدرجة تثير الإعجاب والفضول، حسن السمعة لدرجة الاطمئنان المطلق، بهي الموقع لدرجة تجعله محل المدينة أو تسمية الشارع على لقبه.. إنه فرصة مثالية

لأي شخص يهوى افتتاح فنادق سياحية، أو الجامعات الخاصة، أو حتى المولات عجيبة الشكل. وإن لم يهتم بهذا أو ذلك، فلديه مساحة أرض لا بأس بها، تكفي لافتتاح أبراجٍ للتجارة أو عدة عمارات متلاصقة صالحة للإسكان.. مهما كانت نية الشاري فهذا القصر يضمن له النجاح.

بعد رُبعِ ساعة من تصادُم الكراسي وندَم رجال الأعمال على هذه الرحلة الطويلة للأقصر من أجل اللا شيء. فهذا الوقت مكَّنَهُم أن يستغله في القيام ببعض الصفقات أو رَفْد بعض الموظفين. الكسولين أو خيانة زوجاتهم مع عشيقاتهم أو خيانة كلتيهما مع بائعة هوى.

في هذه الأثناء كان (عادل عبد المقصود) يراجع على صحة العقود التي سيتم تحويلها للشاري الجديد للقصر. فلاحظ (رشاد) تقطيب حاجبي (عادل) وهو يعد تلك الأوراق، فسأل سريعًا بلهفة عن إن كان هنالك خطب بالأوراق. فمسح (عادل) على جبهته عرقًا خياليًا كعادته عند التوتر ثم أجاب:

- أنت تعلم يا (رشاد) أننا تخطينا مرحلة الزمالة أو الموظف ومديره تلك، فأنا أعمل لديك في شركاتك منذ تخرجي من كليه الحقوق ونحن أكثر من صديقين،

فأنت لا تناديني بـ (المتر) أو أنا ألقبك بـ (أستاذ).

قاطعه (رشاد) في حزم أن يطلعه بمراده دون تلك الديباجات السخيفة، فمسح (عادل) جبهته كالعادة وأعدل من عويناته قائلًا كأنه لم يسمع جملة (رشاد) الاعتراضية الحانقة إياه على الدلوف لصلب الموضوع:

- نحن أكثر من إخوة، وأعتبر أملاكك أملاكًا لي، ومن مصلحتي الحفاظ عليها.. لهذا أخبرك أن فكرة بيع القصر لهو أمرٌ شنيعٌ.

كان (عادل) أكثر من أخٍ وأكثر من صديق إلى (رشاد) وأخيه (ناصر) وعائلة (علام) بأسرِها. لقد نشأوا ودرسوًا معًا ونضجوًا سويًا وكهلوا أجمعين.

فقال (رشاد) وهو يجلس على أحد المقاعد ليريح ساقيه العجوزتين:

- أتأتي لتقول هذا الآن بعد انتهاء المزاد؟

- لقد أخبرتك عشرات المرات من قبل لكنك لم تسمعني أو تجاهلتني متعمدًا.

- نعم أتذكر إخبارك لي بهذا، وأتذكر ردي بدوري بأن هذا الأمر محسوم بلا نقاش.

قالها (رشاد) بلا مبالاة متطلعًا لمكيف الهواء الذي يؤدي واجبه على أكمل وجه بحجرة الإدارة بالقصر – أو الفندق إن أردنا الدقة- ورغمًا عن هذا يستمر (عادل)

في مسح جبهته من العرق الخيالي بين كل جملةٍ ولاحقتها.

- إنه قصر عائلتك منذ قرنٍ تقريبًا.. مرَّ عليه العديد من الأجيال وتخلدت به ألف ذكرى لأجدادك.

قاطعه (رشاد) من جديد:

- حتى تحول لفندق ورحل عنه الجميع عدا ابن أخي الذي عمل بإدارته ووالدته العنيدة.

- لكن هذا لا ينفي أن المكان له قيمة هائلة بين أسرتكم. لقد كنت تنوي مع (ناصر) بيك بيعه لحل أزمتكما المالية، وكنت مؤيدًا لهذا الرأي لعدم تنوع الخيارات أمامنا.. لكن الآن بعد أن سقطت عنا تهمة التهرب الجمركي وفك تجميد أرصدتكم البنكية.. لمَ ستبيعه إذًا؟ قم بإعادة فتحه مرة أخرى للعمل واستقبال السياح وسأشرف عليه بنفسي إن أردت، أو حتى أغلقه حتى نفكر له باستخدام آخر أكثر إفادة.

لم يستطِع (رشاد) تحمُّل المزيد من سذاجة مدير أعماله، فهب واقفًا وهو يصيح بطريقة شبه مكتومة حتى لا يسمعه أحد:

- ألم تفهم بعد سبب رغبتي لبيع هذا المكان الموبوء بعد؟ في البدء، بُليت (دعاء) زوجة أخي بالشلل به، ولم تمر بضعة أيام إلا وكانت عائلتنا بأسرِها في نزاع

القضايا الملفقة تلك، ثم أصيبت ابنة أخي بتلفٍ بقرنية العين، ثم اعترى أخي (ناصر) ذاته الاكتئاب وأضحى لا يبارح موضعه إلا بالمحاليل، ثم ماتت (دعاء) بالسكتة القلبية مثلما ماتت أختها التوأم -أو بطريقة مشابهة- بالقصر عندما كانت في العاشرة من العمر، لتنقلب بالنهاية سيارة ابن أخي (أسامة) ويموت هو وابنته ذات الست سنوات على بعد أمتار قليلة من القصر.

شعر بغصة في حلقه لكنه تحامل على نفسه مكملًا:

- ليموت أخي حزنًا عليهم جميعًا، وتنتحر ابنته بعدما فقدت أسرتها كاملةً ونظرها من قبلهم، لتنتهي أسرة (ناصر علام) عن وجه الأرض كأنها لم توجَد من الأساس.

كان (عادل) يريد أن يذكِّره بأن أموالهم قد عادت بعد ذلك، لكنه لاحظ أن هذا ليس بالوقت المناسب؛ فالمال ليس دائمًا التعويض المناسب. أي نقود تلك التي يمكنها أن تغض بصرك عن كل هذه المآسي المتلاحقة المنهالة على عاتق تلك العائلة كالصاعقة.. فحياة أسرتك أهم آلاف المرات من الجنيهات التي يمكن تعويضها.

ليكمل (رشاد) وعيناه تحمران تمهيدًا لبعض الدمعات التي ستحطم حاجز تماسكها بأي ثانية:

- وبعد كل هذا يتم اقتحام القصر لسرقة جميع الأنتيكات من الجماجم والحيوانات المحنطة، ثم نبش قبر (دعاء) وأختها (دنيا) لحرق جثتيهما بها، ناهيك عن (نرجس) التي وجدوها تطوف الشوارع ممزقة الملابس، متمتمة كالدراويش، بعد أن أصابها الخبال، والقضية التي رفعها علينا أبناؤها، لما ألحقناه من ضررٍ نفسيٍّ لأمهم الحبيبة.. وبعد كل هذا لم تلحظ أن هذا القصر نحس الطالع؟

جلس على كرسيه من جديد، بعد هذا الانفعال ليقول:

- أعلم أن هذا الأمر بدأ فجأة، وأن القصر كان طبيعيًا منذ عشرات السنين، لكن بعد كل ما حدث وكل ما خسرته، ليس لدي الاستعداد لخسارة المزيد.. أعلم أيضًا أنه لم يبقَ لي في الحياة الكثير، لكني أريد أن أقضيها مرتاح البال سعيدًا مع ما تبقى من عائلتي.

تناول كوبًا من الماء موضوعًا بجانبه على المكتب ليرتشف منه بعض القطرات، تهدئةً لانفعاله نتيجة تذكره لأسرة أخيه التي مسحت عن بكرة أبيها بين يوم وليلة، مكملًا:

- هناك شيء خاطئ بهذا القصر وعلينا التخلص منه، لقد أنفقت العديد من الآلاف على شاكلة رشاوٍ للتكتم

على ما اصابنا بسبب هذا القصر وقد كلفني هذا الكثير، خاصة هذا (المسعودي) ومدير أعماله اللعين الذي قتل نفسه هنا.. سمعة القصر الآن كالجنيه الذهبي كما يقال، والدليل على هذا هو الكم الغفير من رجال الأعمال الذين حضروا للمزاد جاهلين بتاريخه المظلم.

. كاد (عادل) أن ينطق لكن (رشاد) قاطعه بحسم من جديد:

- أعلم أن والدك تربى بهذا القصر مع أبي، وأنك تحاول الحفاظ على المكان الذي يجمع بين أسرتينا، لكن ها أنا أرددها على مسامعك من جديد أن هذا القرار نهائي.. هذا المكان ملعون لسبب أجهله ولا أهتم لمعرفته.. فما يهمني الآن هو التخلص منه.

حاول (آدم) القضاء على هذه اللعنة كما أخبرته والدته بحرق كل ما يتعلق بالساحرة وأختها، ظن أنه هكذا قد ختم الأمر نهائيا لكـ...

سمع كلا الرجلين طرقًا على الباب، فأذنا للطارق بالدلوف للحجرة ليتضح أنه الشاري الذي فاز بالمزاد منذ نصف ساعة تقريبًا، فقال مبتسمًا بعدما ترجل للحجرة:

- اعذروني على تطفلي لكني لدي طائرة لألحق بها.

أعتذر (رشاد) عن تأخرهم في إعداد الأوراق،

متحججًا بأن أوراق القصر عديدة بسبب قدمه. فراح الشاري يخط المبلغ المتفق عليه في المزاد على شيك مصرفي، قبل أن يقطعها مقدمًا إياها للمتر (عادل) مصحوبة بابتسامة على ثغرة. بينما (رشاد) أمسى يتأمل هيئة الشاري بعين وعلى بيع القصر وإتمام شيك المبلغ المالي بالعين الأخرى.

كان في الأربعينيات تقريبًا من عمره. قوي البنيان، وسيم الوجة، لم تغتصبه التجاعيد بعد، ذا أسنان بيضاء لم تعرف لها السجائر طريقًا من قبل، لم يغتصبه السن بعد إلا في شعيراته البيضاء وتجعيدة منفردة هنا أو هناك على وجهه، يرتدي حلة أنيقة كأغلب رجال الأعمال الذين حضروا المزاد.

لم يكن الرجل ما أثار فضول (رشاد)، بل العجيب هو مَن هذا الشخص من الأساس؟ فمجتمع رجال الأعمال لهو سوق مغلق للغاية يعلم الجميع بعضهم البعض به، أما هذا الرجل فلم يمر عليه من قبل، فشرع (رشاد) يسأل بفضول عن المجال الذي يعمل به، قاطعًا شكه. فابتسم الشاري في ود وهو يردف:

- أعلم أنك لم ترني من قبل، لقد كنت بألمانيا لمدة لا بأس بها لأتعالج نفسيًا من مرض يسمى (البارانويا).. لهذا قد تلحظ أني (خوجاتي) بعض الشيء وقد عدت

لمصر منذ أقل من سنتين.. تحديدًا بالوادي الجديد مسقط رأسي.. لكن أخي كان يباشر لي مشروعاتي وأموالي حتى أعود، فالعمل في مجال المعادن والمناجم لهو أمر يحتاج للإشراف طوال الوقت.

لم يصل الفضول إلى (رشاد) ليسأله لم يقوم رجلًا يعمل بمجال التعدين بشراء قصر سياحي، فهو يريد بيعه وهذا المهم. ليهدمه منقبًا عن البترول أو حتى عن الآثار في أنقاضه.. فهو لن يهتم.

قاطع (عادل) هذا الصمت، داعيًا الرجل للتوقيع بعقد نقل الملكية.

لكن مهلًا.. هل لاحظت معي أن هذا المكان لا يزال في حالة ثورة روحية؟ فهنالك الكثير من عمليات القتل تمت هنا دون وعي من أحد، العديد من الأرواح التي خطفتها (دنيا) لعالم الأشباح معها حتى لا تشعر بالوحدة من جديد، حيث يبدو أنها لم تكتفِ بأختها فحسب. وهناك من فقد عقله وصوابه بين طيات هذا القصر ولم يخرج منه على نفس الحالة التي دلفه بها، هذا المكان كالمفعل النووي أو المجال الكهرومغناطيسي، به الكثير من شحنات الغضب والانتقام والظلم، لن تهمد بعد.

أمسك الشاري القلم وراح يقرأ العقد الذي يتم فيه

البيع بتاريخ الخامس من ديسمبر لعام 2005، تأكد من أن كل ضبط وصحة كافة البنود، وراح يخط اسمه بخطٍّ منمّق (حازم الحسني المنوفي).

لم ترغب (دنيا) في بيع القصر، وبالتأكيد لن تجعل الأمر يمر مرور الكرام، فلم تكن أختها فحسب التي تربطها بعالم الأحياء، بل هذا القصر أيضًا يندرج أسفل قائمة الأسباب.. لهذا لم تجدِ محاولة (آدم) في التخلص من بطش روح الفتاة، فلا يزال أمامه من العمل أطنان، لكن هل سيعلم بالأمر؟ هل سيعاود زيارة الأقصر من الأساس؟ لقد رحل منها معتقدًا إتمامه لوظيفته بغير نية للعودة، غير عالِم بأن ذيل الأفعى لا يزال ينتفض في نشوى.

تصافح الرجلان و (رشاد) يفكر في أن هذا شخص رائع بحق، ربما يضحى صديقًا له ويسأله عن سبب شرائه للقصر أو حتى عن هذا المرض النفسي الذي ذكره منذ قليل بنبرة الغربيين بالاعتراف بأمراضهم بصدور رحبة، أو حتى يستعلم منه عن سبب رقعة العين الذهبية تلك التي تسرق الأنظار، لكن ليس الآن، عليه الآن أن يتمتع بهذه اللحظة ويجاهد لتبدو طبيعية.. ليس لبيع قصر ساذج بل بنقل لعنته الدامية عن عاتقه لغيره.

ابتسم (رشاد) مصطنعًا الود قائلًا:

- مبارك عليك يا أستاذ (حازم)، عسى أن تضحى تلك الصفقة رابحة لك.

ابتسم الرجل بدوره مردفًا:

- بارك الله علينا جميعًا، لكن أرجوك نادني (أبا الحسني).. إنه لقبي الذي يعهدني الناس به.. خاصة أصدقائي.

واستمر الاثنان يبتسمان في بلاهة، غير شاعرين بالهول الذي يحدث من حولهما أو المقدمين عليه جميعًا، ولا تلك اللمسات الشيطانية التي تعبث بعقل الرجل في هذه اللحظات، محرضة إياه على قتل.. من يراقبه.

لم يعرفا كم هما محظوظان الآن، ليس لأنهما أول شاهدين على نشأة أسطورة (أبا الحسني)، بل لأنهما من القلائل اللذين صادفاه دون أن يسفك دماءهما. فمن كان يتخيل أن هذا الرجل الودود سيرتكب كافة تلك الأهوال؟.. ومن هنا كانت البداية..

تمت بحمد الله

كيرلس عاطف